

الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي



جامعة تلمسان

كليّة الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطيّة

بجاية وتلمسان وأثرهما الثّقافي والحضاري على المغرب الإسلامي

من القرن الخامس الهجري إلى القرن السّابع الهجري

- مقاربة تاريخيّة/ وصفيّة/تحليليّة -

إعداد الطّالبة: نجاة بلعباس

إشراف الأستاذ الدّكتور: محمد مرتاض

أعضاء لجنة المناقشة:

- أ.د. محمد زمري	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيساً
- أ.د. محمد مرتاض	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً ومقرّرا
- أ.د. حسين فارسي	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	عضواً
- أ.د. أحمد موساوي	أستاذ التّعليم العالي	المركز الجامعي النّعامة	عضواً
- د. عبد الصّمد عزّوزي	أستاذ محاضر "أ"	المركز الجامعي مغنية	عضواً
- د. أمينة بن جماعي	أستاذ محاضر "أ"	جامعة تلمسان	عضواً

السّنة الجامعيّة: 1439هـ-1440هـ /2017م-2018م


بسم الله الرحمن الرحيم

" !

| { z y x w

£ ¢ ¡ وَعَلَىٰ ~ }

§ ¦ ¥ ¤

a © ¨

سورة النّمل، الآية:19

شكر وتقدير

إنّ من باب الاعتراف بالفضل أن أحمدَ الله أوّلا وأشكره على ما منحني من نِعَمه العظيمة، ثمّ أتقدّم بشكري الخالص إلى الأستاذ الدّكتور "محمد مرتاض" المشرف على هذا البحث الذي تعهّدني بالتّوجيه المستمر فلم يبخل عليّ بعلمه ونصائحه الثّمينة فجزاه الله كلّ خير، والشّكر موصول إلى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين شرّفوني بتصويب هذه الرّسالة.

الإهداء

إلى والديّ الكريمين "حفظهما الله"

إلى كلّ أفراد العائلة

نجاة

مقدّمة

لقد سجّلت حواضر المغرب الأوسط المنتشرة عبر أرجائه حضوراً متميّزاً، حيث جمعتها بشتّى مدن المغرب الإسلامي علاقات سياسيّة، واجتماعيّة، وروابط ثقافيّة وفكريّة ضاربة في القدم، ولعلّ التّفاعل الحاصل بين حاضرتي بجاية وتلمسان بسائر حواضر المغرب والأندلس كان الأبرز؛ وهو ما تجسّده تلك الإسهامات القيّمة من لدن العلماء في سبيل انتعاش الحركة الثّقافيّة والحضاريّة بين هذه الأقطار، ومن هنا انبثق موضوع هذا البحث الموسوم:" بجاية وتلمسان وأثرهما الثّقافي والحضاري على المغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى القرن السّابع الهجري " ففي هذه الفترة من الدّراسة كانت الحاضرتان قد شهِدَتَا تواليَ عهود الحُكْمِ عليهما، فبلغتا من الرّقي والازدهار نصيباً معتبراً، وسنسلّط الضّوء في هذا البحث على الحياة الثّقافيّة بحواضر المغرب الأوسط ولاسيما بجاية وتلمسان، فنكشف عن الدّور البارز للحكّام في سعيهم للرّفع من مستوى الحركة العلميّة والثّقافيّة وإكرام أهلها، فضلاً عن توفير مختلف وسائط المعرفة وتنويع نُظُمِها وأساليبها بشكل يكفُل إغناء رصيد الإنتاج العلمي والأدبي للعلماء وبعثه في سائر مدن المغرب الإسلامي الذي عمِل على تكريس تلاقح ثقافيّ وحضاريّ مبدع وخلاّق.

وتمّ اختيارنا لهذا الموضوع مُراعاةً لاعتبارات عديدة منها؛ محاولة إبراز الدّور الفعّال لكلٍّ من بجاية وتلمسان بين مثيلاتها من الحواضر، ومدى إسهام علمائهما في رفد الجانب الثّقافيّ والحضاريّ للمغرب الإسلامي، إضافة إلى اهتمام أغلب الدّارسين بالأمور التّاريخيّة، وإغفال أهمّ الجوانب الثّقافيّة؛ حيث عَمد كثير منهم إلى الاقتصار على ذكرها دون سَبْرِ أغوارها في فترة تُعدّ من أبهى عصور الرّقيّ العلميّ والفكريّ.

وبناءً على ما سبق يتبادر إلى أذهاننا التّساؤل عن مدى إسهام حاضرتي بجاية وتلمسان في ازدهار الحياة الثّقافيّة بالمغرب الإسلامي، وتندرج تحت هذه الإشكاليّة تساؤلات فرعيّة أهمّها:

- ما هي أبرز ملامح الحياة الثّقافيّة بحواضر المغرب الأوسط؟
- فيم تمثّلت مظاهر الحركة الثّقافيّة بكلٍّ من بجاية وتلمسان؟

- وكيف تمكّن علماء الحاضرتين من تجسيد التّفاعل الثّقافي بين حواضر المغرب الإسلامي؟

وبطبيعة الحال، فإنّ هذا البحث قد سبقته مصادر أخرى أفاد منها في إثراء أفكاره أهمّها: عنوان الدّراية فيمن عُرِف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، لأبي العبّاس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني الذي أمدّنا بطبق دسم من نخبة العلماء في مختلف التّخصّصات والعلوم، خاصّة وأنّه عايش الفترة الذّهبيّة لبجاية إبّان القرن السّابع الهجري، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لمحمد ابن مريم التّلمساني وهو مصدر أساس للتعرّف على الحياة الثّقافيّة والعلميّة وما يتّصل بها من عمران، كما تناواته بعض الدّراسات الحديثة منها النّبوغ المغربي في الأدب العربي، لعبد الله كنّون، والحواضر والأمصار الإسلاميّة الجزائريّة، لمختار حساني، والرّوابط الثّقافيّة بين الجزائر والخارج، لمحمد الطمّار، بالإضافة لِما يُصدره مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة وأعلامها في المغرب العربي بجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان من بحوث ودراسات، وبما تحتويه مكتبته الزّاخرة بأنواع المصنّفات والدّواوين التي دعّمت الأدب المغربي وأشاعت مناقبه.

ولم يكن تناولنا لهذا الموضوع بالأمر الهيّن، فلقد واجهتنا صعوبات ومعوّقات جمّة منها قلّة المادّة العلميّة البارزة حول الموضوع، وانصراف جلِّ الباحثين عن التطرّق للدّور الثّقافي لمراكز العلم بالمغرب الأوسط وامتداد آثاره إلى حوض البحر المتوسّط.

وقد قسّمنا هذا البحث إلى مقدّمة، ومدخل، وثلاثة فصول، ثمّ خاتمة.

ففي المدخل تناولنا حيثيات الحياة الثّقافيّة بالمغرب الأوسط من خلال البحث عن مفهوم مصطلح الثّقافة وتداخله مع مصطلح الحضارة، حيث وظّف الباحثون هذا المفهوم للدّلالة على معانٍ عدّة، منصرفين إلى ذكر أبرز أصناف الثّقافة من العلوم المتنوّعة، ثمّ عن تعداد أهمّ حواضر المغرب الأوسط المزدهرة آنذاك كتيهرت، وقسنطينة، ووهران، وعنّابة، والمسيلة، وبجاية وتلمسان، مركّزين على الجانبين العلمي والثّقافي أكثر من غيره من الجوانب.

ووقفنا في الفصل الأوّل عند مظاهر الحركة الثّقافيّة ببجاية عبر ثلاثة عناصر، أوّلها تأطير حكّام بجاية للحياة العلميّة، مبيّنين موقف أولي الأمر من العلم وأهله وسعيهم الحثيث لتشجيع العلماء على المُضيِّ قُدُماً نحو الازدهار الفكري والعلمي، أمّا الثّاني فتعرّضنا فيه لذكر المعاهد التّعليميّة التي شيّدها أبناء بجاية ليكفُلوا بواسطتها تعميم العلوم والمعارف لكلّ الأفراد، وازدهار حركة التّعليم بالحاضرة، وقد أوردنا في العنصر الثّالث تعدّد العلوم ببجاية وأشهر علمائها، محاولين نقل ذلك المشهد الواضح لنهضة المدينة فكرياً وعلمياً؛ ما أفضى لبروز ثلّة من علماء الحاضرة الأصليّين وكذا الوافدين عليها من كلّ مكان، وتضلّعهم في سائر أصناف العلوم من نقليّة ولسانيّة واجتماعيّة وعقليّة.

وتطرّقنا في الفصل الثّاني لمظاهر الحركة الثّقافيّة بتلمسان فقسّمناه بدوره إلى ثلاثة عناصر، تناولنا في الأوّل سُبُل عناية الحكّام بالعلم والعلماء، حيث غدت المدينة قلعة منيعة لعديد الحكّام والملوك الذين أسهموا في تحويلها إلى منبع علميّ دفّاق ينهل منه الكثير من العلماء وطلاّب العلم، أمّا الثّاني فوقفنا فيه على أبرز المؤسّسات التّعليميّة المتمثّلة أيضا في المساجد، والكتاتيب، والرُّبُط، والزّوايا، والمدارس، والمكتبات التي عكف فيها الشّيوخ المدرّسون على تلقين سائر العلوم للطّلبة، وحركة التّعليم بتلمسان السّائدة آنذاك بتنوّع نُظُمها وأشكالها، مثلما حدّدها المدرّسون وطبعوها بخلاصة تجاربهم وخبراتهم، في حين اخترنا العنصر الثّالث لذكر أنواع العلوم وأشهر روّادها بالحاضرة مركّزين على إظهار مدى ازدهار سوق العلم والمعرفة بالحاضرة على يد كمٍّ هائل من العلماء الذين دأبوا على التّأليف في شتّى أنواع العلوم فتركوا مصنّفات رائقة.

أمّا الفصل الثّالث فقد خصّصناه لدَور الحاضرتين في الازدهار الثّقافي بالمغرب الإسلامي، فاقتضى ذلك منّا تقسيمه إلى ثلاثة أقسام أيضا، فكان أوّلها خاصاً ببجاية وتلمسان بين التّأثّر والتّأثير، وفيه تطرّقنا لذلك التّبادل العلمي والتّفاعل الثّقافي متمثّلاً في كثير من النّقط التي أفضت لتوطيد أواصل التّواصل بين الحاضرتين، وفي القسم الثّاني وقفنا على إسهام الحاضرتين بعدوة المغرب والأندلس، فخصّصناه للحديث عن درجة تأثير المدينتين بعلمائهما في خلق تلك الحركة الفكريّة

والعلميّة بسائر مدن المغرب والأندلس، أمّا القسم الثّالث فاحتوى على كمٍّ هائل من الإنتاج الأدبي لعلماء المدينتين إبّان فترة الدّراسة فعرضنا بعض النّماذج النصيّة نثراً وشعراً لأدباء جادت أقلامهم في شتّى الأغراض.

ثمّ ذيّلنا البحث بخاتمة كانت عبارة عن خلاصة لأهمّ النّتائج المتوصّل إليها.

وكان اعتمادنا في هذا البحث على المنهج التّاريخي بالتّوازي مع المنهج الوصفي؛ لتتبّع الأطوار التّاريخيّة للمدينتين ووصف حيثيات الحياة الثّقافيّة بهما، بمساعدة آليات التّحليل والاستنتاج في محاولة لاستخلاص ذلك الدّور البارز للحاضرتين على سائر حواضر المغرب الإسلامي.

وأخيراً فإنّ هذا البحث ما هو إلاّ جهد متواضع، يسعى إلى إضافة أشياء يسيرة لجملة الدّراسات الأكاديميّة التي دأبت على أن تُثري الأدب المغربي القديم الذي يبقى أدباً خصباً بحاجة إلى بذل المزيد.

وفي الختام أتوجّه بتقديم كلّ الشّكر والتّقدير إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدّكتور محمد مرتاض الذي تفضّل بقبول الإشراف على هذا البحث، فلم يبخل عليّ بالتّصحيح والتّوجيه، وقد أفدت من علمه ودعمه فجزاه الله عنّي خير الجزاء، كما أتقدّم بالشّكر الجزيل للسّادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تجشّموا عناء تصويب هذا البحث وإخراجه على أكمل وجه.

وعلى الله قصد السّبيل، ومنه سبحانه وتعالى نستلهم التّوفيق والسّداد.

تلمسان في: 05 صفر 1439 هـ

25 أكتوبر 2017 م

نجاة بلعباس

المدخل: إطلالة على الحياة الثّقافية

أوّلا: مفهوم الثّقافة وأبرز أصنافها

ثانيا: أهمّ الحواضر والمراكز الثّقافية بالمغرب الأوسط

أوّلا :مفهوم الثّقافة وأبرز أصنافها

للثّقافة مفاهيم عديدة جُمِعت من لَدُنِ مُفكّرين عرب وأجانب، وقطعت تعاريفها أشواطا لِتَصل إلى مرحلة التّطور، لذلك يأخذ بعض الباحثين بالمفاهيم الغربيّة للثّقافة! ويُحاول بعضهم الآخر تحويرها لتستَوعِب المفهوم الإسلامي.

أ- مفهوم الثّقافة:

إذا حاولنا إيجاد مفهوم محدّد ودقيق للثّقافة، فإنّنا سنقف أمام مشكلة عويصة، حيث لا يمكن أن نجد تعريفاً جامعاً مانعاً لها يستوعب مضمونها الضّخم والمتشعّب؛ لذلك لابدّ أن نُلِمَّ بأصل الكلمة في اللّغة، واستعمالاتها في النّطاق الفكري العام.

- **الثّقافة في اللّغة:** استعمل العرب كلمة الثّقافة بفعلها الثّلاثي العربي "ثقف" للدّلالة على معانٍ متعدّدة أغلبُها: سرعة الفهم، والحذق، والفطنة، وتقويم الاعوجاج، وهي مدوّنة في أمّهات المعاجم العربيّة؛ ونورد في هذا الصّدد آراء هؤلاء بإيجاز:

- يقول الزّمخشري: « ثَقَّفَ القناةَ وعضَّ بها الثّقَافُ، وطلبناه فثَقِفْنَاهُ في مكان كذا، أي أدركناه، وثَقفتُ العلمَ أو الصّناعة في أوْحَى مُدَّةٍ إذا أسرعتَ أخذه... ومن المجاز: أدّبه وثقّفه، ولولا تَثْقِيفُكَ وتَوْقِيفُكَ لَمَا كنت شيئا، وهل تهذّبتُ وتثقّفتُ إلاَّ على يدِكَ»[1] فهذا المفهوم يُعَدُّ من أقوى المعاني الّتي تدلّ عليها الثّقافة، فهي في جوهرها تُهذّب النّفس وتُصلح الفكر.

كما تُستعمل هذه الكلمة أيضا «في الإدراك، والأخذ، والظّفر، وقد جاء في ذلك قوله تعالى:

M ½ ¿ À Á Â Ã L [2]وكذلك قوله سبحانه: M !

---

[1] - أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1998م، مادة "ثقف"، ج1، ص110.

[2] - سورة الأحزاب، الآية 61.

" # L[1] وبذلك فإنّ الكلمة قد تأتي بمعنى الأخذ والظّفر والإدراك كما هو مبيّن في الآيات »[2] وكلّها معانٍ تُفيد الحصول على الشّيء وأخذه على وجه الغلبة.

- ويقول ابن منظور:« ثَقِفَ الشّيء ثَقْفًا وثِقَافًا وثُقُوفَةً: حَذَقَهُ، ورجلٌ ثَقْفٌ، وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذقٌ فهِمٌ، وثَقُفَ الرّجل ثَقافة أي صار حاذقاً خفيفاً... وقال ابن السُّكيتِ: رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ؛ إذا كان ضابطاً لِما يحويه قائماً به»[3] فالثّقافة هنا تُشِير إلى إتقان العمل وتنمية الملكات الذّهنية للفرد، ممّا يجعله حاذقاً في النّظر إلى لُبّ الأشياء وباطنها، واعياً مُسَخِّرًا طاقاته فيما ينفعه.

- كما يقول الفيروزابادي:« ثَقُفَ كَكَرُمَ وفَرِحَ ثَقْفًا وثَقَفًا وثَقَافَةً، صار حاذقاً خفيفاً فطناً... وثَقِفَهُ كسَمعِه صادفه أو أخذه أو ظفِر به أو أدْركه...وأُثْقِفتُه أي قُيِّضَ لي، وثَقَّفَهُ تَثْقِيفاً سَوَّاهُ »[4] فالفطنة قوة يميّز بها الإنسان بين الأمور الحسنة والقبيحة، فلا يتسرّع ولا يتعجّل إلاّ بعد التّحليل والتّمييز، ممّا يجعله قادرا على حُسن الاختيار وتنمية طاقاته، لمعرفة الجديد في اكتساب المعارف والعلوم.

وفي ضوء ما أسلفنا من ذِكر مدلولات كلمة الثّقافة في أصلها اللّغوي، نجد بأنّ أوجه استعمالها كثيرة ومتنوّعة بتنوّع سياقات اللّغة، وموازينها وأحكامها! فنجد أنّ لها جانبا دلالِيًا وفيه تتعدّد معاني كلمة الثّقافة، وبحسب تعدّد أوجه استعمالها أيضاً.

---

[1] - سورة البقرة، الآية 191.

[2] - دراسات في الثّقافة الإسلاميّة، أمير عبد العزيز، دار الكتاب العربي للنّشر، بيروت، دط، 1979م، ص (15، 16).

[3] - لسان العرب، جمال الدّين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشادلي، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، مادة ثقف، مج01، ص492.

[4] - القاموس المحيط، مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1979م، مادة ثقف، ج03، ص117.

- الثّقافة في الاصطلاح: إذا رجعنا إلى المصادر المعرفيّة الّتي تناولت الحديث عن الثّقافة، فإنّنا سنجدها كثيرة! وذلك لأنّ المفكّرين اختلفوا حول إيجاد مفهوم الثّقافة وما تدلّ عليه، وسنُورِد أهمّ هذه المفاهيم لديهم:

ذكَر ابن خلدون كلمة الثّقافة بصيغة الثِّقاف عندما تحدّث عن الشّروط الواجب توفّرها في كاتب ديوان الرّسائل، لَمَّا اعتبر عبد الحميد الكاتب من أحسن من تحدّث في هذا الشّأن في رسالته إلى الكتّاب الّتي نشرها ابن خلدون في مقدّمته وقد جاء فيها: «فتنافسوا يا معشر الكُتَّاب في صُنوف الآداب، وتفقَّهُوا في الدِّين، وابدؤوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ثمّ العربيّة، فإنّها ثِقَافُ ألسِنَتِكُم»[1] أي إنّه تعامل مع كلمة الثّقافة باعتبارها مفردة لغويّة عرفها العرب منذ القدم، فجاءت تدلّ على معنى الاستواء والتّهذيب، وتتمثّل في الإقبال على صنوف العلوم ولاسيما الدّينيّة واللّغويّة فهي المقوّم الأساس للألسنة، والمقياس المضبوط للكاتب المحترف.

ويُعَرِّفُ العالِمِ الأنثروبولوجي (إدوارد تايلور) الثّقافة بقوله: «هي ذلك الكلّ المركّب الّذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنّ والأخلاق والقانون والعادات، أو أيّ قدرات أخرى أو عادات، يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع»[2] فهذا التّعريف هو الّذي اشتهر به تايلور، كما رجّحه العديد من العلماء على غيره من التّعاريف الأخرى لاشتماله على الكثير من العناصر المهمّة في الحياة؛ من الآداب والعلوم والدّين والأخلاق الّتي تكمّل بعضها بعضاً لتُشَكِّلَ كُلاً قابلاً للتّفاعل في المجتمع.

وعُرِّفت الثّقافة أيضاً بأنّها: «مفاهيم ومعطيات جاء بها الاعتقاد الدّيني الّذي يسود في مجتمع من المجتمعات سواء كان هذا الاعتقاد - الّذي يُؤمن به كلّ أو أغلب أفراد المجتمع - دينًا سماويًّا

[1]- قراءة جديدة للنّثر العربي القديم، محمد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2012م، ص347 /نقلاً عن المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، دار الفكر للطّباعة والنّشر، بيروت، دط، 2001م، ص308.

[2]- هذي هي الثّقافة، أحمد بن نعمان، شركة دار الأمّة للنّشر، الجزائر، ط1، 1995م، ص20.

أو ديناً غير سماوي، أو اعتقاداً مادياً لا ديني وهذه المفاهيم والمعطيات الّتي جاء بها الاعتقاد الدّيني، هي الّتي تُشكّل الجانب غير المرئي من الثّقافة مثل النّواحي الرّوحية والانفعالية، كما أنّ الجانب المرئي من الثّقافة مثل الإنتاج الأدبي والفنّي والفكري يصطبغ بها ولا يخرج عنها، في حين أنّ بعض الجوانب المشتركة بين الثّقافات تصطبغ بها»[1] فهذا التّعريف للثّقافة يمكن أن نطبّقه ونعمّمه على الثّقافة الإسلامية وغيرها من الثّقافات الأخرى، دون أن ننسى أنّ فكر الإنسان بِتَلَقِّيهِ مختلَفَ الفنون والمعارف والعلوم من تشريع، ولغة، وتاريخ، وفلسفة، وشتّى أنواع المعارف الإنسانيّة والعقليّة، يضمن الرّقي والتّقدم والازدهار، وهذا هو جوهر الثّقافة، ولعلَّ أنّ ما يعترض الباحث أثناء تطرّقه لموضوع الثّقافة ذلك التّداخل بينها وبين مفهوم الحضارة، فطبيعة العلاقة بينهما تأخذ أشكالا متعدّدة، لكلٍّ منها باحثون متخصّصون يُدَلِّلُونَ على صحّتها وتميّزها من سائر الآراء منها:

إنّه لا فرق بين الحضارة والثّقافة لأنّهما مصطلحان لمُسمّى واحد، وقد أخذ بهذا الرّأي بعض الباحثين الألمان؛ حينما جعلوا معنى الثّقافة إصلاح الشّيء وتهذيبه، وقالوا إنّما هي الحضارة أو هي ثمرة ذلك التّفاعل بين الإنسان والبيئة! ويبدو أنّ هذا الاستعمال أخذ به المفكّر مالك بن نبي[2] حينما ربط بين الثّقافة والحضارة في تعريفٍ مضبوط فقال:« فالثّقافة إذن تتعرّف بصورة علميّة على أنّها مجموعة من الصّفات الخلقيّة، والقيم الاجتماعيّة الّتي تؤثّر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة الّتي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الّذي وُلِد فيه، فهي على هذا المحيط الّذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيّته»[3] وكأنّ ثقافة الإنسان هي بمثابة المحيط الّذي يعكس حضارة معيّنة يتحرّك عبرها الفرد المتحضّر، لذلك فلفظ الثّقافة إذا دلّ على معنى الحضارة كان

---

[1]- ينظر الثّقافات والحضارات اختلاف النّشأة والمفهوم، محمد الجوهري حمد الجوهري، الدّار المصرية اللّبنانية، القاهرة، ط1، 2009م، ص98.

[2]- يرى مالك بن نبي أنّ وظيفة الثّقافة شبيهة بوظيفة الدّم في جسم الإنسان، فهي تغذّي نموّه كفرد وحضارته كمجتمع أوبتعبير آخر إنّها الوسط الذي تتكوّن فيه جميع خصائص المجتمع المتحضّر، للتّفصيل أكثر ينظر الصّراع الحضاري في العالم الإسلامي، عكاشة شايف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1984م، ص (34، 35).

[3]- مشكلة الثّقافة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط4، 1984م، ص 74.

لهذا المدلول وجهان« وجه ذاتي وهو العقل، ووجه موضوعي وهو مجموعة العادات والأوضاع الاجتماعيّة، والآثار الفكريّة، والأساليب الفنيّة والأدبيّة، والطّرق العلميّة والتّقنيّة، وأنماط التّفكير»[1] ومن هنا يمكن القول إنّ الحدود بين الذّاتي والموضوعيّ ليست حديديّة فاصلة، وإنّما يظلّ الاتّصال بينهما قائماً والحُكم نفسه ينطبق على المظاهر الماديّة والمعنويّة لأنّها جميعا تتضافر على إنشاء النّظم الاجتماعيّة، والحضاريّة، والثّقافيّة للأمّة.

أمّا الرّأي الآخر فيرى أنّ هناك فرقا شاسعاً بين الثّقافة والحضارة، فالثّقافة -لدى أنصار هذا الرّأي- تعني النّواحي الأخلاقيّة والروحيّة للمجتمع، في حين أنّ الحضارة تمتاز بمعايير ماديّة، تجسَّد على أرض الواقع كاكتظاظ المدن بالسّكان وازدهار الصّناعات، وكلّ ما يَمُتُّ بِصِلَةٍ للتّطور العلميّ والتّكنولوجيّ، ورُوّادُ هذا الرّأي من علماء ومفكّرين على اختلاف جنسياتهم من عرب وأجانب إنّما تأثّروا بالمدرسة الألمانيّة الّتي قامت على أساس التّفريق الدّقيق بين المجالين الحضاري والثّقافي، وأَسَّسَتْ علماً قائماً سَمَّتْهُ علم الاجتماع الثّقافي، وبهذا « يكون معنى الحضارة من حيث الأصل أوسع دلالة من الثّقافة، لأنّه إذا كانت الثّقافة هي نتاج المعرفة، وتنمية العقول، فمن الواضح أنّها لم تنشأ إلاَّ بعد الاستقرار الّذي تمثَّل في سكنَى المدن والأمصار»[2] والحضارة بِتَبَنِّيهَا للعقل فإنّها تنقل نماذجها الماديّة المتحضّرة عبر المجتمعات، لِتبقى الثّقافة قائمة على أساس العاطفة متحرّرة عن العقل بِنِسَبٍ مُتفاوتة؛ وبعد استعراضنا لهذه الآراء لا بدّ أن نعلم بأنّ الثّقافة ليست هي قراءة الكتب! أو الالتحاق بالمدارس والمعاهد أو هي الفنّ أو الشّعر فحسب، وإنّما هي أكبر من هذا بكثير، إنّها سلوك وأخلاق ومعرفة بأبجديّات الحياة.

---

[1]- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، آمنة تشيكو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989م، ص21.

[2]- لمحات في الثّقافة الإسلامية ، الخطيب عمر عودة، مؤسّسة الرّسالة للنّشر، بيروت، ط1، 1973م، ص43.

ب- أبرز أصناف الثّقافة:

بما أنّ الثّقافة هي عبارة عن كلّ ما يُنتجه الفكر الإنسانيّ من آداب وعلوم وفنون، فإنّ ثقافتنا الإسلاميّة تشمل ثلاثة أصناف من العلوم وهي: العلوم النّقليّة، والعلوم اللّسانيّة والاجتماعية، والعلوم العقليّة.

-العلوم النّقلية: وتُسَمَّى كذلك العلوم الشّرعيّة والدّينيّة، وتشمل علم التّفسير، وعلم القراءات، ورسم المصحف، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلوم الفقه، وعلم الكلام، وعلم التّصوّف، وقد حرص المسلمون على معرفة هذه العلوم ودراستها« لمعرفة الأحكام الشّرعية ودلائلها ومقاصدها، وفوائدها ومَراميها، وتَبيينها للنّاس حتّى يُصحِّحُوا معتقداتهم، ويُتقِنوا عبادتهم، ويُخلصُوا لربِّهم، ويُحسِنوا المعاملة مع بعضهم دون إفراط ولا تفريط»[1] فعكَف النّاس على حفظ القرآن الكريم ومُدراسته؛ لأنّه بمثابة دستور المسلمين في دولتهم، والصّالح فيها لكل زمان ومكان، وتأتي بعده السُّنة النّبوية الشّريفة الّتي جاءت للتّوضيح والشّرح والتّبيين لكثير من القضايا الّتي عجز المسلمون عن فهمها وإدراكها يومئذٍ، وهذان العِلمان هما المرجعان الأساسان للعلوم الدّينية منذ القِدم إلى يومنا هذا.

-العلوم اللّسانيّة والاجتماعية: وتسمّى أيضا العلوم اللّغويّة أو الأدبيّة، وهي تشمل علوم النّحو والصّرف، والعروض، والبلاغة، واللّغة، والأدب، والتّاريخ والسّير، وواجب على كلّ فرد مسلم أن يتعلّمها، حتّى يتمكّن من فهم ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشّريف باللّسان العربيّ المبِين، ويحتلّ علم النّحو الصّدارة من بين هذه العلوم «إذ به يتبيّن أصول المقاصد بالدّلالة، فيُعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجُهِلَ أصل الإفادة»[2] فإن أراد فردٌ ما قراءة آيَةٍ من كتاب الله

---

[1]- باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1999م، ص392.

[2]- الحضارة الإسلامية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد عادل عبد العزيز، دار غريب للنّشر، القاهرة، دط، 2000م، ص109.

أو حديث من أحاديث رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) وتدبّرها، وهو على جهل تامٍّ أو ناقصٍ في علم النّحو، فذلك سيُؤدي حتماً إلى الإخلال في فهم فحواها؛ والسّبب الّذي وُضِعتْ من أجله، كما أنّ هذا لا يعني أن نُنْقِصَ من أهميّة سائر العلوم، فلكلٍّ منها وظيفتُهُ وفائدتهُ، من ذلك يقول ابن عبّاس (رضي الله عنهما):« إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فَإنّ الشّعر ديوان العرب»[1] لهذا لَقِيَتْ هذه العلوم إقبالا كبيرا، فعَمَد النّاس إليها يتدارسونها ممَّا أسهم في نشر الثّقافة الإسلاميّة في شتّى الأمصار.

-العلوم العقليّة: وتُدعى أيضا العلوم الكونيّة أو الحكميّة المنسوبة إلى الحكمة، وهي تشمل علم المنطق، وعلم الطّبيعيات، وعلم الهيئة، وما يتبعه من طبّ، وكيمياء، وهندسة، وموسيقا، وعلم الحساب والجبر، والإلهيات، وما يلحق به من فلسفة وحكمة، يقول ابن خلدون في هذا الشّأن: « إنّ العلوم العقليّة هي طبيعيّة للإنسان من حيث إنّه ذو فكر، فهي غير مختصّة بأهل ملّة من الملَلِ، بل هي موجودة في النّوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة»[2] فمن طبيعة بني البشر الفضول وحُبُّ الاستكشاف، فنجده يسعى لتعلّم الجديد والمزيد، ليُدرك الخطأ من الصّواب والنّافع من الضّار، فيزداد رُقِيًّا وتَحَضُّرًا.

ثانيا : أهمّ الحواضر والمراكز الثّقافية بالمغرب الأوسط:

شهد المغرب الأوسط عبر مراحله المختلفة، قيام عدد من المراكز العلميّة والثّقافيّة؛ ازدهرت إبّانها الحضارة العربيّة الإسلاميّة ازدهاراً واسعاً، وشهدت تطوّرات كبيرة في شتّى المجالات بالموازاة مع ما شهدته عواصم المشرق والمغرب الأخرى، لذلك سنقِفُ على عيّنة من هذه الحواضر وهي تيهرت، وهران، قسنطينة، عنّابة، المسيلة، بجاية وتلمسان، كما لا بدّ أن نوضّح بأنّ المراكز

[1]- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل للنّشر، بيروت، ط5، 1981م، ج1، ص30.

[2]- ينظر المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص629.

الثّقافية في المغرب الأوسط لا تنحصر فيما سنتناوله؛ وإنّما هناك مراكز ثقافيّة أخرى هي في مجملها مراكز حضاريّة رائدة ومزدهرة ذاع صيتها في كل حدب وصوب.

- **تيهرت:**

أسّس الرّستميون الدّولة الرّستمية الإباضيّة، فكانت أوّل دولة وطنيّة إسلاميّة أُقيمت بالجزائر بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ، مرتكزة على جميع المقوّمات الحضاريّة الّتي لا بدّ أن تتوفّر في كلّ دولة أو عاصمة «فدامت الدّولة الرّستمية 136 عاماً؛ من سنة 160هـ إلى سنة 296هـ، وتولّى أمرها ستّة من الأئمّة، أوّلهم عبد الرّحمن بن رستم وآخرهم اليقظان، ومن أشهرهم أبو اليقظان وأبوه أفلح اللّذان بلغت الدّولة في أيامهما أوج عِزِّهَا ومُنتهى سُؤددها »[1] فهذه الدّولة البربريّة الإسلاميّة بسطت نفوذها على كلّ ربوع هذا الوطن - ما عدا جزءً يَسِيراً منه - وكان مذهبها العام هو المذهب الإباضيّ، إلاَّ فئةً قليلة من مُعتنِقي المذهب الصّفري، كما أدّت هذه المدينة دورا هامّا في العلوم والفنون والآداب؛ حيث أصبحت محطّ الرّحال من جميع الآفاق[2] وهناك من يدعوها أيضا بالعراق الصّغير، لأنّ عُلماءها اهتمّوا بالحركة الفكريّة الإسلاميّة ولاسيما العلوم الدّينيّة، وأخذت تُشِعُّ بنُور علمها على شمال إفريقيا وغربها وشرقها، وفي جنوب شبه الجزيرة العربيّة.

لقد اهتم الرّستميّون بالجانب العلميّ والفكريّ اهتماماً كبيراً إلى درجة أنّهم وضعوا شروطاً لإمام دولتهم المنتخب بأن يكون عالماً ورِعاً، له دراية واسعة بالدّين الإسلاميّ وبنظم الحكم والسّياسة، فشيّدوا المساجد ودُور العلم والمؤسّسات التّعليميّة، وأقاموا حلقات العلم في التّفسير، والحديث والفقه واللّغة «حتّى إنّ أئمة الدّولة الرّستمية كانوا يُسهمون في التّعليم بأنفسهم ولا يأنفون من ذلك أو يتكبّرون، كالإمام عبد الوهاب الّذي قضى سبع سنوات يعلّم النّاس أمور الصّلاة

[1]- كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر، دط، 2009م، ص43.

[2]- ذكر اليعقوبي أنّ مدينة تيهرت لجلالة قدرها وعظم أمرها كانت تُسمّى عراق المغرب، وأغلب أقوامها من الفُرس من بني محمد بن أفلح بن عبد الوهّاب بن عبد الرّحمن بن رستم الفارسي وهم رؤساء إباضيّة المغرب، للتّفصيل أكثر ينظر الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر القديمة والوسيطة، يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1999م، ج1، ص101.

في جبل نفوسة، أو الإمام أفلح الذي دارت عليه أربع حلق للعلم قبل أن يبلُغ الحُلُم»[1] فالإمام عبد الوهاب بن عبد الرّحمن قد سار على خُطَى أبيه من حيث العلم والورع والإصلاح، كما يُنسب إليه كتاب مسائل نفوسة الجبل وهو كتاب مشهور عند معشر الإباضية وكثير التّداول بينهم، أمّا الإمام أفلح بن عبد الوهاب فكان يرأَس حلقات من علم الفقه والكلام واللّغة، فضلا عن إنتاجه مؤلّفات في بعض حلول المسائل الفقهيّة وروايات في الحديث وقصائد شعريّة.

وبسيادة هذا الجوّ العلميّ على الأسرة الرّستمية الحاكمة، حدث تجاوب بينها وبين أفراد المجتمع، فظهر علماء أجلاّء في مختلف العلوم من نقليّة وعقليّة، اتّخذ منهم أئمّة الدّولة مستشارين لهم، وأسندوا إليهم عدّة مناصب كالقضاء والوزارة ورئاسة الأقاليم، حتّى إنّهم عقدوا معهم المناظرات والمحاورات العلميّة والفكريّة، والأهمّ من ذلك حرصهم الشّديد على جلب الكتب وجمعها ونسخها من كلّ مكان، فأنشؤوا لأجل هذا المكتبات العلميّة الزّاخرة بمختلف أنواع الفنون والعلوم أبرزها تلك المكتبة العربيّة والإسلاميّة الّتي تعدّ من أعظم المكتبات في ذلك العهد تُدعى مكتبة المعصومة وهي تحتوي على الآلاف من الكتب والمجلّدات «فالإمام عبد الوهاب بن أفلح أرسل إلى إباضية البصرة ألف دينار ليشتروا له بها كتباً، فلمّا بلَغَتْهُمْ اشتروا ورقاً استنسخوه كتباً، وتلك الكتب كانت حمولتها أربعين جَملا كلّها أُرْسِلَت إليه، واتّصل بها، وأتحف بها المعصومة الّتي كانت تحوي الآلاف من المجلّدات»[2] وقد كانت هذه الكتب على درجة من القيمة في علوم الشّريعة، والطبّ، والحساب، والتّاريخ، والفلك، واللّغة وغيرها من العلوم، فلم تكن محصورة في كتب مذهب معيّن وإنّما جَمعت مؤلّفات المذاهب الإسلاميّة الأخرى، وهذا ما يدلّ على مكانة العلم في نفوس هؤلاء العلماء،

---

[1] - الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، مختار حساني، دار الهدى، الجزائر، دط، 2011م، ج3، ص251.

[2]- تاريخ الثّقافة الجزائرية منذ العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صالح بن نبيلي فركوس، دار أيدكوم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2013م، ج1، ص67.

هذا فضلا عن إنشاء المكتبات الخاصّة في منازلهم، وهو ما كان له الأثر الفعّال في ازدهار الجانب العلميّ.

أجل، لقد كانت تيهرت أحد معاقل الفكر الإسلاميّ في المغرب الإسلاميّ، فقصدها الرّحالة والعلماء لطلب العلم، كما شُدَّت الرِّحال منها إلى غيرها من المراكز، فتكوّنت بذلك صلة قويّة بينها وبين القيروان، وفاس، وسجلماسة والأندلس، وأصبحت منارة مُشعّة للإسلام والفكر والحضارة، وبالرّغم من أنّها لم تُعَمِّر إلاّ قرناً ونصف القرن فإنّ تأثيرها بقي خالداً في المغرب الأوسط وخارجه، وهو ما يفتخر به شعب الجزائر ويقتدي به في مجال البناء والتّشييد.

- بجاية:

تُعدُّ الدّولة الحمّادية ثاني دولة مسلمة تأسّست في المغرب الأوسط بعد الدّولة الرّستمية، مؤسّسها حمّاد بن بلكين بن زيري الصّنهاجي الذي اختطّ مدينة القلعة، وأنشأ مُلكاً عظيماً ؛ وبعدما اتّسع سلطانها وتوطّدت ركائزها، اختطّ مُلوكها عاصمة جديدة لدولتهم وهي مدينة بجاية يرأسها السّلطان الحمّادي النّاصر بن علنّاس[1] الذي نقل العاصمة من قلعة بني حمّاد بالمسيلة إلى بلاد الزّواوة القبائل، وحوّلها إلى منارة علميّة يقصدها العلماء من كل حدب وصوب، فسُجِّل عصره ضمن أجمل صفحات تاريخ التّمدن الإسلاميّ، وغدت بجاية من أكثر الأقطار الإسلاميّة رفاهية وعلماً ورخاءً وأمناً.

والحديث عن بجاية ودورها الثّقافي حديث شيّق وطويل؛ نظرا لإسهاماتها القيّمة بالمغرب الإسلاميّ وحتّى الأندلس والمشرق، وكلّ هذا إنّما مردُّه إلى اهتمام أمرائها بالعلماء واحتفائهم بهم فقد «جلبوا

[1]- النّاصر بن علنّاس بن حمّاد بن بلكين بن زيري الصّنهاجي، خامس ملوك الدّولة الحمّادية بالمغرب الأوسط وأشهرهم وأعظمهم شأناً، ولّي الحكم سنة 454هـ، وهو الّذي بنى مدينة بجاية وسمّاها "النّاصرية" باسمه، دام حكمه نحو سبعة وثلاثين سنة، وتوفي سنة 481هـ، للتّفصيل ينظر معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسّسة نويهض الثّقافية للنّشر، بيروت، ط2، 1980م، ص328.

الكثير من عباقرة تونس والأندلس، والشّام والحجاز، والعراق وصقليّة، والعجم، فتقاطروا على القلعة وبجاية والعواصم العلميّة الأخرى، واستفاد الشّعب من علومهم وثقافتهم اللاّمعة، فبلغ من إقبال النّاس على العلم أنّه كان يجتمع مع الأستاذ الواحد، ما يزيد عن مائة طالب...فنبغ في عهد بني حمّاد علماء مبرزون وظهر مؤلّفون متعمّقون في مختلف العلوم»[1] فهذا الإسهام العلمي لم يكن حكراً فقط على الحمّاديين بل توارثه بعدهم كلٌّ من الموحّدين والحفصيّين فكثُرت المعاهد والمدارس والمساجد وحفَلت بالمجالس العلميّة والدّروس، فزار بجاية العلماء والأطبّاء والشّعراء الحكماء واستفادوا منها، وبالرّغم من أنّ عُمْرَ الدّولة الحمّادية لم يطُلْ كثيرا وخاصّة بجاية العاصمة الثّانية للحمّاديين بعد عاصمتهم الأولى القلعة، فإنّها شاركت بقدر متواضع في عملية التّطور الحضاري، بما احتوته من رجالات الفكر والأدب والثّقافة ، وسجّلت اسمها بأحرف من ذهب في سجلّ التّاريخ إلى يومنا هذا.

- تلمسان:

تحتلّ تلمسان مكانة مرموقة بين مدن المغرب الأوسط، منذ عهود موغلة في القدم، فأصبحت تُضاهي في سمعتها وذُيوع صِيتها كُلاًّ من القاهرة وبغداد وقرطبة، واجتمع فيها رجال الفكر والسّياسة والثّقافة، أضف إلى ذلك ما حباها الله به من جمال الطّبيعة، والموقع الجغرافي الممتاز، وصفاء الهواء وعذوبة الماء، والدّليل على ذلك «مدلول اسمها الأمازيغي الّذي يعني في لغة زناتة قوم الإقليم، وهو مركّب من "تلم" ومعناه تجمع، ومن "سان" ومعناه إثنان؛ أي الصّحراء والتّل، ويُقال أيضا: "تلمشان" وهو مركب من "تلم" ومعناه لها، و"شان" أي لها شأن»[2] وهذا الاسم يدلّ على تلك الأرض المعشاب ذات المياه الوافرة والأشجار الباسقة، فهي تجمع بين طبيعة البرّ والبحر لوقوعها في مكان ملائم لذلك.

---

[1]- ينظر حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، سليمان داود بن يوسف، مطبعة أبو داود، الجزائر، دط، 1993م، ص75.

[2]- ينظر نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرّي التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر للنّشر، بيروت، دط، 1988م، مج7، ص (133، 134).

وقد شهدت تلمسان كغيرها من مراكز الثّقافة في الجزائر، تطوّراً ملحوظاً في الحياة العلميّة، فجعلها المرابطون مقرّا لولايتهم وشيّدوا بها القصور المساجد وغيرها من المنشآت الفنّية، كما أسهموا في دعم النّهضة العلميّة والأدبيّة، ومتّنُوا الصّلات بينها وبين العُدْوتين المغربيّة والأندلسيّة فبرز فيها بعض العلماء والفقهاء والأدباء الشّعراء، إلاّ أنّ معظمهم غلب عليهم طابع الاعتناء بالعلوم الدّينيّة، مثل: الوليّ الزّاهد أبي زكريا يحيى بن الصّقيل، وأبي جعفر أحمد بن علي بن غزلون الأموي وغيرهما، وواصل الموحّدين النّشاط الثّقافي الإسلاميّ، ولاسيما بعد تزايد هجرة العلماء إلى تلمسان وذلك بتشجيع من الخلفاء الموحّدين وولّاتهم « ولا يخفَى على أحد منّا تَفَوُّقُ الأندلسيّين على سواهم في العلوم بصفة عامّة، وفي الفنون والآداب بصفة خاصّة، فاستفاد أهل تلمسان من معارفهم العلميّة والأدبيّة، ومن خبرتهم الفنيّة والصّناعيّة»[1] بحيث وفد على المدينة كمّ هائل من العلماء والأدباء والطّلبة وقد لاقوا ترحيباً يليق بمقامهم ممّا أفضى إلى انتعاش النّشاط الفكريّ بتلمسان والمغرب عامّة.

ومن علماء هذه الفترة نجد سليمان بن عبد الرّحمن بن المعزّ الصّنهاجي المعروف بالتّلمساني أبو الرّبيع، ويوسف بن عبد المؤمن الكومي المعروف بأبي يعقوب، ثمّ جاء الزّيانيون وواصلوا دورهم في البناء الحضاريّ، حيث جعلوا تلمسان عاصمة للعلم والمعرفة، فتنافسوا في بناء المدارس، وأكرموا العلماء وأزجلوا لهم العطاء؛ ممّا أدّى إلى انتشار العلوم المختلفة فنبغ حينئذ علماء مبرزون من أمثال ابن خميس التّلمساني، وابنا الإمام، ومحمد بن أحمد بن يحيى الحبَّاك وغيرهم، فتلمسان مدينة عريقة ولا تزال تنبض بروح التّاريخ وتُشكّل متحفاً أثرياً مفتوحاً، وهي عاصمة المغرب الأوسط، وجوهرة الغرب الجزائري، أدّت العديد من الأدوار عبر التّاريخ ما جعلها واحدة من أهمّ الحواضر والمراكز الثّقافية، وقد كانت مربعاً لعلماء أفذاذ يُفتخر بهم وبإنجازاتهم الّتي تَنِمُّ عن ماض مجيد وحضارة عريقة.

---

[1]- باقة السّوسان في التّعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص401.

-المسيلة:

أسّس الفاطميّون بالمغرب الأوسط مدينة المحمّدية، وهي المسيلة الّتي تُعدّ من أهمّ المدن بفضل موقعها الاستراتيجي، حيث اختطّها أبو القاسم بن عبيد الله المهدي سنة 313هـ، ثمّ أولى على الزّاب الفاطمي أبا الحسن علي بن حمدون الذي اتّخذ من المسيلة مركزاً لإدارته، في حين كان الهدف الرّئيسي من تشييدها هو مراقبة الفاطميّين للقبائل المعادية لهم من المغراويّين، الذين تحالفوا مع الأمويّين بالأندلس وبعض الزناتيّين مثل بني برزال[1] الإباضين «فأصبحت المسيلة عاصمة إسلامية كبرى، ذات عمران متّسع ومدينة شامخة، وقد تولاها بعد أبي حسن أبناؤه، وأمَّ المسيلة العلماء والفضلاء والشعراء، إلى أن قضى عليها بلكين بن زيري بن منّاد سنة 362هـ»[2] فقد شهدت المدينة في عهد الدّولة الزّيرية اضطرابات عدّة خاصّة بعدما هاجر منها جزء كبير من السّكان نحو قلعة بني حمّاد، ثمّ آلت المسيلة لحكم الموحّدين ومن بعدهم الحفصيّين.

أما عن النّاحية الثّقافية والفكريّة فقد نُسِبَ لمدينة المسيلة عدد من كبار العلماء نذكر منهم أبا الوليد مروان بن أبي سنجمة المسيلي الإفريقي، والعالم الجليل أبا الحسن بن سلمون المسيلي الذي اشتهر بفيض علمه وورعه وزهده، وعبد الكريم النّهشلي وقد نبغ في نظم الشّعر بجميع أنواعه، ومنهم أيضاً أبو علي الحسن بن رشيق الشهير بالقيرواني الذي كان ميّالاً لعلوم الأدب والتّاريخ قبل أن يرتحل إلى القيروان، وقد لازم العلماء والأدباء هناك؛ وله أشعار ورسائل كثيرة كقراضة الذّهب وكتاب العمدة في معرفة صناعة الشّعر، يقول صاحب الوافي في شأنه:« وقد وقفتُ على هذه المصنّفات والرّسائل المذكورة جميعها، فوجدتها تدلّ على تبحّره في الآداب، واطلاعه على كلام النّاس، ونقله لموادّ هذا الفنّ، وتبحّره في النّقد، وله كتاب في شذوذ اللّغة، يذكر

---

[1]- بني برزال قبيلة بربرية تقطن ضواحي المسيلة، وكانت إباضية المذهب.

[2]- كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني، ص46.

فيه كلّ كلمة جاءت شاذّة في بابها»[1] وبهذا ذاع صيته وطارت شهرته في الأفاق وكثر مترجموه كابن خلّكان، وابن العماد، والسّيوطي وغيرهم، كما لا ننسى الشّيخ أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي وكان يسمّى أبا حامد الصّغير وهو فقيه وعالم متديّن، له العديد من المصنّفات منها كتاب التّذكرة في أصول علم الدّين، وكتاب النّبراس في الرّدّ على منكر القياس، وما تسميته بأبي حامد الصّغير إلاّ لأنّه سلك مسلك أبي حامد في كتاب الإحياء لَمَّا أَلَّف مُصَنَّفَهُ التّفكير فيما تشتمل عليه السّور والآيات من المبادئ والغايات[2] فهذا الكتاب جمع بين حُسن المعنى والمبنى، سار به مؤلّفه على النّهج القويم مبتعداً عن كلّ غلو أو تحريف، فهؤلاء العلماء والشّعراء أثّروا في الجانب الفكريّ لمدينة المسيلة، وكانت تأثيراتهم متباينة الحدّة ممّا انعكس إيجاباً على المحمّدية الّتي لم تفقد مكانتها كمركز ثقافيّ هامّ بالمغرب الأوسط، رغم ما تكبّدته من خسائر بسبب الثّورات المتتالية عليها.

- قسنطينة:

التحقت مدينة قسنطينة بحكم الدّولة الأغلبيّة، حيث ازدهرت اقتصاديّا وثقافيّا، إلى أن سيطر عليها الفاطميّون وكثرت الصّراعات المذهبيّة، ليتسلّم بلكين بن زيري الزّعامة على ولايات المغرب «فالملاحظ أنّ مدينة قسنطينة الّتي كانت تلعب أدواراً ثانوية في الفترة الّتي امتدت من الفتح العربيّ الإسلاميّ لبلاد المغرب، حتّى أواخر القرن الرّابع الهجريّ، قد أخدت أهمّيتها في العهد الزّيري والحمّادي تزيد، ونجمها يعلو شيئاً فشيئاً مع مرور الزّمن، فأعادوا لها هيبتها ومكانتها كمدينة

1- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، ج1، ص11.

2- تحدّث الغبريني في كتابه عن هذا المُصنَّف فرأى أنّ كلام صاحبه أحسن من كلام أبي حامد وأسلم وهو دليل على درايته بعلمي المنقول والمعقول، وعلمي الظّاهر والباطن فكلامه يُدرك بالعلم اليقين ولا يُفتقر فيه إلى تبيين، وما كثرة وجوده بين أيدي النّاس إلاّ رمز لاعتنائهم به وإيثارهم له، للتّفصيل ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله ، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت،ط2، 1979م، ص34.

إستراتيجيّة وتجاريّة وثقافيّة هامّة»[1] فظلّت قسنطينة بعدها تارة تحت الحكم الزّيريين وتارة أخرى تحت لواء الحمّاديين، إلى أن زحف عليها بنو هلال بغاراتهم بتشجيع الفاطميّين فسيطروا عليها، ولَمَّا اسْتَتَبَّ الأمر للموحّدين بالمغرب الأقصى، فقد وجّهوا أنظارهم إلى المغرب الأوسط وتمكّنوا من بسط نفوذهم على عدّة مدن كتلمسان وبجاية وقسنطينة لينتزعها الحفصيون فتتحوّل إلى مدينة تجارية عالميّة.

وقد شهدت المدينة نهضة علميّة عبر مختلف العصور، فأمراء بني الأغلب أثْرَوْا النّشاط الثّقافي وقرّبوا العلماء والشّعراء والأدباء وأجزلوا لهم العطاء «فانتعشت الثّقافة وتطوّر فكر أهل الحواضر بالمجادلات والمناظرات الكثيرة والمتنوّعة في المساجد والمدارس وقصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدّولة»[2] كما أصبحت المدينة أثناء العهدين الزّيري والحمّادي محطّ العلماء والأدباء والفقهاء وقبلة لطلاّب العلم والمعارف من مختلف بلدان المغرب والأندلس، فيتدرّج في التّعليم الصّغير والكبير، يحفظون القرآن والأشعار والخُطب والحساب، ويَعقِدُون حلقات العلم والمناظرات الكلاميّة والمجادلات الفقهيّة، لتعرف قسنطينة نهضة ثقافيّة أعظم في عهد بني حفص لم يشهد لها مثيل، فبرز عدد من العلماء في مختلف الميادين وخلَّفُوا العديد من المؤلفات القيّمة، فأصبحت المدينة تُضاهي تونس وتلمسان، ومركزا للإشعاع الحضاري طيلة قرون عديدة، فانتشر التّعليم بالكتاتيب والمدارس والمساجد والزّوايا، واعتمد المدرِّسون على الإملاء والإلقاء والشّروح مع التّركيز على أمّهات الكتب[3] والتّنويع في برامج التّدريس وهذا ما شجَّع على ظهور المكتبات فازدادت حركة اقتناء الكتب، كما برز عا لم وأديب فذٌّ آنذاك لا يزال إلى اليوم محلّ اهتمام الباحثين ألا وهو الحسن بن الفقّون، هذا إلى جانب

---

[1]- مدينة قسنطينة دراسة التّطور التّاريخي والبيئة الطبيعية، عبد العزيز فيلالي ومحمد الهادي لعروق، دار البعث للنّشر، الجزائر، ط1، 1984م، ص(51، 52).

[2]- المرجع نفسه، ص50 .

[3]- اعتمد المدرّسون في العلوم العربيّة خاصّة على كتب سيبويه، وكتاب الجُمل لأبي عبد الله الزّجّاجي، وكتاب المفصّل للزّمخشري، وكتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، والعقد لأبي عمر بن عبد ربّه، بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى كديوان الحماسة لأبي تمّام حبيب بن أوس الطّائي، للتّفصيل ينظر الحواضر والأمصار الإسلاميّة الجزائريّة، مختار حساني، ج1، ص220.

تألّق أسرة أحمد بن الخطيب بن القنفد القسنطيني التي تمتّعت بسمعة طيبة في هذه المدينة، وهكذا عاش علماؤها في ترحال مستمرّ بين وافد إلى قسنطينة من مختلف بقاع حاملاً معه أنواع المصنّفات النّفيسة، وبين مدبر منها إلى غيرها للاستزادة والتّفاعل مع علماء آخرين، كالشّيخ أبو القاسم الوشتاتي القسنطيني، والشّيخ أحمد القسنطيني، وبهذا صارت قسنطينة من إحدى عواصم الإسلام الكبرى ومنبعاً للإشعاع الفكريّ والحضاريّ.

- عنّابة:

توالت على مدينة عنّابة عدّة حضارات منذ العصور القديمة أهمّها الحكم الإسلاميّ، حيث حكمها أمراء من عهد الأغالبة والفاطميّين، والصّنهاجيين، والحمّاديين، والموحّدين وحتّى الحفصيّين، وفي كلّ عهد من العهود إلاّ وأُطلِق عليها اسم معيّن؛ فقد سُمِّيَت "بونة" و"سيبوس" و"زاوي" نسبة لأميرها زاوي بن زيزي الصّنهاجي وغيرها من الأسماء، كما تمتّعت بموقع استراتيجيّ وبطرق مواصلات تربطها بالعديد من الحواضر الأخرى، وفي العهدين الأغلبي والفاطمي نلاحظ ازدهار المدينة عمرانيا، إلاّ أنّنا نجهل الدّور الثّقافي الّذي قامت به أنذاك لعدم تعرّض المصادر التّاريخية لذلك! في حين أنّها أصبحت من أهمّ ولايات الدّولة الحمّادية ثم الدّولة الحفصيّة،كما كانت عنّابة أيضا مركزاً للإشعاع الثّقافي والعلميّ الإسلاميّ، وسايرت الرّكب الحضاري، وبرز فيها أدباء وعلماء، أسهموا في ازدهارها فنجد «العلاّمة الفقيه المحدّث أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطّاني الذي رَوَى عن أبي محمد الأصيلي...ثم ارتحل إلى المشرق فأخذ عن أبي الحسن القابسي ولازم أبا جعفر أحمد بن ناصر الدّاودي، وبعد هذه الرّحلات العلميّة واتّصاله بأكابر العلماء في المشرق والأندلس، تجرّد لخدمة العلم بالتّدريس والتّأليف فكتب شرحه المختصر لموطّأ الإمام مالك، ودرّس بجامع أبي مروان الّذي عُرف به في الأوساط العنّابيّة»[1] وقد تتلمذ على يديه عدد من التّلاميذ أبرزهم حاتم الطرابلسي وأبو عمر بن الخدم، وأخذا عنه في الفقه والحديث، بالإضافة إلى العالِم أحمد بن علي

[1]- ينظر عنّابة في سياق التاريخ وعمق الجغرافية في القديم والوسيط، محمد جندلي، منشورات بونة للبحوث والدّراسات، الجزائر، ط2، 2008م، ج1، ص218.

بن يوسف تقيّ الدّين أبو العبّاس البوني وهو متصوّف وفلكيّ ورياضيّ له تصانيف عديدة في علم أسرار الحروف والأسماء.

وحتّى في خِضَم المعارك السياسيّة والعسكريّة التي خاضتها عنّابة ضدّ المعتدين فإنّ ذلك لم يمنعها من مواصلة ما بدأته لبناء نهضتها الفكريّة والحضاريّة «فقد استهوت الكثير من رجال العلم والأدب، فانتقل إليها العالم المشدالي الكبير أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي البجائي، واستقر بها بضع سنوات قبل أن يلتحق بمصر وكان عالما كبيرا واسع الثّقافة والمعرفة في ميادين ومجالات كثيرة»[1] فكثير من أبناء عنّابة العلماء من غادرها إلى المشرق طلبا للعلم والمعرفة قاصدا الشّام والقاهرة لنيل العلوم والمعارف؛ شأن العالم المؤرّخ أحمد ساسي بن قاسم البوني «وكان عالما متضلّعاً وفقيها مُلِمًّا بأدقّ المسائل ومؤرّخا محليًّا لعنّابة، في شكل منظومته الدّرّة المصونة في صُلحاء وعلماء بونة وذكر ذلك في قصيدة تفوق الألف بيت»[2] وقد أخذ العلم على أيدي شيوخ عنّابة شأن محمد ساسي وأبوه قاسم، وإبراهيم ابن التّومي وعلي بن أحمد الجندلي، كما سافر إلى معظم البلاد العربيّة كمصر وتونس والحجاز للاستزادة، هذا إلى جانب تأليفه للعديد من المصنّفات؛ ومن ثمّ فإنّ علماء عنّابة وعبر مختلف العهود قد عُرِفُوا بالدّراية والعلم والأمانة والحفظ والصّيانة، وتضلّعهم بالأحكام الدّينية وشؤون الدّولة، وهذا ما أكسبها مكانة مرموقة بين المراكز الحضاريّة الكبرى بالمغرب الأوسط.

- وهران:

تُعَدُّ مدينة وهران من مدن المغرب الأوسط الّتي احتلّت مكانة هامّة في التّاريخ، بفضل الدّور الّذي قامت به على الصّعيد السّياسي والاقتصادي والثّقافي، فتحوّلت إلى سوق تقصده معظم القبائل للتّرويج لتجارتها لاسيما الأندلسيّين الّذين حملوا معهم خُبراتهم المعمارية ومهاراتهم الفنّية، فانضوت تحت لواء الدّولة الرّستمية فالفاطميّة لينتزعها المرابطون منها حيث حوّلوها إلى قاعدة بحرية،

---

[1]- ينظر موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحيى بوعزيز، دار الهدى للنّشر، الجزائر، دط ،2004م، ج1، ص29.

[2]- ينظر عنّابة في سياق تاريخ وعمق الجغرافيا في القديم والوسيط، محمد جندلي، ج1، ص55.

وجرت على أراضيها معارك شتىّ بين المرابطين والموحّدين آلت فيها وهران للموحّدين وهناك ازدهرت ازدهاراً لم يُشهد له مثيل في جميع ميادين الحياة.

أما عن الحياة الثّقافيّة والفكريّة التي هي موضع اهتمامنا فقد ازدهرت عبر التّاريخ بخاصّة في العهد الإسلاميّ، وبرز فيها عدد من العلماء والفقهاء والأدباء من أمثال «أبي محمد بن عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني، الذي اشتهر بتضلّعه في علوم الطّب والرياضيات والتّصوف، وانتقل إلى إشبيلية حوالي عام 427هـ ليُمارس مهنة التّدريس ولربّما التّجارة؛ وأخذ التّصوف على الشّيخ ابن زيد، وعاش وعمّر ثمانين عاما»[1] فقد اشتهر هذا العالِم بخبرتِه في الطّب والمداواة وترجم له العديد من المترجمين كابن بشكوال، كما نبغ أيضا الشّيخ إبراهيم التّازي[2] الّذي خلف الشّيخ الهوّاري في مركزه ومشيخته، وقام بنشاط علمي واجتماعي واسع فقصده العلماء من أجل حضور دروسه واستفتائه في بعض المسائل، ومن علماء وأدباء القرن السّادس الهجري نجد الشّيخ الأديب ركن الدّين محمد بن محرز الوهراني الذي ألّف عدّة رسائل ومنامات ومقامات صاغها بشكل هزليّ هادف، ومن أشهر مقاماته المنام الكبير الّذي سار فيه على أسلوب المعرّي، والمقامة البغداديّة، والمقامة الصّقليّة، ومقامة مساجد الشّام،« ولشُهرة أدبه الهزلي اللاّذع اهتمّ علماء السّيَر والتّراجم بالتّرجمة له، ولأعماله الأدبيّة الّتي تعتبر من أهمّ النّصوص المسرحيّة، لا تقلّ على مستوى مقامات الحريري، ومقامات بديع الزّمان الهمذاني»[3] فمن بين المهتمّين بهذه الأعمال نجد ابن خلّكان في وفيات الأعيان، وخير الدّين الزّركلي في الأعلام، والأستاذان إبراهيم شعلان، ومحمد نغش حيث جمعا عدداً كبيراً من مقاماته، ورسائله، ومناماته في كتاب تحت عنوان منامات الوهراني ومقاماته ورسائله.

---

[1]- مدينة وهران عبر التّاريخ، يحيى بوعزيز، دار البصائر للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2009م، ص(26، 27).

[2]- وكان هذا الشّيخ من بين العلماء الذين أسهموا في نشر العلم بوهران مع حرصهم الدّائب على تهيئة أماكن التّدريس من مساجد وزوايا وغرف لاستقبال الطّلبة الضّيوف الوافدين عليها، فضلاً عن التّعليم بها وتكوين الحلقات العلميّة، للتّفصيل أكثر ينظر موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحيى بوعزيز، ج1، ص97.

[3]- مدينة وهران عبر التّاريخ، يحيى بوعزيز، ص102.

فالازدهار الثّقافي الّذي عرفته وهران عبر مختلف مراحلها خلّد أسماء أبنائها وجعلهم عمالقة الفكر والثّقافة، وبفضله استقطبت أعداد أخرى من العلماء من الأقاصي البعيدة، شاركوا كلّهم في إثراء حضارة هذه المدينة العريقة، وبقيت بصماتهم في مجالات عدّة شاهدة على أعمالهم الجبّارة وإلى زمننا هذا بالرغم ممّا سُلِبَ ونُهِبَ من مكتباتها من كتب ومخطوطات نُقِلَتْ إلى مكتبات مدريد.

ومجمل القول إنّ حواضر المغرب الأوسط المزدهرة قد شكّلت رافداً مهمّا من روافد المعرفة، بفضل ما بذله علماؤها من غالٍ ونفيس في سبيل دفع الرّكب الحضاري، وقد ذاع صيتها في كلّ حدب وصوب، وأصبحت محطّ الرّحال من جميع الآفاق، وقبلة تستهوي كلّ من تتوق نفسه للاستزادة في العلم فصارت تضاهي حواضر المشرق والمغرب الأخرى.

وأخيرا فإنّه من خلال استعراضنا لحيثيات الحياة الثّقافية بحواضر المغرب الأوسط في هذا المدخل يتبيّن لنا أنّ المستوى العلمي والفكري لهذه الحواضر قد بلغ ذروته ويظهر ذلك في الآتي:

- اتّخذ مفهوم الثّقافة عدّة أشكال فدلّ على معنى الاستواء والتّهذيب تارة، وضمّ العديد من العناصر المهمّة في الحياة حيناً،كما تداخل مع مفهوم الحضارة في أحايين أخرى فصارا مصطلحين لمسمىً واحد، ولكنّ المهمّ أنّهما وجهان لعملة واحدة أحدهما ذاتي والآخر موضوعي يتضافران معا لإنشاء نظم الأمّة.
- للثّقافة أصناف كثيرة ومتنوّعة منها ما هو مادّي مجسّد وما هو فكري وعقلي ممنهج يكفل للأمّة التطوّر والتّجديد، ويدفعها للرُّقِيّ والتّحضّر.
- شهد المغرب الأوسط بحواضره تعاقب الكثير من الحكومات وقد أسهمت كلٌّ منها بنصيب هائل من الإنتاج العلمي والثّقافي الذي خلّد أسماءها في سجلّ التاريخ بأحرف من ذهب.
- نالت حواضر المغرب الأوسط قسطا وافراً من الاهتمام، فبفضل رصيدها الثّقافي والعلمي، صارت أهلا لمنافسة مثيلاتها من حواضر المغرب والمشرق، بل باتت لها خصوصيّتها التي تميّزها عنها.

الفصل الأوّل: مظاهر الحركة الثّقافية ببجاية

أوّلا: تأطير حكّام بجاية للحياة العلميّة

ثانيا: المعاهد التّعليميّة وحركة التّعليم ببجاية

ثالثا: تعدّد العلوم ببجاية وأشهر علمائها

تعدّ بجاية واحدة من أهمّ المراكز الثّقافية والفكريّة بالمغرب الأوسط، فقد مرّت بعدّة مراحل عبر التّاريخ لكلٍّ منها خصوصيّتها ودورها في تشكيل هذه المدينة، إذ كانت مزدهرة في جميع ميادين الحياة واسعة العمران، عامرة بالعلماء والأدباء وطلّاب العلم الذين وفدوا إليها من كلّ حدب وصوب، وهو ما أفضى إلى تنشيط حركة التّأليف وتبادل المصنّفات والآراء الفكريّة والفقهيّة، وتوسيع دائرة العلوم بشتّى أنواعها، فكانت ملتقىً لثقافات وإبداعات عديدة أهّلتها لتكون في الصّدارة بين مثيلاتها من الحواضر الأخرى.

أوّلا: تأطير حكّام بجاية للحياة العلميّة

تأسّست مدينة بجاية على يد النّاصر بن علنّاس الحمّادي سنة 460هـ، حيث سمّاها النّاصرية نسبة إليه، وسارع إلى إعمارها ودعم استقرارها وتمصيرها -كما ذكرنا سابقاً- ثمّ انتقل إليها سنة 461هـ وبايعه سكّانها وقَوِيَ سُلطانه فيها، وقد مدحه الشّاعر ابن فكّاه القيرواني[1] بقصيدة قال فيها:

قَالَتْ سُعَادُ وَقَدْ زُمَّتْ رَكَائِبُنَا ... مَهْلًا عَلَيْكَ فَأَنْتَ الرَّائِحُ الغَادِي

فَقُلْتُ تَاللهِ لَا أَنْفَكُّ ذَا سَفَرٍ ... تَجْرِي بِيَ الفُلْكُ أَوْ يَحْدُو بِيَ الحَادِي

حَتَّى أُقَبِّلَ تُرْبَ العِزِّ مُنْتَصِراً ... بِالنَّاصِرِ بْنِ عَلَنَّاسِ بْنِ حَمَّادِ[2]

فهذا الشّاعر كان من بين العلماء والشّعراء الذين قصدوا النّاصر بن علنّاس وغيره من الحكّام بعد نكبة القيروان فراحوا يتغنّون بمدحهم، وينشدون المفاخر فيهم.

---

[1]- ورد في كتاب أعمال الأعلام أنّ اسم الشّاعر هو ابن فكّاه القيرواني، إلّا أنّ بعض المراجع تورد أسماء أخرى منها ما نجده في كتاب المغرب العربي تاريخه وثقافته لرابح بونار حيث يسمّيه ابن الكفّاه، وكتاب تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمّار حين أورد تسمية ابن الكفّاء.

[2]- المغرب العربي تاريخه وثقافته، رابح بونار، الشّركة الوطنية للنّشر، الجزائر، ط2، 1981م، ص 211، وتاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب للنّشر، الدّار البيضاء، دط، 1964م، ص 96.

وقد رزق الله بجاية عناية خاصّة من لَدُنِ حكّامها وملوكها بفضل ما أَوْلَوهُ من اهتمام بالعلم وأهله سواء قبل العهد الحمّادي أم العصور اللّاحقة له، من موحّدين وحفصيّين، فشهدت الثّقافة نهضة كبيرة، وتوسّع العمران وازدحم العلماء والطّلبة على دُورِ العلم، وانتشرت العلوم بأنواعها فتحوّلت من ميناء صغير إلى مدينة عظيمة جليلة ذائعة الصّيتّ؛ والفضل في الازدهار الثقافي لها يعود إلى حكّامها الحمّاديّين، فهم الذين سهروا على رعاية العلم والعلماء وشجّعوا الحركة العلميّة والفكريّة عبر أقاليم الدّولة الحمّادية كلّها ابتداءً من القلعة التي اختطّها الأمير حمّاد بن بلقين[1] وأحاطها بالأسوار، وشيّد بها المباني فازدهرت وصارت قبلة العلماء من كلّ مكان، يقول ابن خلدون في هذا الشّأن: « فاستبحَرتْ في العمارة واتّسعت بالتمدّن، ورحل إليها من الثّغور والقاصية والبلد البعيد طلّاب العلوم وأرباب الصّنائع »[2] وبفضل ذكاء حمّاد وحنكته السّياسيّة استطاع التوسّع بمملكته وإخماد الفتن من حولها وإعلان استقلاله عن الفاطميّين، وبذلك انصرف للبناء وتوفير المنشآت العامّة « وهو ما جعل من مدينة القلعة عاصمة كبيرة نالت شهرة واسعة في المشرق والمغرب بما أقامه فيها من مدارس للعلم ومن صناعات مختلفة، كما شيّد بها قصورًا ومساجد تغنّى بها الشّعراء من كلِّ بلد»[3] وقد حظيت القلعة أيضا بعناية سائر الأمراء بعد حمّاد لا تَقِلُّ عن عنايته بها، وأخذت تؤدّي دورًا هامًّا في الميدان العلميّ والثّقافيّ، حيث واصل أبناء حمّاد سياسة التّعمير فأخذوا يهتمّون بالرَّعِية ويوفّرون الأمن والاستقرار اللّازم لهم، ويقرّبون العلماء والأدباء إلى بلاطهم ويُزجلون لهم العطاء.

[1]- حمّاد بن بلقين بن زيري بن منّاد، كان مَلكا كبيراً وشجاعاً ثبتاً، قرأ القرآن بالقيروان ونظر في كُتب الجدل وأخباره مشهورة، وهو الذي بَنَى قلعة بني حمّاد ونقل النّاس إليها، للتفصيل أكثر ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، ص 85.

[2]- الجزائر في التّاريخ، عثمان سعدي، شركة دار الأمّة للنّشر، الجزائر، دط، 2013م، ص 278/ نقلا عن ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، دط،2000م، ج6، ص227.

[3]- ينظر شخصيّات ومواقف تاريخيّة، زهير إحدادن، المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال والنّشر، الجزائر، دط، 2010م، ص 48.

وكما ورثت بجاية قلعة بني حمّاد سياسياً واجتماعياً، فقد ورثتها أيضا علمياً حيث واصل ملوكها تقديرهم للعلم والعلماء والإحسان إليهم حرصاً منهم على الرّفع من مستوى الثّقافة بالعاصمة الجديدة بجاية، ورغبة في أن تلتحق عاصمتهم بالرّكب الحضاري وتصبح أهلًا لمنافسة مختلف العواصم المرموقة الأخرى كالقيروان والأندلس وحواضر المشرق[1] كما أنّ المصادر التّاريخية على اختلافها لم تؤرّخ يوماً عن إساءة الحكّام لأولي العلم إلّا نادرًا، أو ما تعلّق بتضارب المذاهب وانتشار البدع والزّندقة، وذلك لأنّ العالِم في أيّ زمانٍ كان « يُعدّ عنصراً مهماً في حياة الأمّة الدّينية والاجتماعيّة يعيش متّصلاً بها، مكيناً عندها...راضياً بما قسم الله له من الرّزق»[2] وغالبا ما كان العلماء يُؤَثِّرُون في الدّولة وشؤونها عبر ما يَبُثُّونَه في تلاميذهم من أبناء الحكّام وأحفادهم من أفكار؛ وعَبْرَ ما يُؤلّفونه من مصنّفات تُعدّ إلى اليوم مصادر مهمّة في مجال التّأريخ للحضارات.

وقد اتّسع حكم بجاية وعظُم، وسارع حكّامها إلى وضع الأسس القويّة المتينة لإدارة الدّولة وإنشاء المـُلك العظيم الذي شمل سائر جهات المغرب الأوسط، فبمجرّد وصول النّاصر بن علنّاس[3] إلى الحكم سنة 454هـ كان ذلك بمثابة فاتحة عهد جديد من الاستقرار السّياسي والحضاري للدّولة الحمّادية، والآية على ذلك تزايد رغبات النّاس بالإقامة فيها بعدما أسقط الخراج عن السّكان وهيّأ لهم كلّ متطلّبات العيش الكريم، كما كان هذا الرّجل مولعًا بالعمران والفنون فشيّد في بجاية البنايات المتنوّعة والقصور الفخمة والمدارس والمساجد، وقصدها النّاس من كلِّ مكانٍ، وتحوّلت إلى مركزٍ علميّ مزدهر يؤمّه العلماء والأدباء والشّعراء « وأمر أن توزّع المنح على العباقرة والمبرزين منهم في كلّ فنٍّ

---

[1]- حظيت سائر المراكز الثقافيّة بالمغرب الإسلاميّ بعناية حكّامها وأمرائها بالعلم والعلماء منها تلمسان التي عُرفت بنزعة سلاطينها العلميّة في العهد الزّياني فحوّلوها إلى قطب علميّ رائد، للتّفصيل أكثر ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، موفم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2002م، ج2، ص 320.

[2]- ينظر الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمد أبو رزّاق، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، دط، 1979م، ص 206.

[3]- يعدّ النّاصر بن علنّاس خامس ملوك بني حمّاد وأعظمهم ملكاً، وأبعدهم صيتاً، كان حازماً جواداً، عالي الهمّة، مرهوب الصّولة، جريئاً على سفك الدّماء، شديد الغيرة على النّساء، وله في ذلك أخبار مشهورة، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني ، ص 96.

من الفنون، فأخذت الثّقافة تتوسّع لا في العلوم النّقلية واللّغويّة فحسب بل في مجالات العلوم العقليّة والحكميّة أيضا»[1] وهو ما كان يفعله أغلب الملوك الحمّاديين قبل النّاصر وبعده من رعاية فائقة بالمفكّرين وإزجال العطاء لهم والإغداق عليهم الأموالَ الطّائلة والهدايا الفاخرة «أُسوة بنظرائهم من الملوك العرب الذين كانوا يشجّعون أولي العلم على السّير قُدما لمعرفة الجديد في مجال الدّين والعلم، ويحفّزونهم على الإبداع المتميّز»[2] هذا فضلًا عن مشاركتهم الجادّة في تطوير الحياة العلميّة وإعمار مجالسهم الخاصّة والعامّة بالعلماء وطلبة العلم، وحضور حلقات العلم والمناظرات؛ متّخذين دوائر من العلماء والأدباء.

وبالحديث عن الإسهام العلمي للحكّام والعلماء فقد نفقت سوق الأدب وقيلت في شأنهم قصائد بليغة «فبلغ إقبال النّاس على العلم يومئذٍ أنّه كان يجتمع على المدرّسِ الواحد ما ينيف عن مائة طالب ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره، حيث أنّ المدرّس يقوم بمهمة التّدريس على أكمل وجه دون تعصّب أو فرق عرقيّ، بل يلقي الدّروس بكلّ أمانة وإتقان»[3] وبما أنّ بجاية كانت همزة وصل بين الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط، وبين المشرق الإسلاميّ فإنّ وفود العلماء الأندلسيّين والإيطاليّين قد أخذت تتوافد عليها وتتزايد للنّهل من معين الثّقافة البجائيّة الإسلاميّة، وبخاصّة في عهد النّاصر بن علنّاس «الذي جمعته علاقات وُدّية مع المسيحيّين وهو ما تثبته تلك الرّسائل المتبادلة بينه وبين البابا غريغوار السّابع»[4] فهذا الموقف المتسامح بين العنصرين الإسلاميّ والمسيحيّ أدّى للاندماج في الحياة العامّة وأسهم في الرّفع من مستوى الثّقافة الحمّادية.

وبذلك يمكننا أن نصنّف النّاصر بن علنّاس في أعلى مراتب حكّام بني حمّاد لاستفحال ملكه وإعلائه شأن بني جلدته، وتوسيعه لرقعة الحكم من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والصّحراء

[1]- ينظر الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج، محمد الطّمار، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1983م، ص 142.

[2]- ينظر أسس المكوّن الثّقافي للحمّاديين، محمد تحريشي، مجلّة الفضاء المغاربي، مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان، العدد الثّاني، 2004م، ص 264.

[3]- ينظر الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج، محمد الطّمار، ص (142، 143).

[4]- ينظر الدّولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، رشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1977، ص 164.

وأغلبيّة تونس، وبلوغ حضارته إلى أوربا وآسيا وإفريقيا السّوداء، فيكون قد خلّد مآثره في التّاريخ بأحرف من ذهب «وقد كانت وفاته سنة 481هـ بعد أن قضى نحو ربع قرن على رأس المملكة الجزائريّة»[1] فخلفه ابنه المنصور[2].

رأينا كيف أنّ النّاصر أسّس مدينة بجاية وانتقل إليها متّخذاً إيّاها عاصمة لدولته، وذلك نتيجة لتخوّفه من ثورة الأعراب وهجماتهم على العاصمة الأولى القلعة، وقد كان ظنّه في محلّه فقد زاد الأمر سوءً حيث شدّدت بنو هلال قبضتها على القلعة ممّا اضطر خليفتها إلى هجرها نحو بجاية سنة 483هـ، وهناك تمكّن الخليفة المنصور من مواصلة جهود والده في البناء والتّعمير الحضاري، وتوطيد أركان المملكة، وإتمام كلّ المشاريع التي ابتدأها أبوه من قبله، فهو كان «مولعًا بالبناء وتشييد المصانع واتّخاذ القصور وإجراء المياه في الرّياض والبساتين؛ فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السّلام وفي بجاية قصر اللّؤلؤة وقصر أميمون»[3] هذا إلى جانب تشييده لعدّة مباني أخرى ببجاية أيضا كالجامع الأعظم، ويعود له الفضل في تمدّن مملكة بني حمّاد وتحضّرها حتّى غدت عاصمة مشهورة مثل القاهرة وقرطبة وبغداد، بيد أنّ هجمات بني هلال وغيرهم من الطّامعين في المملكة لم تنته فراح يدافع عن حدودها - بالرّغم من قلة شغفه بالحروب - ويُخمد ثوراتها ويحفظ للبلاد استقرارها واستتباب أمنها ولو بقدر محدود.

وعُنيت دولة بني حمّاد على أيّام المنصور بنشرها للعلوم والآداب، بفضل كثرة العلماء والفقهاء بها الذين أسهموا في الرّفع من مستوى الحركة العلميّة والثقافيّة حتّى إنّ بعضهم تقلّد مناصب هامّة

---

[1]- تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط7، 1994م، ج1،ص 284.

[2]- هو المنصور بن النّاصر بن علنّاس سادس ملوك الدّولة الحمّادية، بُويع بعد وفاة أبيه النّاصر، كان فاضل الأخلاق، كريم الشّيم، عزيز النّفس حازماً، ساس أمور الدّولة سياسة رشيدة، فتمكّن من ردّ هجمات المرابطين على بعض المناطق بعد معارك ضارية ثمّ أقلع عنها صلحاً، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، ص 97، ومعجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص322.

[3]- المغرب العربي تاريخه وثقافته، رابح بونار، ص 212، وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، ج6، ص 232.

في الدّولة، إضافة إلى هؤلاء العلماء والطّلبة الوافدين من مختلف مناطق العالم الإسلاميّ والعالم المسيحيّ، فالخليفة المنصور هو أيضا كان له نصيب من الإسهام في مجال الآداب والعلوم، وقد أهّلته أوصافه المتكاملة وخصاله الشّريفة ليكون حاملاً لِلِوَاء العلم بعد أسلافه، حيث يصفه ابن الخطيب قائلا: «كان على أمره، حميد الخصال، ضابطا لأموره، يكتب ويشعر ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور من رقع الثّياب، والتّحفظ على القليل من الأشياء»[1] والمنصور وفق هذه الأوصاف كان أديباً بليغاً كاتباً يقول الشّعر ويرويه، له اطّلاع واسع في مجالي العلوم والآداب، مقرّباً الأدباء ومتّخذاً إيّاهم كتّاباً للدّواوين، مشجّعاً للشّعراء وحامياً لهم مثلما فعل بابن حمديس الصّقلي الذي قصده في بجاية واستقبله المنصور بحفاوة وأغدق عليه صلاته السّنية، فمدحه بقصيدته الرّائية التي أشاد فيها بذكره ووصف منشآته الفنيّة فقال:

اعْمُرْ بِقَصْـرِ المُلْكِ نَادِيَـكَ الذِي	أَضْحَى بِمَجْـدِكَ بَيْتُـهُ مَعْمُـورَا
قَصْـرٌ لَوَ أنَّكَ قَدْ كَحَلْـتَ بِنُـورِهِ	أَعْـمَى لَعَـادَ إِلَى المَقَـامِ بَصِـيرَا
وَاشْتُقَّ مِـنْ مَعْنَى الحَيَاةِ نَسِيمُـهُ	فَيَـكَادُ يُحْـدِثُ لِلْعِـظَامِ نُشُـورَا[2]

ثمّ يقول في مدح المنصور ويختم قصيدته:

يَا مَـالِكَ الأَرْضِ الذِي أَضْحَى لَهُ	مَلِكُ السَّمَـاءِ عَلَى العُدَاةِ نَصِـيرَا
كَـمْ مِنْ قُصُـورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَـتْ	وَاسْتَوْجَبَتْ بِقُصُـورِكَ التَّأْخِـيرَا
فَعَمَرْتَهَـا وَملَكْـتَ كُـلَّ رِيَاسَـةٍ	مِنْهَـا وَدَمَّـرْتَ العِـدَا تَدْمِيـرَا[3]

فقد أبان ابن حمديس في كِلتَيهما عن مهارته الفنيّة وحذق وصفه لعمائر المنصور وأبّهتها، ممّا يضفي على اللّفظ عذوبة وعلى التّصوير روعة والنّغم الموسيقيّ وحلاوته.

[1]- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ص 97.

[2]- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرّي التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، ج1، ص 492.

[3]- المصدر نفسه، ص 494.

وبالرّغم من قِصَرِ مدّة حكم المنصور للدّولة الحمّادية فإنّه استطاع في هذا الظّرف الوجيز « أن يعيش عيشة العظماء مبجّلا مقدّرا مُسهِمًا في ازدهار بجاية حضاريا وثقافيا إلى أن توفي سنة 498هـ»[1] فاعتلى العرش بعده ابنه باديس[2] ملكاً على الدّولة الحمّادية سنة 498هـ إلاّ أنّه لم يكن يتمتّع بالصّفات المطلوبة ليشغل فراغ أبيه من بعده، ولم يقم بأيّة أعمال إنشائية أو حربية أو ثقافيّة بل إنّه افتقر إلى الكياسة والسياسة، واتّخذ من الشدّة والفظاظة منهجاً له حيث « وُصف بشدّة بأسه، إذ قتل وزير أبيه لأوّل ولايته، كما قام بعزل أخيه العزيز بن المنصور عن ولاية الجزائر وغرّبه إلى جيجل»[3] وقد توفي في السّنة نفسها أي سنة 498هـ[4] بعد تولّيه الحكم بأقلّ من ستّة أشهر.

وخلَف العزيز بن المنصور[5] أخاه باديس، فسادَ الأمن والاستقرار أيّام حكمه، وعاش مُؤْثِرا السّلام على الخصام عارفا بتسيير الدّول والممالك، «فمن دهائه أنّه تزوّج من بيوتات خُصمائه زناتة، ومن بيت الملك بالمهدية »[6] فأمن ثوراتهم وقلب عداوتهم إلى مصاهرة فانتشر الأمن ببلاده وساد الهدوء بين النّاس، وبلغت دولة بني حمّاد في عهده مكانة مرموقة وقصده النّاس وأطاعوه فكرّس جهوده لتشجيع الثّقافة وجعل بجاية من أهمّ عواصم العلم «فمهّد السّبيل للاّجئين من العلماء

1- ينظر شخصيّات ومواقف تاريخيّة، زهير إحدادن، ص 50.

2 - هو باديس بن المنصور بن النّاصر بن علنّاس، يُكنّى أبا معد، كان شديد البأس، عظيم السّطوة، سريع البطش، فيحكى من فظاظته أنّه ألقى رجلاً صالحاً إلى الأُسُود، فبات ليلته معها، وأصبح لم تعد عليه، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ص 98.

3- بجاية حاضرة البحر ونادرة الدّر، تواتي بومهلة، دار المعرفة للنّشر، الجزائر، دط، 2010م، ص 43 / نقلا عن ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، ج6، ص 234.

4- دولة بني حمّاد ملوك القلعة وبجاية، إسماعيل العربي، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1980م، ص205.

5- هو العزيز بن المنصور بن النّاصر بن علنّاس، كان حسن الخلق معتدل الطّريقة، كاتَب ملوك زمانه وسالمهم، فكانت أيّامه أعياداً، له في مُلكه آثار عظيمة، وكان يُعرف بالميمون لولادته ليلة ولاية أبيه، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من أعمال الأعلام، لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ص99.

6- ينظر تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ج1، ص287.

والأدباء والشّعراء الوافدين من القلعة بعد خرابها، وهيّأ مجلسه للعلماء حتّى يتناظروا فيه، هذا فضلا عن مشاركته الفريدة في هذه المناظرات ومجالساته القيّمة للأدباء»[1] فكلّ هذه الأعمال التي قام بها إنّما تدلّ على مستوى العيشة الرّغيدة التي تمتّع بها أهل بجاية آنذاك وهو ما ساعد وتيرة الثّقافة على الارتفاع والرّقِي كما لم تعهده من قبل، وقد توفي العزيز سنة 515هـ ووَلِيَ الحكم بعده ابنه يحي بن العزيز[2] فكان آخر الأمراء وأطولهم مدّة؛ لم تخلُ أيّامه من الحروب والمناوشات المعادية له، يذكر ابن خلدون «أنّه كان مستضعَفا مغلبًا للنّساء مولعا بالصّيد»[3] وهو ما يدلّ على حبّه للّهو والبذخ والزّخرف، فكان دائماً يملأ مجلسه بالمضحكين بالغاً في العزّ منتهاه، بيد أنّ وصفه من لَدُنِ ابن الخطيب بالحلم والفصاحة وجودة العبارة يُبين عن تمكّنه في العلوم اللّغوية والدّينية ولو بدرجة محدودة، وبعدما هاجم الموحّدون مملكة يحي بن العزيز اضطرّ للاستسلام ومبايعة عبد المؤمن بن علي الذي نقله معه إلى مرّاكش، وبذلك أُسدِل السّتار على الدّولة الحمّادية سنة 547هـ.

وبدخول الموحّدين لبجاية يبدأ عهد جديد من الازدهار الحضاري إلّا أنّ الحديث عنهم لا ينفصل بتاتًا عن المؤسّس السّياسي والمذهبي لهذه الدّولة؛ وهو محمد بن تومرت المسمّى المهدي[4] الذي زار بجاية قبل هذا التّاريخ وإليه يرجع الفضل في بلوَرة النّظام الموحّدي وتحديث أجهزته

[1]- ينظر دولة بني حمّاد، ملوك القلعة وبجاية، إسماعيل العربي، ص 206.

[2]- هو يحي بن العزيز بن المنصور بن النّاصر، كان فاضلاً حليماً، فصيح اللّسان والقلم، مليح العبارة، بديع الإشارة، مولعاً بالصّيد مغرماً به، كَلِفاً بالملهّين، يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثّالث من أعمال الأعلام، لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ص99.

[3]- الدّولة الحمّادية تاريخها ونشاطها، رشيد بورويبة، ص 91 / نقلا عن ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، ج6، ص 235.

[4]- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت، المنعوت بالمهدي الهرغي، صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب، وهو من جبل السّوس نشأ هناك ثمّ رحل إلى المشرق طالباً للعلم فالتقى عدداً كبيراً من علمائه، وحصّل طرفاً هائلاً من علمه، وكان ورعاً خلوقاً، شجاعاً فصيحاً، شديد الإنكار على النّاس فيما يخالف الشّرع، للتّفصيل ينظر وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، دط، 1997م، مج5، ص 46.

ومؤسّساته، فقد عُرف عنه منذ صغره أنّه كان محباً للعلم وملازماً للمساجد والكتاتيب « تلقّى علوما كثيرة بالمغرب ثمّ توجّه للمشرق لاغتراف المزيد من المعرفة، وفعلاً تأتّى له ذلك بفضل مُروره على عدّة مدن نهل منها ما تيسّر له كالأندلس، وقرطبة، والمهدية، والإسكندرية، ومكّة، وبغداد، فحضر دروس أشهر الأساتذة بها وحصّل قدراً صالحاً من علم الشّريعة، والحديث، وأصول الفقه، والدّين، فامتلأ إيماناً وازداد فصاحة وشرع في مهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»[1] فكلّ هذه العلوم التي حصّلها ابن تومرت جعلت منه إماما بحقّ وعالِماً لا يُستهان بعلمه، ثمّ قفل راجعا إلى المغرب ماراً بعدد من المدن، فكلّ ما مرّ بواحدة منها إلّا وجلس للإفتاء والتّدريس والأمر بالمعروف، إلى أنْ وصل بجاية سنة 511هـ، فنزل بمسجد الرّيحانة « وقصده الفقهاء منهم محرز وإبراهيم الزبدوي، وإبراهيم بن محمد الميلي ويوسف بن الجزيري الجراوي، كما أقبل النّاس يحضرون دروسه ووعظه، غير أنّه قوبل بأمر وجوب مغادرة بجاية فسار إلى ملّالة بظاهر بجاية وبُنِيَ له مسجد هناك يصل إليه الطّلبة من كلّ مكان»[2] وهذا أكبر دليل على تقريب ابن تومرت لطلّاب العلم والاهتمام بأمرهم، وبينما هو بملّالة إذ بعبد المؤمن بن علي يصل إلى بجاية مارًّا بها إلى المشرق رغبة في طلب العلم فتقابل الرّجلان، وهناك طلب ابن تومرت من عبد المؤمن البقاء معه ومساعدته على إماتة المنكر وإحياء العلم فأجابه لِمَا أراده.

واصل ابن تومرت ورفاقه طريقهم إلى المغرب الأقصى فلمّا وصلوه تابعوا مهمّة الدّفاع عن الدّين ووعظ حكّام المرابطين ورعيّتهم «فما كان من أهل المغرب إلّا أن جمعوا الفقهاء لمناظرته وتعجيزه إلّا أنّه أفحمهم وأخرس ألسنتهم، فأشار بعضهم بقتله أو سجنه، فاستقرّ الأمر في الأخير

---

[1]- ينظر ابن تومرت، رشيد بورويبة، ترجمة عبد الحميد حاجيّات، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1982م، ص (18، 19، 26، 27، 32، 33).

[2]- ينظر أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّى البيذق، دار المنصور للطّباعة، الرّباط، دط، 1971م، ص (12، 13).

على إخراجه من البلاد»[1] فقد استشعر المرابطون مدى الخطر الذي يكنّه ابن تومرت لدولتهم فحاولوا إبعاده، فتوجّه ورفاقه إلى سوس ونزل بموضع منها يُعرف بتينمل[2] وهناك بدأت دعوته في توحيد القبائل وتنظيم المجتمع الموحّدي لمناهضة المرابطين، فازداد عدد أتباعه وعظم شأنه بينهم فبايعوه على ذلك.

حرص ابن تومرت غداة تكوينه لدولة الموحّدين العظيمة على إرساء العدل وحماية الدّين، كما أنّه لم ينس أن يُولِي للعلم والوضع الثّقافي للدّولة جانباً مهمّا من عنايته فكان أينما حلّ يبني المساجد ويجمع الطّلبة للدّرس والتّحصيل « وقد نزل إلى الميدان معلّماً شعاعاً ثائراً مصلحاً دينياً يدعو إلى العمل بالكتاب والسنّة، ومقاومة كتب الفروع المالكيّة وتغيير المنكر، مُفسِحا المجال في الوقت نفسه للعلم داعياً لتعلّمه بجميع الوسائل»[3] حتّى إنّه ألّف كتباً لهذا الغرض من أجل نشر تعاليمه وإيصال فكره لأكبر عدد من النّاس ككتابه الموطّأ أو أعزّ ما يُطلب، إضافة إلى إتقانه للعربيّة والبربريّة وقدرته الفائقة على جذب السّامعين والتّأثير فيهم وإقناعهم.

أظهر ابن تومرت اهتمامًا واضحاً بالعلم والعلماء، فرأى أنّ للعلم شروطا تسعة لا يتأتّى إلّا بتوفّرها وهي « الفراغ التّام، والبصيرة النيّرة، والسّريرة الحسنة، والهمّة العالية، والصّبر الحديدي، والاقتداء بالإمام النّاصح، وإتّباع السّبيل الواضح، والتّأدب بأدب أهله، وألّا يبتغي به ما سوى وجه

---

[1]- ينظر ابن تومرت، رشيد بورويبة، ص 56، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي بن علي التّميمي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006م، ص 140.

[2]- تينمل قرية واقعة بتراب بطن فرغوسة أحد بطون مدينة كدمة و(كدمت) الكندافية، على بعد كيلومتر واحد من الطّريق الذّاهب من مراكش إلى رودانة (الكيلومتر104)، بها قبر المهدي وخليفته عبد المؤمن بن علي وأطلال مسجد عظيم، وهنا نجد أنّ ابن تومرت يسمّي هذه القرية بتينملل عكس سائر المصادر التّاريخيّة الأخرى مثل كتاب المعجب للمراكشي التي يطلق عليها تسمية تينمل وهي الغالبة، للتّفصيل ينظر أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّى البيذق، ص17.

[3]- ينظر الحركة الثقافيّة والحضاريّة في العصر الموحّدي وأثرها بالغرب الإسلامي، عبد الهادي الحسيسن، ملتقى الدّراسات المغربيّة الأندلسيّة، تيّارات الفكر في المغرب والأندلس الرّوافد والمعطيات، جامعة عبد الملك السّعيد، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، 1993م، ص 410.

الله تعالى»[1] وطالب العلم كلّما اتّبع هذه الشروط ولجأ إلى الله تعالى يجد الباب مفتوحاً أمامه للهداية فيقتنع بما علّمه الله، ويكتسب مَلَكَة تخوّله من الحصول على مكانة هامّة بفضل علمه فيزداد تواضعاً لله ولعباده فيرفعه إلى أسمى الدّرجات.

وبعد أن طبع ابن تومرت مواليه بطابع الوحدة والتّجديد ورسّخ عقائده في عقولهم اتّجه إلى محاربة المرابطين بشنّ بعض الغزوات ضدّهم، وقد كلّل معظمها بالنّجاح كان آخرها -إبّان حياته- معركة البحيرة سنة 524هـ وفيها مُنِي الموحّدون بهزيمة كبيرة، فكان هذا النّبأ بمثابة المصيبة التي حلّت على ابن تومرت فزادت من شدّة مرضه، ولقي ربّه بعدها بأيّام قلائل « إلّا أنّ أصحابه المقرّبين قد أبقوا نبأ وفاته سراً بينهم لمدّة ثلاثة سنوات خشية الفتنة وتفرّق الجيش بعد سماع الخبر، فكان إعلان وفاته رسميّا سنة 527هـ، فبايع الموحّدون في السّنة نفسها عبد المؤمن بن علي خليفة بعده»[2].

تسلّم عبد المؤمن بن علي[3] زمام الحكم وهو لم يتجاوز الثّلاثين من عمره، ولكنّه استطاع بذكائه وحكمته المتّزنة أن يبعث من جديد حركة الموحّدين وأن ينتصر على أعدائه وأن يوحّد المغرب كلّه تحت رايته، فاستولى على سبتة وتلمسان ووهران وفاس ومرّاكش، ليتّجه بعد ذلك لغزو دولة بني حمّاد وما يجاورها فتمّ له ذلك سنة 547هـ ومكث عبد المؤمن ببجاية لمدّة شهرين مواصلاً بها توطيد حكمه، قبل أن ينتقل لفتح ما بقي من المدن متّجها نحو الشّرق إلى تونس ليكرّس الاستقرار عبر إفريقيا والمغرب، ويعبر فيما بعد إلى الأندلس.

---

[1]- ابن تومرت، رشيد بورويبة، ص 122.

[2]- ينظر الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز، ج1، ص (191، 192).

[3]- هو عبد المؤمن بن علي بن عَلَوِي الكُومِي، وُلد بضيعة من أعمال تلمسان تُعرف بتاجرا، كان مولده في آخر سنة 487هـ في أيّام يوسف بن تاشفين، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة 558هـ، ومدّة ولايته من حين استوسق له الأمر إحدى وعشرين سنة، وكان أبيض ذا جسم عممٍ، معتدل القامة، وضيء الوجه، جهوريّ الصّوت، فصيح الألفاظ، جزل المنطق، وكان محبّبا إلى النّفوس لا يراه أحد إلّا أحبّه بديهة، وكان له من الولد ستّة عشر ذكراً، للتّفصيل ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي بن علي التّميمي، ص 148.

شهدت حاضرة بجاية - وهي ما يهمّنا في هذه الآونة - انهزام آخر ملوك بني حمّاد بها وهو يحيى بن العزيز، وفراره راكبا متن البحر إلى بونة، وكان ممّن شهد هذا الفتح ببجاية مع عبد المؤمن بن علي الشّاعر أبو عبد الله بن حبّوس الفاسي الذي نظم قصيدة يصف فيها ما حدث فيقول:

إِلَى النَّـــاصِـــرِيَةِ سِرْنَـــا مَعـــاً وَلَمَّـــا تَفُتْنَا وَلَـــمْ تُلْـــحَقِ

إِلَى بَــــــرْزَةٍ فِي ذَرَى أَرْعَـــــنٍ تَجِـلُّ عَنِ السُّـــورِ وَالخَنْـدَقِ

يَعُـــوذُونَ مِنَّـــا بِمَـــوْلَاهُـــمُ وَمَـــوْلَاهُـــمُ عَـــاذَ بِالــزَّوْرَقِ

وَأَكْـسَبَـــهُ خَـــوْفُـــهُ خِفَّـــةً فَلَوْ خَاضَ فِي البَـحـْرِ لَمْ يَغْرَقِ[1]

فراح الشّاعر يسرد لنا أحداث الفتح إلى جانب الموحّدين وكيف انهزم آخر ملوك بني حمّاد تاركا بعضا من جيوشه تقاتل لوحدها لحماية المدينة إلّا أنّ خيبتهم ازدادت بقتل عدد كبير منهم.

ومثّل حكم الموحّدين - وهم الذين خلفوا المرابطين في حكم المغرب والأندلس - فترة من أخصب الفترات للحياة الثقافيّة، إذ وجد عبد المؤمن بن علي وسطاً علمياً راقياً أبدى فيه اهتماماً بالغاً بالعلوم والفنون، وأفسح المجال لحرية التّفكير والبحث، هذا فضلا عن أنّه هو أيضا «قد نشأ محباً للقراءة والدّرس، تعلّم الكتابة وحفظ القرآن الكريم وألَـمّ بشيء من السّيرة النّبوية ودرس سائر العلوم الدّينية واللّغوية وتوسّع فيها حتّى أصبح عالماً كبيراً في مستوى أستاذه وشيخه ابن تومرت»[2] فكلّ هذه الصّفات جعلت من عبد المؤمن رجل علم وثقافة واسعة، وما كان منه إلاّ أن سار على خُطى شيخه ابن تومرت في نشر العلم بين الرّعية وجمع طلّاب العلم وتدريسهم من لدُن علماء عدّة وفدوا إليه فعرف قدرهم وأكرمهم، حتّى إنّه من شدّة رغبته في العلم وتعلّقه بأهله قام برفع الحظر عن طائفة من الكتب التي كان المرابطون يحذّرون من قراءتها واستنساخها مثل كتب الغزالي «كما أمر بحفظ كتب التّوحيد وكتاب الموطّأ وهو المسمّى أعزّ ما يطلب لابن تومرت وغير ذلك من كتب المهدي،

---

[1]- تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ج2، ص 40، وحضارة الموحّدين، محمد المنّوني، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 1989م، ص 157/نقلا عن زاد المسافر وغرّة محيّا الأدب السّافر، أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، اعتنى بنشره وتهذيبه والتّعليق عليه عبد القادر محداد، بيروت، دط، 1939م، ص6.

[2]- ينظر عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، موفم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2011م، ص 15.

قاصدا من وراء كلّ هذا تدريب الطّلبة على سرعة الحفظ والفهم وتربيتهم تربية متكاملة الجوانب، ونَفَقَةُ كلّ هذه المساهمات على حسابه»[1] في محاولة لبعث النّشاط الفكريّ عبر كلّ أفراد الدّولة ونشر مختلف الكتب بتنوّع مشاربها؛ وأتاح للنّاس قراءتها في أرجاء المساجد ولم يُتلفها يوما أو يأمر بإحراقها كما فعل المرابطون ببعض الكتب اعتقاداً منهم أنّها ضارّة بالعقيدة.

ومن أمثلة تنشيط عبد المؤمن للعلم حبّه للعلماء وإيثاره لهم وإغداقه الصّلات عليهم، فكان يستدعيهم إليه أينما حلّ وارتحل ويُقبِل على مجالستهم مهما كان موطنهم من أندلسيّين ومغاربة، ويستمع إليهم ويُشاركهم العلم والأدب فيُثْنِي على هذا، ويُصوّب ذاك، ويُقرّظ الآخر «بل لقد كان شاعرًا (نُسِبت له أبيات) أو كان - على الأصحّ- ذوّاقة للشِّعر، وكان فقيها، محباً لمرافقة العلماء، لا ليسمع منهم ويزداد علماً فقط، ولكنّه كان يصطنعهم حتّى في خرجاته الجهاديّة الكثيرة، من أجل أن يظلّ موصولا بمناخ العلم الذي أحبّه وشغف به ورحل في طلبه منذ النّعومة»[2] حتّى إنّه كان يعقد النّدوات العلميّة في قصره ويصل إليه العلماء والحفاظ وهو ما أَلِفَهُ فيه أبناؤه وشعبه من بعده، فصاروا يتظاهرون في الأشعار وينافسون علماء المغرب والأندلس، ويبدو أنّ عبد المؤمن بن علي شعر بعلّة ما، أو هو القدر يجرّ المرء إلى حيث يريد؛ إذ إنّ الرّجل عاد إلى سلا حيث اعترته علّة توفّي على إثرها سنة 558هـ[3] ودفن في مدينة تينملل بجوار قبر المهدي، ليتولّى الحكم بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن[4] وامتاز عصره بالاستقرار، فعمّ الرّخاء واتّسعت المعايش، فلم ير أهل المغرب أيّاما مثل أيّام أبي

---

[1]- ينظر تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ج2، ص 25.

[2]- الشّخصية الجزائريّة الأرضيّة التاريخيّة والمحدّدات الحضاريّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 2002م، ص 134.

[3]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي، ص 173.

[4]- هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، كان رقيق حواشي اللّسان في صوته جهارة، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيّب المجالسة، ولّي على اشبيلية في حياة أبيه ولقي بها رجالاً من أهل اللّغة والنّحو والقرآن، فأخذ عنهم وبرع في عدّة علوم كان سخياً جواداً استغنى النّاس في أيّامه وراحوا يتنافسون على الدّرس والتّحصيل، للتّفصيل ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي، ص (174،175).

يعقوب، ونتيجة لاستتباب الأمن تحقّقت في عهده نهضة عظيمة مسّت العديد من الجوانب بخاصّة ما تعلّق بالجانب الفكريّ والثقافيّ.

لم يكن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقلّ اهتماماً بنشر العلم والثّقافة من والده وسائر الحكّام من قبله «إذ كان هو نفسه حافظا لكتاب الله تعالى عالما بحديث رسوله (صلّى الله عليه وسلّم) أحفظ النّاس لأيّام العرب وآثارهم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النّحو، وأتقنهم لعلوم اللّغة العربيّة، هذا مع إيثاره للعلم وتعطّشه المفرط إليه»[1] فقد درس الخليفة على يدي والده وتخرّج على أيدي علماء كبار أمثال الحافظ ابن الجد، وابن طفيل وابن زهر وابن رشد الحفيد، فأحبّهم وجمع كتبهم، فما كان منه إلّا أن ازداد شغفه بتعلّم الفلسفة والطبّ، فبرع فيهما وصار يبحث عن الكتب والعلماء من شتّى الأقطار بالمغرب والأندلس، فتكوّنت لديه جماعة من أهل العلم أمثال الفيلسوف الإسلاميّ أبي بكر محمد بن طفيل وأبي الوليد بن رشد، حيث كان ابن طفيل يقوم بمهمّة السّفارة بين الخليفة وسائر العلماء يجلبهم إلى حضرته وينبّه على أقدارهم لديه، وهو ما جعل بَلاط الخليفة يوسف «يعجّ بأشهر العلماء في عصره من مفسّرين ومحدّثين وفقهاء وأدباء وفلاسفة وأطبّاء ومهندسين، فقرّبهم إليه، وأغدق عليهم الأرزاق الواسعة، فاختار منهم وزراءه وقضاته وكتّابه، والمحافظين على خزائن كتبه وأمواله، كما جعل منهم سفراءه وندماءه، يناقشهم الأحاديث العامّة ويجادلهم فيها»[2] وهذا العمل إنّما يدلّ على حسن اختيار الخليفة لمن يتعامل معهم في سائر شؤون حياته، ويجالسهم إبّان مناظراته ويثق في علمهم وعملهم.

ويرجع الفضل إلى الخليفة يوسف في انتشار العلوم العقليّة بالدّولة الموحّدية ولاسيما الفلسفة التي دعا لنشرها وتعلّمها، فقد كلّف ابن رشد بشرح كتب أرسطو والتّعليق عليها «حتّى صار الموحّدون أشبه الدّول الإسلاميّة بالعبّاسيين في الأخذ بضبع هذه العلوم وتنشيط رجالها، لكن أربى

---

[1]- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحّدين في الشّمال الإفريقي، علي محمد الصّلابي، دار المعرفة للنشر، بيروت، ط2، 2005م، ص 353.

[2]- الحركة الثقافيّة والحضاريّة في العصر الموحّدي وأثرها بالغرب الإسلامي، عبد الهادي الحسيسن، ملتقى الدّراسات المغربيّة الأندلسيّة، تيّارات الفكر في المغرب والأندلس، الرّوافد والمعطيات، ص 413.

عليهم في ذلك كإرباء المأمون على سائر العبّاسيين يوسف بن عبد المؤمن فهو مأمون هذه الدّولة»[1] هذا فضلا عن مشاركاته القيّمة في إثراء رصيد هذه العلوم واستظهار الكتب الخاصّة بها ومجالسة المتمكّنين فيها والتكلّم في مسائلها وإيراد الحجج فيما استصعب منها.

ونالت المرأة أيضا نصيبا من العلم على عهد الموحّدين، حيث أخذت بأسباب النّهوض وأسهمت إسهاماً فعّالاً في ضروب النّشاط الثّقافي والفكريّ؛ ومن أمثلة ذلك نذكر «السّيدة زينب ابنة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، فهي كانت عالمة فاضلة أخذت علم الكلام عن أبي عبد الله بن إبراهيم»[2] إلى جانب عدّة نساء أخريات لمعت أسماؤهنّ في سماء العلوم، وسجّلن تواجدهنّ في ساحة العلم والأدب والشّعر.

وكانت وفاة هذا الخليفة « يوم السبت قُبيل المغرب لسبع خلون من رجب الفرد سنة 580هـ، ونُقل جثمانه إلى تينملل حيث دُفن بجوار أبيه، وابن تومرت»[3] فبايع الموحدون بعده ولده يعقوب[4] المكنّى المنصور خليفة له في حكم دولة الموحّدين العظمى فأرسى قواعد الحكم القويمة كما ينبغي لها أن تكون، وظهرت على يديه أبّهة الملك برفع راية الجهاد وبسط العدل وفق ما يقتضيه الشّرع فاستقامت له الأحوال وعظمت الفتوحات «إلّا أنّه قد واجه صعوبات كثيرة عندما اندلعت ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين؛ حيث استولوا على بجاية وما حولها، فخرج لهم الخليفة بنفسه يقود جيشا جرّارا واستعاد ما أُخذ من البلاد، لتتوجّه أنظار الموحّدين من جديد نحو الأندلس لمقاتلة

---

[1]- النّبوغ المغربيّ في الأدب العربي، عبد الله كنّون، مكتبة التّراث المغربي الأندلسي، المغرب الأقصى، ط2، 1960م، ج1، ص 133.

[2]- المرجع نفسه، ص 144.

[3]- ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي، ص 191.

[4]- هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو، جميل الوجه، جهوري الصّوت، جزل الألفاظ، من أصدق النّاس لهجة وأحسنهم حديثاً، مجرّباً للأمور، بايعه الموحّدون بعد وفاة والده ولقّبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، للتّفصيل ينظر وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، تحقيق إحسان عبّاس، مج7، ص 03.

النّصارى واسترداد ما سلبوه من المدن وفعلا تمّ لهم ذلك وتُوِّجُوا بنصر عظيم»[1] وقد اقتدى هذا الخليفة بوالده يوسف بن عبد المؤمن، فاهتمّ هو أيضا بالعلم وأهله وعمل على تنشيط الحياة الثّقافية بدولته، وراح يجمع حوله العلماء وأهل الفكر فيجلسون في حضرته، ويتناظرون في مجلسه، ويتناقشون معه في مختلف الآراء، ومن أمثال هؤلاء العلماء نذكر «العالِم والفيلسوف أبو جعفر أحمد بن عتيق بن جرح الذّهبي البلنسي، فهو يُعدّ من أخصّ الجلساء وأرفعهم منزلة لدى الخليفة المنصور»[2] كما لا ننسى السّيد أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الذي كان من أفضل جلساء الخليفة لقدرته الفائقة على النّظم وحفظ الآداب، فكان من جملة ما قاله:

يَا كَعْبَةَ الجُـودِ التِي حَـجـَّـتْ لَهَا عَرَبُ الشَّــامِ وَغُـزُّهَـا وَالدَّيْلَـمُ
طُوبَى لِمَــنْ أَمْسَـى يَلُوذُ بِهَا غَداً وَيَطُـوفُ بِالبَيْـتِ العَتِيـقِ وَيُحْـرِمُ
وَمِـنَ العَجَــائِبِ أَنْ يَفُوزَ بِنَظْرَةٍ مَـنْ بِالشَّـــامِ وَمَـنْ بِمَكَّةَ يُحْرِمُ[3]

فقد نظم هذه الأبيات وهو يوما بمراكش تحت جفوة المنصور حيث وصل وفد من الشّام، طالبا فيها من الخليفة أن يسمح له بالقيام بشأنهم، فاستحسن مقصده وأظهر الرّضا عنه.

ونجد في الوقت نفسه أنّ يعقوب المنصور قد دعا إلى الأخذ بالكتاب والسّنة وأمر بإحراق كتب المذاهب ومحاربة علم الفروع، وتعويضها بالصّحاح العشرة وما اختاره من أحاديث الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) وكان من جملة الكتب المتْلَفَة «مدوّنة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التّهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها»[4] وفي مقابل هذا الفعل ركّز على علم الحديث وأمر العلماء المحدّثين بجمع الأحاديث وتبويبها كأحاديث

[1]- ينظر وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، تحقيق إحسان عبّاس، مج7، ص (3، 4، 5، 6، 7).

[2]- ينظر الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1990م، ص 36.

[3]- المصدر نفسه، ص (131، 132).

[4]- ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي، ص (202، 203).

الصّلاة والطّهارة، وأمر الخاصّة والعامّة بحفظها، فيبقى الاشتغال بالقرآن والحديث فقط دون سواهما، كما أسهم المنصور في ازدهار العلوم العقلية خاصّة الطبّ والحساب والفلسفة بالرّغم من أنّه في أحد الأزمنة قد قاطع الفلاسفة وأمر بإحراق كتبهم أيضا لكنّه عدَلَ عن رأيه وعفا عنهم.

ومن أعظم الأمثلة التي تشهد ليعقوب المنصور بحبّه للعلم والعلماء أنّه كان مولعا بالطبّ، ودقائقه فلازم الطّبيب أبا بكر بن زهر وجعله طبيبه الخاص وخصّه بالإقامة عنده، ولم يرخّص له في السّفر إلى أهله، فقال الطّبيب يوماً متشوّقاً إلى ولده الصّغير:

وَلِي وَاحِـــدٌ مِثْلُ فَـرْخِ القَــطَا ... صَـــغِيرٌ تَخَلَّفْـتُ قَـلْبِي لَدَيْـــهِ

وَأُفْــــرِدْتُ عَنْــهُ فَـيَا وَحْشَــتِي ... لِذَاكَ الشُّخَيْـصِ وَذَاكَ الوُجَـــيْهِ

تَـــشَــوَّقَنِـــي وَتَــشَـوَّقْتُــــهُ ... فَيَبْـــكِي عَـلَيَّ وَأَبْـكِي عَلَـــيْهِ

وَقَـدْ تَعِــبَ الشَّـــوْقُ مَـا بَيْنَنَا ... فَمِنْــــــهُ إِلَيَّ وَمِنِّـــي إِلَيْـــــــهِ[1]

وهنا سنلاحظ عظمة هذا الخليفة ورقّة إحساسه لسماع هذه الأبيات، فما كان منه إلّا « أن أمر المهندسين بالاحتياط لأمر بيوت هذا الطّبيب وفُرشه وآلاته ليبنوا له مثلها في حضرة الخليفة بمرّاكش، ثمّ أمر أيضا بنقل عيال ابن زهر وأولاده لتلك الدّار واحتال عليه دخولها فإذا بابنه الذي تشوّقه فحصل له من السّرور ما لا يقدر أن يعبّر عنه»[2] وكلّ هذا الفعل يدلّ على رفض الخليفة فراقَ عالِمٍ جليل لديه، وإكرامه بما استطاع إلى ذلك سبيلا ولمّ شمل العائلة بعد الفراق الطّويل، فهل سمعنا في العصور المتأخّرة مثل هذا الفعل؟ وهل نبجّل علماء الأمّة مثل هذا التّبجيل؟

---

[1]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج1، ص 135.

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص 135.

ثمّ بعد وفاة هذا الخليفة سنة 595هـ[1]خلفه ابنه أبو عبد الله محمد بن يعقوب المنصور[2] على دولة الموحّدين فلقّبوه بالنّاصر، وقد واجه في بداية حكمه ثورة ابن غانية بكلّ حزم وتمكّن من إخمادها « إلّا أنّ طموحه الزّائد واعتزازه برأيه جرّ عليه مصائب جمّة، فلم يسمع لنصائح مستشاريه وقرّر العبور للأندلس فراح يجمع الجيوش لإنقاذها دون تنظيم مُحكم وخطّة مضبوطة مدروسة فمُنِيَ بهزيمة مريعة في معركة سُمّيت العقاب وهو ما عجّل بسقوط الأندلس»[3] وبتدهور هذه الظّروف السياسيّة لدولة الموحّدين ظلّ الخليفة النّاصر عاكفا على معالجة الشّؤون الإدارية وتنظيم الولايات، وهو ما شغله، وشغل أبناءه من بعده عن المشاركة الفعّالة والقويّة في تنشيط الحياة الثقافيّة والفكريّة، حيث خلفه بعد وفاته سنة 610هـ ابنه أبو يعقوب يوسف الملقّب بالمستنصر؛ وفي هذا العهد بالضّبط بدأ الضّعف يدبّ في أنحاء الدّولة الموحّدية إضافة إلى تناحر أفراد البيت على الخلافة، فبمجرّد وفاة المستنصر سنة 620هـ «بايع الموحّدون عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، ثمّ تـمّ خلعه سنة 621هـ، ليعقبه عبد الله العادل بن يعقوب المنصور الذي توفّي سنة 624هـ، ثمّ تنازع اثنان من أسرة عبد المؤمن على العرش أحدهما أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور المسمّى المأمون، ولكنّ أشياخ الموحّدين لم يرتضوه وبايعوا ابن أخيه يحي بن محمد النّاصر»[4] وهكذا خلقوا تناحراً في الدّولة بين خليفتين يتصارعان على الحكم، وهو ما مهّد السّبيل لاستقلال إفريقية، وكذلك الأمر بالنّسبة لبني عبد الواد وبني مرين عبر جبهات مختلفة.

---

[1]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي، ص 225.

[2]- هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، كان أبيضاً، حسن القامة، كثير الإطراق، شديد الصّمت، بعيد الغور، كان بلسانه حليماً شجاعاً عفيفاً عن الدّماء، قليل الخوض فيما لا يعنيه جداً، للتّفصيل ينظر المصدر نفسه، ص 226.

[3]- ينظر الجزائر في التّاريخ، عثمان سعدي، ص (316، 317).

[4]- ينظر دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، عبد الواحد ذنّون طه، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م، ص 221.

وعندما انتصر عبد الواحد بن أبي حفص[1] على يحي بن غانية نجد أنّ شأنه قد علا لدى الخليفة النّاصر في أيّامه فعيّنه واليا على إفريقية ومنحه حرّية التّصرف في إدارتها، مقابل شروط اشترطها عليه فوفّى له بها في حين عاد هو إلى مراكش « ومن هنا ورث الملوك الحفصيّون سلطنة تونس وإفريقية وتمّ ذلك رسميا على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي[2] سنة 626هـ، فخلعوا الولاء للدّولة الموحّدية»[3] وسارع الحكّام الحفصيّون في بناء وتشييد الدّولة الحفصيّة وتوسيع دائرة نفوذها حيث تمكّنوا من الاستيلاء على قسنطينة وبجاية وتلمسان، بل وقد بايعهم أهل المغرب الأقصى والأندلس أيضا.

وقد استفادت بجاية ضمن الحكم الحفصيّ من عناية حكّامها بالحركة الفكريّة والثقافيّة اقتداءً بمن سبقهم من موحّدين وحمّاديين، فنفقت سوق العلم وبرز العلماء والأدباء، وألّفوا المصنّفات العديدة مع تزايد الهجرة الأندلسيّة إلى المغرب الأوسط، وشدّة تأثيرها على الحياة الثقافيّة بهذه الحاضرة ويكفيها فخرا أن نطّلع على كتاب عنوان الدّراية للغبريني فنعلم مدى ازدهار المدينة وتطوّرها وما وصلت إليه من تحضّر ومدنيّة، وما زخرت به من أهل العلم بمشاركاتهم النيّرة في رفد العلوم والآداب والفنون.

وبالرّغم من كثرة انشغال السّلطان أبي زكرياء الحفصي ببناء الدّولة وتوطيد أركانها فإنّه لم يبخل على إعلاء شأن العلم والمعرفة فهو نفسه «كان ملكاً جزلاً، سعيداً حليماً، فاضلاً مدركاً، عالماً

---

[1]- هو المولى أبو محمد عبد الواحد بن الشّيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، من قبيلة هنتاتة التي سبقت للتّمهيد لدولة المهدي وعبد المؤمن بعده، وكان الشّيخ أبو محمد ملكاً عالماً، فاضلاً خيّراً، شجاعاً محسناً، ذكياً فطناً، توفّي سنة 618هـ، للتفصيل أكثر ينظر الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة لأبي العبّاس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب ابن القنفد القسنطيني، تحقيق عبد المجيد التركي ومحمد الشاذلي النيفر، الدّار التونسيّة للنّشر، تونس، دط، 1968م، ص 105.

[2]- هو المولى أبو زكريا يحي بن المولى أبي محمد عبد الواحد بن الشّيخ أبي حفص عمر، كان فقيهاً أديباً شاعراً، قرأ على الشّيخ الرّعيني وختم كتاب المستصفى للغزالي، وناظر في النّحو ابن عصفور وابن الحاج، له وصيّة بليغة وله قصيدة في مدح خير الأنام، للتّفصيل أكثر ينظر الأدلّة البيّنة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة، أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشّماع، تحقيق الطّاهر بن محمد المعموري، الدّار العربية للكتاب، تونس، دط، 1984م، ص (54، 55).

[3]- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحّدين في الشّمال الإفريقي، علي محمد الصّلابي، ص 508.

مجيداً، شاعراً محسناً، فصيحاً كاتباً، صليب الرأي... وكان معدودا من العلماء وفي الشّعراء وله شعر مدوّن، وكان مع هذا كلّه حسن العهد، وفيّا للقديم من المعرفة، بلّغ رجالاً من أهل معرفته آمالاً عظيمة، وأكسبهم أموالا جمّة، وولّاهم الخطط الرّفيعة»[1] فأبو زكريا لكثرة ولعه بالعلم سار على خُطى الموحّدين فجمع حوله العلماء وأكرمهم بل ونافسهم بفضل ما عُرف عنه من حسن النّظم وجودة الكتابة، وكلّ ذلك لتشجيع الرّعية صغارا وكبارا على طلب العلم، حيث كان يحثّ المعلّمين والطّلبة على ارتياد المدارس خاصّة المدرسة المعرضيّة، فقد «وزّع على جميع الحاضرين قرطاسين بذهب وفضّة، وأجرى على المدرّس رزقا كثيرا قدره عشرة دنانير في الشّهر، وكان يحضر مجلس الوعظ يوم الاثنين والجمعة، ويُطلَق العنبر والعود ما دام المجلس، وجعل بين دار سكناه وبين المدرسة طاقة [كوّة] يسمع منها ما يُقرأ»[2] فمن خلال هذه الفقرة يمكننا أن نلمس مدى اهتمام هذا السّلطان بالطّلبة والمدرّسين لدرجة الإشراف بنفسه على عمل تلك المجالس والدّروس.

لقد كانت أيّام هذا السّلطان من خيرة الأيّام وأكثرها سعادة وأبرزها شهرة من حيث العلم والثّقافة «وفي ليلة الجمعة الثّانية والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة توفّي المولى أبو زكريا يحي في محلَّتِه بظاهر بونة، ودُفن في الغد في جامع بونة»[3] وتولّى بعده شؤون الحكم وليّ عهده أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء[4] المعروف بالمستنصر بالله سنة 647هـ، وكان قوياً مثل والده

[1]- السّلطنة الحفصيّة تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، 1986م، ص 159 / نقلا عن الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة، لأبي العبّاس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب ابن القنفد القسنطيني، ص 112.

[2]- تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي، روبار برنشفيك ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ج2، ص 377.

[3]- تاريخ الدّولتين الموحّدية والحفصيّة، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس،ط2، 1966م، ص 32.

[4]- هو المولى أبو عبد الله محمد ابن المولى أبي زكريا ابن المولى عبد الله أبو محمد عبد الواحد بويع ليلة وفاة والده سنة سبع وأربعين وستمائة، وسنّه آنذاك اثنين وعشرين سنة، كانت أيّامه أعزّ أيّام الدّولة، وأبرزها رفقا بالرّعية وأكثرها اهتماماً بالعلماء والشّعراء، للتّفصيل أكثر ينظر الأدلّة البيّنة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة، أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن الشّماع، تحقيق الطّاهر بن محمد المعموري، ص (58، 59، 67).

حيث تمكّن من إخماد الفتن ومواجهة الأعداء، فاتّسع ملكه وازدهرت الحضارة والعمران في أيّامه حيث «بنى هذا الأمير وولده قصورا ومساجد وزوايا ومكتبات وقناطر، ونَعُم بلاطهما بالشّعراء والعلماء من سائر أنحاء العالم الإسلاميّ وبخاصّة من الأندلس، وأُبرمت معاهدات مع حكّام أوربا بسبب العلاقات الطيّبة مع المسيحيّين...»[1] وكُتب التّاريخ والتّراجم تشهد للمستنصر بتلك الإنجازات القيّمة التي قام بها في أثناء فترة حكمه بمساعدة والدته[2] فضلا عن رغبته في تشجيع الحركة العلميّة لاسيما في بلاطه عن طريق جلب العلماء وأهل الفكر إليه من كلّ حدب وصوب، فكانوا يقصدون تونس وبجاية فيستقبلهم المستنصر ويكرمهم وغالبا ما يقلّدهم مناصب مهمّة في الدّولة، من هؤلاء نذكر الشّيخ الفقيه الحكيم الحاذق الفاضل أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن اندراس الذي ورد بجاية «وكان طبيبا باحثا جيّدا، تبسّط لإقراء الطبّ والعربيّة، رحل إلى حاضرة إفريقية باستدعاء أمير المؤمنين المستنصر له بعد أن سمع به وعرف خبره، فجعله في سلك أطبّائه وكان من جملة جلسائه»[3] كما كان لأبي بكر محمد بن سيد النّاس اليعمري الاشبيلي حظّ من هذا الاهتمام والتّبجيل فقد «كان فقيهاً محدّثاً لغوياً مؤرّخاً، راويةً حافظاً للحديث وإماماً في القراءات، وُلّي في زمانه صلاة الفريضة والخطبة بالمسجد الجامع ببجاية، وأقرأ بها فانتفع به طلبة كثيرون، كما كان يكتب وينظم، فقد حفظ عشرة آلاف حديث بأسانيدها»[4] فلمّا سمع به المستنصر بالله استدعاه إلى بلاطه وضمّه إلى مجلسه وأزجل له العطاء وجعله من أخصّ الحاضرين بين يديه، بل لقد تعدّى الأمر إلى غير ذلك فكثيرا ما كان الأمراء يستعينون بأهل العلم على تدبير شؤون

---

[1]- الجزائر في التّاريخ، عثمان سعدي، ص 326.

[2]- والدة المستنصر بالله اسمها "عطف" وهي التي أمرت ببناء جامع التّوفيق والمدرسة التّوفيقية، للتّفصيل أكثر ينظر المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بأبي دينار، تحقيق محمد شمّام، المكتبة العتيقة، تونس، ط3، 1967م، ص (134، 135).

[3]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (75، 76).

[4]- ينظر الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج، محمد الطمّار، ص 189.

حكمهم لحسن مشورتهم وسداد رأيهم، فخصّوهم بعناية فائقة في حياتهم ثمّ بعد وفاتهم، حيث حضروا جنازاتهم وجهّزوها احتراماً لهم وتقديراً لصنيعهم.

وتوفّي المستنصر بالله «في الحادي عشر من ذي الحجّة سنة خمس وسبعين وستمائة، وعمره خمسون سنة فكانت خلافته ثمانية وعشرين عاما وخمسة أشهر وأحد عشر يوما»[1] ليتولّى الحكم بعده ولده أبو زكريا يحي بن أبي عبد الله المستنصر[2] الملقّب بالواثق، فقام بعدّة أعمال جليلة «كإرجاع الأراضي التي تمّ نهبها إلى أصحابها وإلغاء الغرامات والضّرائب، وتوزيع الأموال على الجنود وترميم أماكن هامّة كالمساجد لاسيما جامع الزّيتونة»[3] لكن لم تُعرف عنه أيّة أعمال تخصّ الجانب الفكريّ أو العلميّ في ربوع الدّولة وذلك نظرا للظّروف المضطربة التي عاشتها فترة حكمه، ممّا دفعه إلى التّنازل عن الحكم لفائدة عمّه أبي إسحاق إبراهيم[4] ومبايعته له؛ هذا الخليفة وفد إلى بجاية فدخلها سنة 677هـ، ليتوجّه إلى الحاضرة تونس فبايعه أهلها سنة 678هـ، إلّا أنّ فترة حكمه لم تَطُلْ نظرا لتلك الأحوال السياسيّة المتضاربة، فخلفه المولى أبي حفص عمر سنة 683هـ، ثمّ من بعده خلافة المولى أبي عبد الله محمد بن أبي عصيدة سنة 694هـ، حيث عاصر هؤلاء الأمراء فترة الضّعف والانحسار داخل ربوع الدّولة الحفصيّة فطفقوا يتنازعون على الحكم وأهملوا كلّ ما يمتّ للعلم بِصِلَة ما عدا تلك الأعمال الجليلة التي قام بها الحكّام الأوائل في الدّولة.

---

[1]- المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بأبي دينار، تحقيق محمد شمّام، ص 137.

[2]- هو المولى أبو زكريا يحي بن أبي عبد الله المستنصر، من مواليد سنة 647هـ، بُويع ليلة وفاة المستنصر وسنّه إذ ذاك ما بين سبع وعشرين وثمان وعشرين سنة، وهناك تلقّب بلقب الواثق بالله، استمال الجماهير بأعمال هامّة إلّا أنّ عصره عرف الكثير من الاضطرابات، للتّفصيل ينظر تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبار برنشفيك، ج1، ص 103.

[3]- ينظر السّلطنة الحفصيّة تاريخها السّياسي ودورها في المغرب الإسلامي، محمد العروسي المطوي، ص 231.

[4]- هو الأمير أبو إسحاق ابن الأمير أبي زكريا ابن الملك أبي محمد ابن الشّيخ أبي حفص، بايعه ابن أخيه الواثق بعدما تنازل له عن الحكم سنة 678هـ، وكان أبو إسحاق إبراهيم شجاعاً فيه غلظة وخفة وغيبة عن مجلسه في لهوه وأنسه، وكان لا ينظر في عواقب الأمور فشاع الفساد والضّعف في أيامه، للتّفصيل ينظر الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة، لأبي العبّاس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني، ص (137، 138، 139).

وخلاصة القول إنّ حاضرة بجاية عبر عصورها المتعاقبة قد استفادت من تلك العناية الفائقة من لدن حكّامها وأمرائها بالعلم والعلماء، ومحاولاتهم الدّائمة لتنشيط الحركة الثّقافية والفكريّة وبعثها في الحضر والبدو وبين الصّغير والكبير، والمرأة والرّجل على حدٍّ سواء، فنمت بينهم وبين هؤلاء العلماء علاقات طيّبة أسهمت في النّهوض بالحركة العلميّة ببجاية فوفد إليها علماء أجلّاء من كلّ حدب وصوب وهو ما سينعكس بالإيجاب على الحاضرة وعلى المغرب الإسلامي بعامّة.

ثانيا: المعاهد التّعليمية وحركة التّعليم ببجاية

حرص حكّام بجاية بتوالي عهودهم من حمّاديين وموحّدين وحفصيّين على تنشيط الحركة الثقافيّة والعلميّة بالحاضرة، وجعلوها من أولى اهتماماتهم، بل وعكفوا على بعثها وتوسيع نطاق انتشارها وسط الخاصّة والعامّة، إلّا أنّ هذا الجهد لن يُؤتي أُكُلَه إلّا بوجود وسائل تضمن لهم وصول المعرفة واستيعابها بالشّكل الصّحيح، فكانت هذه الوسائط متمثّلة في تلك المؤسّسات التّعليمية على اختلافها، ومقدار المعارف التي كانت تُلَقّن داخلها وفق مناهج متميّزة تهدف إلى نشر الدّين الإسلامي وتنوير العقول وتثقيف المجتمع البجائي بكلّ شرائحه.

أ. المعاهد التّعليمية:

شجّع حكّام بجاية تشييد المؤسّسات التّعليمية باختلاف أنواعها من مساجد وكتاتيب وزوايا ومدارس ومكتبات، ليكفلوا بواسطتها تعميم العلوم والمعارف لكلّ الأفراد، وبخاصّة العلوم الدّينية التي تعدّ أساس المعرفة، هذا إلى جانب عديدٍ من العلوم الأخرى المكمّلة لهذا التّحصيل.

- المساجد:

يعدّ المسجد من أهمّ المعاهد التّعليمية الإسلاميّة، والنّواة الأولى لكلّ المؤسّسات الدّينية الأخرى وذلك بفضل ما يؤدّيه من وظيفة « تنوير العقول وغرس للأخلاق الفاضلة في نفوس الأجيال النّاشئة، وترقية للفكر والثّقافة، وترسيخ للدّين الإسلاميّ ومبادئه ومُثله العليا»[1] فقد بُنِيَ أساسًا لإقامة الشّعائر الدّينية ثمّ لتلقين العلوم المتّصلة بها كتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم اللّغة العربيّة

[1]- المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، يحي بوعزيز، دار البصائر للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2009م، ص 05.

والإسلاميّة، قبل أن تتحوّل هذه المساجد إلى جامعات ومعاهد إسلاميّة فتتخرّج منها أجيال من المثقّفين والعلماء.

عرفت بجاية نهضة علميّة وفكريّة عظيمة منذ العهد الحمّادي والعهود اللّاحقة له فشُيّدت بها المساجد الجامعة والزّوايا والمدارس وبرع فيها الأدباء والعلماء، إلّا أنّ أقدم معهد تعليميّ بالحاضرة وأبرزه هو المسجد نظرا لدوره في تشجيع الحركة الثقافيّة، وقد احتوت بجاية على عدد هائل من المساجد[1] نذكر منها الجامع الأعظم الذي بناه الأمير الحمّادي المنصور بن النّاصر، وقد جاء في مخطوط البجاوي « أنّه أتمّ بناء قصر اللّؤلؤة في سنة 494هـ، وحوّله إلى مسجد مزيّن بنقوش رائعة الجمال، وفوق قبّته مكتبة فيها كتب وردت من البلدان البعيدة، وكتُب الأساتذة الذين يدرّسون في المسجد، وبجانبها غرف الأساتذة»[2] فأخذ طلّاب العلم والعلماء يتوافدون على هذا الجامع فيدرسون فيه مختلف العلوم ويتحصّلون على أرقى الإجازات.

كما لا ننسى مسجد الرّيحانة الذي قصده ابن تومرت عندما دخل بجاية سنة 511هـ « وبه شرع يُلقي دروسا في الفقه والتّوحيد، واجتمع حوله عديد العلماء من بينهم القاضي عبد الرّحمن بن الحاج الصّنهاجي»[3] هذا إلى جانب عدّة مساجد أخرى ذكرها الغبريني في كتابه «كمسجد أبي زكريا يحيي بن أبي علي المشتهر بالزّواوي الذي كان له دور كبير في تشييد العديد منها، فلا توجد ناحية من النّواحي إلّا وله فيها مسجد ومَعْلَم، وكلّها معروف البَرَكة»[4] كما يضاف إلى هذه المساجد أيضا مسجد ملّالة وهو المسجد الذي نزل به ابن تومرت بعد خروجه من بجاية حيث يذكر البيذق أنّ أبناء العزيز لَمَّا رأوا ابن تومرت بملّالة قالوا له: «يا فقيه نريد أن نبني لك مسجدا هنا، فقال

[1]- تذكر المصادر التّاريخيّة أنّ بجاية قد احتوت على عدد كبير من المساجد بلغت زهاء اثنين وسبعين مسجداً، للتّفصيل ينظر حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، سليمان داود بن يوسف، ص 82.

[2]- ينظر الدّولة الحمّادية تاريخها ونشاطها، رشيد بورويبة، ص (208، 209).

[3]- شخصيّات ومواقف تاريخية، زهير إحدادن، ص (68، 69).

[4]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 127.

لهم (رضي الله عنه): إن شئتم، فبنو له مسجدا، وأقبل الطّلبة يصلون إليه من كلّ مكان»[1] فصار يُطلَق على المسجد اسم مسجد ملّالة، زاول فيه ابن تومرت تدريس طلبة العلم والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

هذا إضافة إلى عدّة مساجد كانت موجودة ببجاية أيضا كمسجد القصبة[2]، ومسجد المرجاني، ومسجد عين الجزيري أو كما يسمّى عين البربر، ومسجد النطّاعين[3]، ومسجد سيدي عبد الحق الاشبيلي[4] وظلّت هذه المساجد ببجاية تعجّ بالطّلبة والعلماء، وغالبا ما تُقام فيها المجالس العلميّة والمناظرات، والأهمّ من ذلك حضور تلك الدّروس العلميّة التي كان يقدّمها الشيوخ المدرّسون إمّا عن طريق الإملاء أو الحوار والمناقشات وفي شتّى العلوم خاصّة الدينيّة واللّغوية، هذا فضلا عن مجالس الوعظ والإرشاد بِمَا ينفع الدّين والدّنيا.

- الكتاتيب:

إنّ الكتّاب نوع من أنواع المعاهد التعليميّة الإسلاميّة بل وأقدمها، فاسمه مشتقّ من الكتابة، ونعني به تعليم الصّبيان الصّغار، فيكون الكتّاب عبارة عن «بيوت منفردة، وأحيانا مجمّعات بين البيوت مختلفة الأحجام والأشكال، وقد دعت الحاجة إلى تأسيسها من أجل تجنيب المساجد أوساخ الأطفال وضوضائهم، فيجد المصلّون جوّ الخشوع المطلوب»[5] فهذه الكتاتيب موجودة منذ القِدم وفي كلّ الحواضر يتزاحم حولها الأطفال باختلاف أجناسهم وأعمارهم فيتعلّمون «مبادئ القراءة والكتابة ثمّ حفظ القرآن الكريم، وقسطا يسيرا من علوم الدّين واللّغة»[6] فدأب الأولياء

---

[1]- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّى بالبيذق، ص 13.

[2]- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبار برنشفيك، ج1، ص 414.

[3]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (63، 174، 178).

[4]- المعالم الأثريّة الإسلاميّة ببجاية ونواحيها، عبد الكريم عزّوق، مذكّرة دكتوراه، إشراف د عبد العزيز لعرج، قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2008م، ص 35.

[5]- ينظر موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحي بوعزيز، ج1، ص 199.

[6]- عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، ص 96.

على إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب قصد التّعلم والتّأدب، وهو ما شجّع على نشر تعاليم الدّين الحنيف وفق أسسه القويمة.

وبجاية كغيرها من الحواضر[1] عرفت ظهور هذا النّوع من المؤسّسات الدّينية والتّعليمية إلّا أنّ نمطها العام ومنهجها التّدريسي كان مماثلا لكتاتيب المشرق الإسلاميّ، هدفَ البجائيون من تشييدها في كلّ قرية أو قبيلة إلى تربية الأجيال وتعليمهم؛ فاقتصروا في البداية على حفظ القرآن الكريم ومدارسته، ومع تزايد الهجرة الأندلسيّة ارتقت هذه الطّريقة وتمّ مزج سائر العلوم الأخرى لهذه العملية، وهذا ما يؤكّده مفتاح خلفات بقوله:« وتتلخّص هذه الطّريقة في المزج بين القرآن الكريم والحديث ومدارس قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلّا أنّ عنايتهم بالقرآن واستظهاره والوقوف على مختلف رواياته وقراءته كان أشدّ، لذا فإنّ طريقتهم أقرب إلى طريقة أهل الأندلس في تعليم الولدان بالكتّاب»[2] وهو ما جعل طلبة بجاية يُلِمُّون بكتاب الله عزّ وجلّ وكلّ ما يتّصل به من علوم شرعيّة ولسانيّة تكفل لهم التّحصيل الصّحيح، مع مقدار من العلوم الأخرى كالحساب وسائر العلوم العقليّة ممّا يؤهّلهم للتّعمق في الدّراسات القادمة «فينتقل الطّالب إلى المرحلة الثّانية أو الأعلى، حيث كان يتلقّى العلم في إحدى دُور العلم الأخرى وهي المسجد والزّاوية والمدرسة»[3] وكأنّ الكتّاب يعدّ همزة وصل بين الصّبي والمسجد أو سائر المعاهد الأخرى سواءً أكان من العّامة أو الخاصّة.

أمّا عن المؤدِّب أو الشّيخ، فقد كان يتمتّع باحترام وتقدير كبيرين من الصّبيان وأوليائهم وسائر أفراد المجتمع نظراً للدّور الهامّ الذي يؤدّيه، ومن أمثال المؤدِّبين ببجاية وأبرزهم ابن تومرت[4]

---

[1]- من بين الحواضر التي عرفت الظّهور المبكّر للكتاتيب إفريقيّة أو المغرب الأدنى، وقد انقسمت إلى كتاتيب خاصّة تنتصب في قصور الأمراء والوزراء وعلّية القوم، وكتاتيب عامّة تنتشر في الزّوايا وأركان المدينة، للتّفصيل أكثر ينظر الحياة العلميّة في إفريقيّة، يوسف بن أحمد حوالة، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، ط1، 2000م، ج1، ص228.

[2]- قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6هـ-9هـ/12م-15م) دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، دار الأمل للنّشر، الجزائر، دط، 2011م، ص (163، 164).

[3]- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبار برنشفيك، ج2، ص 376.

[4]- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّى بالبيذق، ص (13، 14).

الذي جلس بها يعلّم الصّبيان، وقد سار على خطاه تلميذه ورفيقه عبد المؤمن بن علي حيث «عمّم التّعليم بالكتاتيب والرّباطات التي كانت تعتبر من المعاهد العلميّة والحربيّة الهامّة، فكان أوّل من فرض على شعبهِ إجباريّة التّعليم ومجانيّته في المغرب الإسلاميّ»[1] وهو ما أعلا من شأن الكتاتيب ودُور العلم وأسهم في نشرها في كلّ مكان من بجاية فكثُر المدرّسون بها، وازدادت مناهجها التّعليمية في التحسّن والتّطور إلى حدٍّ تأليف مصنّفات تربويّة تشرح مهمّة المدرِّس وبرامجه وقد صارت متداولة هنا وهناك.

-الزّوايا:

تعدّ الزّاوية من أهمّ المؤسّسات الدينيّة والتعليميّة فهي عبارة عن «مجمّعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام، تشتمل على بيوت للصّلاة كمساجد، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الإسلاميّة، وأخرى لسكنى الطّلبة وسائر المتطلّبات التي تُستغَل في أعمال الزّاوية»[2] فهي بناء يحمل طابعاً دينياً وثقافياً يمكن بفضله القيام بمختلف الشّعائر الدينيّة من عبادات وتعليم للمقيمين بالمنطقة، وكذا الوافدين عليها من ضيوف مسافرين كالطّلبة والعلماء.

ظهرت الزّاوية في إفريقية مع نهاية القرن السّادس الهجري لأنّها في الأصل متولّدة عن الرّباط «فهو لها بمثابة الأم، وقد ازدادت انفصالاً عنه منذ عصر الموحّدين، كما أنّها تمثّل إحدى شعبه المتعدّدة وهي شعبة التّعليم حيث كان الطّالب يسكن على نفقتها ويأكل ويشرب ويلبس ويتعلّم، ثمّ يتحوّل في الغالب إلى مدرِّس بها أو بغيرها من الزّوايا»[3] فالملاحظ هنا أنّ الزّاوية قد اضطلعت بالمهمّة نفسها التي كان يؤدّيها الرّباط قديما إلّا أنّها امتازت بتقديم مساعدات إضافية للمُريدين بها كالإيواء والإطعام.

1- ينظر المغرب الأوسط في عهد الموحّدين دراسة تحليليّة للأوضاع الثقافيّة والفكريّة، علي عشّي، مذكّرة ماجستير، إشراف د مسعود مزوهري، قسم التّاريخ وعلم الآثار، جامعة باتنة، 2012م، ص 106.

2- ينظر المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، يحي بوعزيز، ص 15.

3- ينظر التّربية الإسلاميّة في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، دط، 1987م، ص 40.

عرفت بجاية كغيرها من حواضر المغرب الإسلامي انتشار هذه الزّوايا عبر إقليمها، وقد أدّت دوراً فعّالا في تحفيظ القرآن ونشره، والحفاظ على اللّغة العربيّة وتلقين سائر أشكال المعرفة، كما كانت بمثابة خزائن للكتب والمصنّفات النّادرة كالمخطوطات في شتّى أنواع العلوم والآداب[1] وذلك بفضل العناية الفائقة من لَدُنِ شيوخ الزّوايا بالتّأليف والنّسخ، وجلب المؤلّفات والتّنقيب عليها في مختلف الأماكن لإثراء حركة التّعليم.

ومن خلال استقرائنا لكتاب عنوان الدّراية نجد أنّ الزّوايا كانت منتشرة ببجاية منذ أوائل القرن السّابع الهجري وتمثّلت في زاوية أبي زكريا يحي الزواوي حيث يذكر الغبريني في ترجمة حياة هذا الأخير: «... ثمّ دخل أبو زكريا زاويته دون أن يختم مجلسه بالدّعاء المعهود منه»[2] فنستشفّ من هذا القول إنّ زاوية الزّواوي كانت موجودة آنذاك ببجاية وهي عبارة عن مكان صغير بجانب المسجد كان الشّيخ يخلو فيه بنفسه ليتعبّد، كما نجد أيضا زاوية أبي الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي، ودليل وجودها قول الغبريني في موضع آخر «... وذكر معاوية الزّواوي وهو من خدّامه قال: جئت يوماً لأراه، فلمّا وقفت عند باب الزّاوية أصابتني هيبة، وسمعت كلاما بداخلها ومذاكرة...»[3] ويبدو أنّ الزّاوية في تلك الفترة كانت عبارة عن مكان متواضع يتّخذه الشّيوخ للتّعبد واستقبال الوافدين عليهم وقضاء حاجاتهم والإجابة عن تساؤلاتهم فأسهمت زوايا بجاية في توسيع دائرة التّعليم وتعميمه داخل المجتمع، هذا فضلاً عن حفاظها على مقوّمات الفكر الصّوفي، فتخرّج منها مثقّفون وعلماء أجلّاء نافسوا أقرانهم في سائر الحواضر، وساعدوا على دفع مستوى الحضارة الإسلاميّة إلى أرقى المستويات.

---

[1]- جمعت الزّاوية بين الوظيفة التعليميّة التربويّة والوظيفة الدينيّة، فضلاً عن دورها البارز في تمتين روابط الأخوّة بين أفراد المجتمع، والعمل على تثقيفهم وتوحيد كلمتهم وفق ما يمليه الدّين الحنيف، للتّفصيل ينظر قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6هـ-9هـ/12م-15م) دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، ص178.

[2]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 129.

[3]- المصدر نفسه، ص 176.

- المدارس:

تعدّ المدارس من أهمّ المؤسّسات التعليميّة والتثقيفيّة وأشهرها في البلاد الإسلاميّة، بدأ ظهورها بالمشرق الإسلاميّ ثمّ انتشرت عبر سائر الحواضر المغربيّة بحلول القرن السّابع الهجري « لغرض تلقين مختلف العلوم الدينيّة وغير الدينيّة وبخاصّة بعدما اتّسعت رقعة الدّولة الإسلاميّة واتّصلت بحضارات أخرى واحتكّت بها، ودعت الحاجة إلى اقتباس علومها ومعارفها قصد الاستفادة منها»[1] فالمسجد وسائر الكتاتيب والزّوايا المحيطة به كانت تقوم بمهمّة تدريس الطّلبة إلّا أنّها لم تعد قادرة على القيام بهذا الدّور لوحدها، وهو ما دفع بالمسلمين لإنشاء هذه المدارس فيكون التّعليم ممنهجاً ومنظّماً ممّا كان عليه سابقاً.

أمّا عن مدارس بجاية فنجد أنّ النّصوص التّاريخية قد أغفلت ذكرها أو ذكر المدرِّسين بها، سوى ما تأسّس منها زمن الحفصيّين بتونس ووصل إلى بجاية، حيث أسهم السّلاطين الحفصيّون في تشييد المدارس بالحواضر الكبرى للمملكة، لذلك فإنّ طلبة العلم بضواحي بجاية «كانوا يتلقَّون علومهم الأولى بالكتاتيب والزّوايا والمساجد، حتّى إذا أرادوا مواصلة الدّراسة فإنّهم يتحوّلون إلى مدينة بجاية ويتخصّصون في علم معيّن»[2] وكان ذلك يتمّ في ظروف متواضعة فيحصل الطّالب على فرصة التّعليم بالمدرسة إضافة إلى مكان للرّاحة والسّكن، فضلا عن تلك المساعدات والإعانات الماليّة التي كانت تقدّم لهؤلاء الطّلبة المعوزّين لحثّهم على الاجتهاد.

ومن الميزات الأساس لهذه المدارس «إشراف الحكّام عليها وتقديم المساعدات الماليّة والتّسهيلات للمدرِّسين بها، كما أنّ رواتبهم هي الأخرى كانت مغرية قصد تشجيعهم على مداومة العمل على أكمل وجه»[3] وهو يدلّ على ارتفاع مستوى الحركة العلميّة والفكريّة بالحاضرة، والسّعي الحثيث من لَدُنِ سلاطينها على تعميم التّعليم في الحواضر والبوادي على حدٍّ سواء.

---

[1]- ينظر موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحي بوعزيز، ج1، ص 198.

[2]- ينظر تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبار برنشفيك، ج2، ص 376.

[3]- ينظر المرجع نفسه، ص 377.

وعندما كثُرت المدارس وباشرت أعمالها سارت وفود الطّلاب نحوها فكان لزاما على المدرّسين تنويع المعارف التي يُلقّنونها لهؤلاء فتراوحت بين ثلاثة أصناف «العلوم الدينيّة مثل تحفيظ القرآن وتفسيره، وشرح الحديث وتعليم الفقه والتّوحيد والمنطق والأصول، وعلوم اللّغة والأدب كالنّحو والصّرف والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء، باعتبارها أداة ووسيلة لإتقان العلوم الدينيّة، والعلوم الطبيعيّة والتجريبيّة كالفلك والحساب والطبّ والصّيدلة وغيرها»[1] فطالب العلم بالمدرسة ينال كفايته من العلوم الدينيّة الواجبة لحياته، ويُتْبِعها بالعلوم اللّسانية والأدبيّة التي تساعده على تحصيلها وفق قواعد اللّغة العربيّة القويمة، كما لا ينسى نصيبه من العلوم العقليّة المكمّلة لسائر العلوم والمساعدة له في أعماله اليوميّة.

- المكتبات:

أُنيطت المكتبات بأهمّية بالغة في حياة الأمم فهي تمثّل الدّعامة الأساسيّة التي تُبْنَى عليها صروح العلم والثّقافة والحضارة، كما تعدّ من «الينابيع الفيّاضة التي تغذّي تقدّم الأمم العلميّ والحضاريّ بماء الحياة والبقاء، ويقاس رقِيّ أمّة من الأمم أو تأخّرها بكثرة المكتبات وما تلقاه من عناية ورعاية، أو ندرتها وإهمالها واعتبارها شيئا ذا أهمّية ثانوية»[2] فالمكتبات باعتبارها أحد المؤسّسات الثقافيّة تعدّ الحامل الأساسي لأمّهات الكتب والمصنّفات النّفيسة وتحوي بين طيّاتها أنواع الكتب في شتّى الآداب والعلوم والفنون.

وكثيرا ما يرتبط وجود المكتبات بغيرها من المعاهد الثقافيّة والتعليميّة حيث تكون مُلحقة بها ولذلك «زادت العناية بالمكتبات التي احتوت على المخطوطات وعلوم العصر من نقليّة وعقليّة، وغيرها من العلوم المتنوّعة، وامتلأت خزائن المساجد والأربطة والمدارس والزّوايا والقصور بالكتب والتّآليف وازدهرت حركة الاستنساخ وتجليد الكتب»[3] وذلك قصد اطّلاع طلبة العلم

1- ينظر موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحي بوعزيز، ج1، ص 198.

2- المكتبات في الإسلام نشأتها وتطوّرها ومصائرها، محمد ماهر حمادة، مؤسّسة الرّسالة للنّشر، بيروت، ط2، 1978م، ص 7.

3- مدينة بجاية النّاصرية دراسة في الحياة الاجتماعيّة والفكريّة، محمد الشّريف سيدي موسى، دار كرم الله للنّشر، الجزائر، دط، 2011م، ص 121.

على تلك الكتب بكلّ سهولة وعقد المجالس العلميّة حول ما جادت به من مسائل تستحقّ المحاورة والمناقشة والتّحليل، هذا فضلا عن تلك المكتبات العامّة المخصّصة لسائر الطّلبة أو المكتبات الخاصّة التي يقيمها العلماء ببيوتهم وتضمّ مختلف الكتب.

وبما أنّ بجاية احتوت على العديد من المؤسّسات التعليميّة فقد عرفت وجود المكتبات بها بخاصّة بعدما تحوّلت عاصمة الحمّاديين من القلعة إلى بجاية فورثتها حضاريا وعلميا، وكذلك الحال بالنّسبة للموحّدين الذين عُرِفوا بحبّهم الكبير للعلم وأهله، فنجد أنّهم شيّدوا الكثير من المكتبات وجلبوا إليها الكتب والمخطوطات من كلّ حدب وصوب وهو ما يؤكّده المراكشي في حديثه عن أحد الكتب المهمّة والنّفيسة لدى مكتبات الموحّدين فيقول:«فجاء الكتاب لا نظير له في فنّه، رأيته في خزانة بني عبد المؤمن»[1] فقد عُرِف عن جُلّ خلفاء الموحّدين حرصهم على جلب نفائس المصنّفات في مختلف العلوم بأثمان خياليّة خشية ضياعها وتشجيعا لوضعها في متناول الطّلبة والعلماء فتتعمّم فوائدها وتُجنى ثمارها[2].

وبحلول القرن السّابع الهجري، فإنّ السّلاطين الحفصيّين هم أيضا قد كان لهم نصيب من تأسيس المكتبات والاعتناء بذخائرها مثلما «فعل الأمير الحفصي أبي زكريا بن إسحاق الذي استطاع أن يجمع ستّة وثلاثين ألف سِفْرٍ من الكتب، ثمّ يتركها كوقف بعده للاطّلاع عليها والاستفادة من علومها»[3] كما لا ننسى تلك المكتبات التي كانت قائمة هنا وهناك خاصّة ببجاية وتونس، أمّا عن كيفية عملها فإنّ «الطّريقة تشبه ما هي عليه مكتباتنا اليوم من حيث حفظ

---

[1]- الكتاب هو قراضة الذّهب في ذكر لئام العرب لمالك بن وهيب، ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، ص 140.

[2]- اهتمّ الموحّدون باقتناء الكتب حتّى صاروا مضرب الأمثال في تملّكها، فقد بلغ بهم الاعتناء بها إلى حدّ أنّهم كانوا ينتزعون ملكيّة المكاتب ممّن يُخشى ضياعها لديه لأجل صيانتها في مكتباتهم، ويُعوّضون أصحابها عنها التعويضات السنيّة، للتّفصيل ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، مطبوعات دار المغرب للتّأليف والنّشر، الرّباط، ط2، 1977م، ص275.

[3]- ينظر الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة، أبي العبّاس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن القنفد القسنطيني، تحقيق عبد المجيد التركي ومحمد الشاذلي النيفر، ص 113.

الكتب وتنظيمها وجعل الأمناء على رأس مهمّات التّسيير وكذا تنظيم أوقات المطالعة والإعارة»[1] فتكون الكتب محفوظة من التّلف والضياع، وبها تكفل الدّولة انتشار العلوم والثّقافة بين الأفراد، وازدهار سوق العلم.

ب. حركة التّعليم:

يعدّ التّعليم من أهمّ الظّواهر الرّاقية في المجتمعات، لكونه المحرّك الأساس في دفع الحركة العلميّة والثقافيّة في حاضرة بجاية، فقد عرفت منذ القرن الخامس الهجري ازدهارا لحركة التّعليم بأنواعها بحكم كثرة المعاهد التّعليمية المنتشرة هنا وهناك.

-التّربية والتّعليم:

نالت التّربية والتّعليم قسطا كبيرا من الاهتمام لدى العلماء والمربّين المسلمين، فقد رافقت الإسلام منذ ظهوره، وامتدت عبر مختلف الحضارات لتقوم بمهمّة تكوين الفرد المسلم وفق ما يقتضيه الشّرع، فقد جمعت في طيّاتها « بين تأديب النّفس وتصفية الرّوح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسم، فهي تُعنى بالتّربية الدينيّة والخلقيّة والعلميّة والجسميّة، دون تضحية بأيّ نوع منها على حساب الآخر»[2] فهي تسعى دائما لتشكيل شخصيّة متوازنة في نفوس الأفراد والجماعات وتلقينهم أهمّ المبادئ والأسس التي تكفل الازدهار والرّقي في شتّى مجالات الحياة، ومن هنا اهتمّ المسلمون بمسألة التّربية والتّعليم وعملوا على نشرها بين أفراد المجتمع.

وبما أنّ أرجاء بجاية عمُرت بعدّة مؤسّسات دينيّة وتعليميّة فإنّها هي أيضا قد شهدت اهتمام علمائها ومدرّسيها بحركة التّعليم والعمل على تطويرها، فكان من جملة ما قاموا به اقتناء تلك المؤلّفات الخاصّة بالتّربية والتّعليم، وكذا الرّسائل والشروح للتزوّد منها والاقتباس عنها بفضل ما وُجد فيها من أساليب ومناهج يتّخذها المعلّم في العملية التعليميّة، ومعرفة ما للمعلّم والمتعلّم من حقوق وما عليهما من واجبات والتزامات، فمن بين أهمّ هذه الكتب نجد كتاب آداب المعلّمين لابن

[1]- ينظر تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبار برنشفيك، ج2، ص 385.

[2]- التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف للنّشر، القاهرة، دط، 1968م، ص 9.

سحنون[1] فهو يعدّ من أوائل من ألَّف حول قضيّة التّعليم، وصاحِب السَّبق في البحث عن قواعد التّربية وآداب الصّبيان والمعلِّمين، ليَقتفي أثره من بعده الفقيه أبي الحسن علي القابسي[2] بكتابه الرّسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين، وهو من أفضل الكتب في مجال التّربية يعرض أدقّ المشاكل التّربوية وطرق معالجتها، هذا إلى جانب عدّة مصنّفات أخرى تجتمع تحت لواء إصلاح التّربية والتّعليم، إلّا أنّ هذين الكتابين كانا من أكثر المؤلّفات اطّلاعا من لَدُنِ المربّين البجائيين، حيث تمكّنوا من خلالهما من تحقيق الكثير من الأهداف التّربوية التي تكفل الفائدة للمعلّم والمتعلّم على حدٍّ سواء فينبغي للمعلّم أن «يتفانى في تعليم تلاميذه فيحفظوا عنه كتاب الله وإعرابه وقراءته وكتابته، ولا يأخذ منهم ما فوق أجرته، بل يرعاهم ويُشجّع المجتهد منهم ولا يتمادى في معاقبة المخطئ ويقرّبهم لله عز وجل ويحثّهم على طلب العلم وضرورة الالتزام بأداء الشّعائر الدينيّة»[3] وهي كلّها قضايا تمتّن الرّوابط بين الصّبي وخالقه ثمّ مدرّسه في إطار تعليمي ممنهج ومضبوط يستوفي كلّ شروطه من الكتاب والسنّة، هذا فضلا عن ما يتعلّق بالصّبيان والنّظام التّربوي المعدِّ لتعليمهم فينبغي لهم أن «يقتدوا بالنّبي (صلّى الله عليه وسلّم) في الأفعال والأقوال، وأن يُدركوا فضائل القرآن

---

[1]- هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد سحنون واسمه عبد السّلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد بالقيروان سنة 202هـ، وهناك نال حظاً من القرآن والعلوم الضروريّة قبل أن يرحل إلى المشرق للحجّ وطلب العلم، وقد سار على خطى والده فتصدّر للتّدريس والتّأليف وله مصنّفات كثيرة، للتّفصيل أكثر ينظر الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن نور الدّين المعروف بابن فرحون المالكي، تحقيق مأمون بن محيي الدّين الجنّان، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص 263 وما بعدها.

[2]- هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بالقابسي، الفقيه القيرواني ولد سنة 324هـ بالقيروان وبها تعلّم، ارتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ وهناك أُتيحت له الفرصة للقاء العديد من الشّيوخ والفقهاء الأجلّاء، كما جلس للتّدريس فتخرّج على يديه تلاميذ كثر، فهو قد جمع بين العلم والعبادة والورع والزّهد، خلّف العديد من المصنّفات بخاصّة في مجال التّربية والتّعليم، للتّفصيل أكثر ينظر الرّسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين، أبي الحسن علي القابسي، تحقيق أحمد خالد، الشّركة الوطنيّة للتّوزيع، تونس، ط1، 1986م، ص 7 وما بعدها.

[3]- ينظر آداب المعلّمين، لابن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، الشّركة التّونسية للنّشر، تونس، ط2، 1972م، ص(75، 85).

فيَتَحلّوا بآداب حامله، وهنا يقع جانب كبير من المسؤولية على أولياء الأمور فهم من يجب أن يدعوا أبنائهم لتعلّم كتاب الله وحفظه ومدارسته، وهم أيضا من يأذنون لهم بتعلّم سائر العلوم اللّسانية والعقليّة الأخرى»[1] وهنا يتجلّى لنا ما يتوجّب على كلّ طرف من واجبات تّجاه الآخر وما يصلح للصّبي تعلّمه في هذه السنّ الصّغيرة، وتحديد الأجل اللّازم لهذا التّلقين بالوجه الصّحيح.

فهذه القضايا وغيرها تعدّ موضوعا مشتركا بين الكثير من المربّين لاشتمالها على طبيعة العلاقة بين الصّبي ومعلّمه، وطرق التّدريس المعتمدة وما يجب أن يتحلّى به كلٌّ منهما من آداب وسلوكيات، جادت بها مصنّفات هؤلاء العلماء والتربويّين وصارت نبراساً لمن جاء بعدهم.

-مراحل التّعليم ومناهجه:

امتاز التّعليم في بجاية بكونه كان منظّما، فالطّالب يلتحق أوّل الأمر بالمسجد أو الكتّاب أو الزّاوية ويتلقّى تعليمه بها، وهذه المرحلة تشبه ما يسمّى في أيّامنا بالتّعليم الابتدائي، فيتراوح عمره بين السنّ الخامسة إلى السّابعة[2] وكان هؤلاء الصّبيان «يتعلّمون القراءة والكتابة وتلاوة القرآن، وكانوا يكتبون الآيات القرآنيّة على الألواح، ويرتّلون القرآن بصوت واحد»[3] فالقرآن الكريم يعدّ من أهمّ الموادّ في المنهاج الدّراسي فمنه يتعلّم الصّبيان أصول دينهم وما يتبعه من علوم أخرى، كما يُلِمُّون بإعرابه وكتابته وترتيله واستظهاره، ولذلك نجد أنّ «ابن تومرت غداة تأسيسه للدّعوة الموحّدية اشترط ضرورة تعليم أبناء قومه القرآن أوّلا فهو ما يؤهّلهم لفهم رسالته؛ بخاصّة أنّهم كانوا جبَليّين وأُميّين وغير

1- ينظر الرّسالة المفصّلة لأحوال المعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين، أبي الحسن علي القابسي، تحقيق أحمد خالد، ص (18، 19، 20).

2- لم تقتصر العمليّة التعليميّة على الذّكور فقط بل كان للإناث نصيب منها، فالغالب أنهنّ كنّ يتعلّمن في المنازل وبيوتات العلماء والفقهاء وقصور الخلفاء أوعن مُؤدّبٍ يُدعى لهنّ، للتّفصيل ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، مؤسّسة كنوز الحكمة للنّشر، الجزائر، دط، 2011م، ص186.

3- الدّولة الصّنهاجية، الهادي روجي إدريس، نقله إلى العربيّة حمّادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ج2، ص 388.

مُلِمِّين باللّسان العربيّ»[1] فنفهم مِمَّا أوردناه أنّ أساس التّعليم ارتكز على وجوب تلقين القرآن الكريم لحاجة الأفراد الماسّة له في كلّ زمان ومكان.

ومن الطّبيعي أن يحاول المعلّمون تكوين الصّبيان تكوينا علمياً سليماً فنجدهم يُرفقون تعليم القرآن لهم بعلوم أخرى تليه في الدّرجة والأهميّة، فيتفرّع منهجهم في ذلك حسب ما حدّده ابن سحنون في مُؤَلّفه إلى فرعين أحدهما إجباري والأخر اختياري «فعن الإجباري يجب على المعلّم أن يعلّم صبيانه إعراب القرآن وذلك لازم له، والشّكل، والهجاء والخطّ الحسن، والقراءة الحسنة، والتوقيف والتّرتيل»[2] وذلك لأنّ الإلمام الصّحيح بالقرآن لا يتأتّى إلّا بمعرفة بعض العلوم اللّازمة له كالنّحو من أجل إعراب الكلمات، والعلم باللّغة العربيّة لمعرفة المعاني المقصودة من الآيات، وأمّا ما يتعلّق بالتّعليم الاختياري «فهو يتمثّل في الحساب وليس ذلك بلازم للصّبي إلّا أن يشترط ذلك عليه، وكذلك الشّعر ممّا لا يكون فيه فُحش من كلام العرب وأخبارها وليس ذلك بواجب عليه »[3] فبعض من هذه العلوم ليست واجبة لفهم العلوم الدينيّة وإنّما هي مساعدة للصّبي للتّوسع في طلب العلم، فيكون تلقينه إيّاها باتّفاق المعلّم مع وليّ أمر الطّالب، وهو ما يساعد على تعميق الفهم وتوسيع المدارك.

وبالحديث عن تعليم القرآن وسائر العلوم الأخرى، نجد أنّ حاضرة بجاية قد حذت حذو العديد من بلدان المغرب الإسلاميّ في الاقتصار على تعليم الصّبيان القرآن دون غيره؛ ولكن مع تزايد الهجرة الأندلسيّة إليها استُحدِثت طرائق جديدة مزجت بين تعليم القرآن ومختلف العلوم الدينيّة واللّسانية، وهو «ما يجعل التّعليم يبلغ مستوى لائقا يؤهّل الدّارسين في بجاية للحياة العلميّة أو لمواصلة دراستهم والتخصّص والتّعمق أكثر في التخصّصات المذكورة في المؤسّسات العلميّة المتعدّدة»[4] فهذا الدّمج

---

[1]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص 54.

[2]- ينظر آداب المعلّمين، لابن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، ص102.

[3]- ينظر المصدر نفسه، ص 102.

[4]- مدينة بجاية النّاصرية دراسة في الحياة الاجتماعيّة والفكريّة، محمد الشّريف سيدي موسى، ص 84.

بين تدريس هذه العلوم قد ساعد كثيرا على توافد الطّلبة وكذا المدرّسين على بجاية بخاصّة وأنّها مركز عبور نحو تونس والمشرق والاستفادة من خبرات هؤلاء المهاجرين في ميدان التّربية والتّعليم.

أمّا عن المواعيد الدّراسية المحدّدة للصّبيان وما يتخلّلها من عطل وأعياد؛ فقد كانت تتراوح بين «بدء الدّراسة منذ صباح يوم السبت إلى غاية عصر يوم الخميس، وبذلك يكون يوم الجمعة بطوله من أيّام العطلة، هذا فضلا عن بطالة الأعياد التي قد تصل إلى خمسة أيّام»[1] فالرّاحة في التّعليم مفيدة للصّبي حتّى يستطيع استيعاب ما يقدّم له ولا يشعر بالضّجر والملل والتّعب فيتراجع مستوى تحصيله العلميّ.

وممّن اشتهر من أبناء بجاية وكان له باع طويل في هذه العمليّة التعليميّة يرد اسم عبد الله الحضرمي القرطبي «الذي كان من فطاحل الأدباء ومن روّاة الحديث الثّقاة، نفع النّاس بعلمه وقد تصدّر للتّدريس ببجاية»[2] كما لا ننسى أيضا الشّيخ عبد الحق الأزدي الأشبيلي الذي درَّس ببجاية والْتَفَّ حوله الكثير من الطّلبة «فقد كان عالما بالفقه والحديث ألّف التّآليف وصنّف الدّواوين كلّها في الزّهد، ووُلِّيَ الخطبة وصلاة الجمعة ببجاية وجلس للوثيقة والشّهادة، له من التّآليف الأحكام الكبرى في الحديث والأحكام الصّغرى والعاقبة»[3] كما ترك مؤلّفات أخرى مشهورة صار الطّلبة يتداولونها من بعده لفائدتها العظيمة والجليلة، وقد أتحفنا الغبريني في مُؤَلّفه الفريد بتراجم لِمُدرّسين كُثُر بالحاضرة منهم الشّيخ الفقيه والأديب المجيد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشهير بابن الأبّار الذي «رحل إلى العدوة واستوطن بجاية، ودرَّس بها وأقرأ وروَى وأسمع وصنّف وألّف، وهو ممّن لا يُنكر فضله، ولا يُجهل نبله، له تآليف حسنة ونزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة»[4] فابن الأبّار

[1]- ينظر التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص(183، 184).

[2]- ينظر كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني، ص 119.

[3]- موجز التّاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، عثمان الكعّاك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص 206.

[4]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 311.

من أهل بلنسيه لكنّه أبَى إلّا أن يستوطن بجاية أيّام الدّولة الحفصيّة وله شعر في المستنصر بالله الحفصي.

وكان من علماء بجاية الذين اشتغلوا بالتّدريس أيضا أبي علي ناصر الدّين المشدالي وقد كان من جملة من رحل إلى المشرق لطلب العلم فهناك «لقي أكابر علماء المشرق، وأخذ عنهم فحذق في العقليات والنّقليات ثم رجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ودروسه حسنة منقّحة»[1] فنلحظ من هذا القول إنّ المشدالي تأثّر بمنهج المشارقة في التّعليم، فأسهم إبّان عودته إلى بجاية بنصيب في إصلاح حالة التّعليم بها وتحسين مناهجها.

فبعد أن يُنْهِيَ الصّبي المرحلة الأولى من تعليمه يكون قد ألمّ بمبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وعرف بعضاً من العلوم المتّصلة به، فيتوجّه في الغالب لإتمام تعليمه في سائر المعاهد التّعليمية الأخرى ويختار العلم الذي يودّ دراسته والتخصّص فيه، وهو ما يفتح له المجال للاتّصال بالعلماء الأجلّاء والتّنقل بين الحواضر وحضور المجالس العلميّة وإثراء رصيده المعرفي[2] وهذه المرحلة من التّعليم يُطلق عليها اسم المرحلة العليا أو التّعليم العالي، وتتحدّد هذه المرحلة ببلوغ الطّالب سنّ المراهقة حيث «يجلس إلى الأستاذ الذي يريده والحريّة مكفولة له بالتنقّل بين من يشاء من الأساتذة والشّيوخ دون قيد أو شرط، حتّى في انتقاء ما شاء من موادّ الدّراسة»[3] فلم تكن هناك مناهج إجباريّة تقيّد الطّالب وتمنعه من الحصول على ما اختاره سواءً أكان ذلك بالنّسبة للشّيخ المحاضر أو المواد الدراسيّة المقرّرة، ففي الغالب كان الطّلبة يميلون لدراسة العلوم الدينيّة ثمّ ما يتعلّق بها من علوم لسانيّة

---

[1]- ينظر المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 545، وعنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (229، 230).

[2]- حرص طلبة العلم على زيارة المراكز العلميّة المشهورة بالبلاد الإسلاميّة؛ فراحوا يتجشّمون عناء السّفر إليها ولقاء الشّيوخ الكبار بها والجلوس إليهم والأخذ المباشر عنهم، والاطّلاع على نفائس الكتب في المكتبات وجلب أغلبها سواء أكان ذلك في مدن المغرب والأندلس أو مدن المشرق، للتّفصيل ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص170.

[3]- ينظر مدينة بجاية النّاصرية دراسة في الحياة الاجتماعيّة والفكريّة، محمد الشّريف سيدي موسى، ص 87.

مع حرص أساتذتهم على «وضع مناهج تعليميّة مستقاة من كتب المؤلّفين القدامى التي يغلب عليها أن تكون من وضع المشهود لهم بالعلم والمعرفة، وإن كان يفضّل متناً من متون المذهب المالكي، الذي يمثّل محوراً رئيساً للتّربية الإسلامية في المغرب»[1] وهو ما تفرضه عليهم الحياة السياسيّة آنذاك بخاصّة وأنّ كثيرا من الفقهاء بل جُلُّهُم كانوا من معتنقي المذهب المالكي، كما كان للعلوم الاجتماعيّة والعقليّة نصيب من الدّراسة ولكنّها تقترن غالبا بموادّ من العلوم الدينيّة لأنّها واجبة على الطّالب وأساس الثّقافة الإسلاميّة، إضافة إلى بعض التّعديلات التي أقرّها ابن تومرت على العمليّة التعليميّة ضمن الدّعوة الموحّدية «فقد أسهم الفكر التّومرتي في إدخال تعديلات على لائحة الموادّ الدراسيّة، وإثرائها بموادّ جديدة لم تكن تُدرس من قبل»[2] فهذا المنهج التّعليمي الذي وضعه ابن تومرت نجده يخدم دعوته الإصلاحيّة بالدّرجة الأولى، ثمّ يفتح الآفاق للطّلبة والعلماء للتوسّع في سائر العلوم التي كان تداولها محظورا، وكلّ هذا من أجل نشر العلم وتعميمه بين النّاس.

وجرى التّعليم في هذه المرحلة على شكل حلقات علميّة تضمّ عددًا من الطّلبة مُلْتَفِّينَ حول مُعلّمهم مُنْصِتين لِمَا يقوله، في أيديهم كرّاسات يُدوّنُون فيها بعض ما سمعوا ويحفظون البعض الآخر، وذلك تبعاً للطّريقة التي يستخدمها الشّيخ المدرّس في التّعليم وهي تختلف من شيخ إلى آخر، نُجملها في طريقتين أساسيتين هما طريقة التّلقين والطّريقة الحواريّة، فالطّريقة الأولى تقليديّة حيث «كان يُلقي المعلّم الدّرس على التّلاميذ ثمّ يطلب من أحدهم إعادة فحواه بغير صيغته التي أوردها هو، ثمّ يطلب من غيره إعادة ما قاله زميله، وهكذا حتّى يتأكّد المعلّم من فهمهم للدّرس»[3] فهذه الطّريقة تعتمد في الأساس على النّقل ثمّ الحفظ حيث يُلقي المعلّم درسه مشافهة ويقوم بشرحه شرحاً جيّداً والطّلبة يستمعون وينقلون، وتعدّ هذه الطّريقة الأنسب والأفضل بالنّسبة للعلوم الدينيّة، ومن بين المدرّسين الذين اعتمدوا هذه الطّريقة ببجاية أبو علي عمر بن ملك المرساوي «الذي كان أعلم وقته بعلم

---

[1]- ينظر التّربية الإسلاميّة في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص 11.

[2]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص 91.

[3]- الاتّجاهات الثقافيّة في بلاد الغرب الإسلاميّ، بشير رمضان التليسي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص 394.

الكلام وأحفظ النّاس بدقائق تفاصيله، وكلّ من كان له مشاركة في أصول الدّين ببلدنا، فما كان أصل أخذه إلاّ عن طريق أبي علي المرساوي، وكان طريقه في ذلك كلّه على طريق الأقدمين»[1] وهو دليل على أنّ هذا الشّيخ بالرّغم من علمه الواسع بعلم الكلام إلّا أنّه كان يستعمل طريقة التّلقين أثناء تدريسه للطّلبة.

أمّا عن الطّريقة الأخرى فهي الطّريقة الحواريّة التي تعتمد «المناقشة في توليد الأفكار، ومعرفة الحقيقة العامّة، وتثبيتها في الخيال»[2] وهنا يقوم الشّيخ بإلقاء الدّرس على الطّلبة وشرحه؛ ثمّ يحاول توليد الأفكار عن طريق فتح باب المحاورة والنّقاش لهم، والحصول على الفهم المراد من وراء هذه العمليّة التي تعدّ الطّريقة الأنجع لتمكّن الطّالب فيها من إبداء رأيه والسّؤال عن ما يصعب عليه، وكان ممّن اشتهر في بجاية بهذا النّوع من التّعليم الفقيه أبي العبّاس أحمد بن عيسى الغماري الذي كان يدرّس ببجاية « ويجيء بالمسألة الخلافية فيرتضي أحد وجهيها، فيبحث عليه إلى أن يظهر الرّجحان ويقع التّسليم، ثمّ يأخذ الطّرف الآخر ويُلزم أصحابه ما كان هو يناظر عليه، فلا يزال إلى أن يظهر الرّجحان في ذلك الطّرف ويقع التّسليم أيضا»[3] فنجده قد استعمل أسلوب المحاورة والنّقاش مع طلَبته، وترك لهم المجال واسعا للإدلاء بآرائهم الخلافية.

وبعد أن يتمكّن الطّالب من تحصيل علمه وإتمام دراسته؛ فإنّه يُتَوَّجُ بشهادة من لَدُنِ شيخه تختم دراسته ويُطلق عليها اسم الإجازة[4] وهي تعدّ من الضّرورات العلميّة في العمليّة التعليميّة «يحرص عليها العالِم لضمان انتشار علمه سليما صحيحا خاليا من التّحريف والأغلاط بقدر الإمكان،

---

[1]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 226.

[2]- الاتّجاهات الثقافيّة في بلاد الغرب الإسلامي، بشير رمضان التليسي، ص 394.

[3]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 94.

[4]- تنقسم الإجازة إلى عدّة أقسام منها الإجازة العلميّة التي يمنحها الشّيخ لطلبته المتمكّنين، والإجازة التكريميّة المتبادلة بين العلماء والمحدّثين، والإجازة العامّة، للتّفصيل ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص(176 إلى180).

ويحرص عليها المتعلّم لينال علما مضبوطا لاشكّ في نسبته إلى صاحبه»[1] فالشّيخ المدرّس لا يُجيز طلبته إلاّ إذا بلغوا مستوى عاليا من التّحصيل وصاروا أهلا للتّدريس أو الإقراء بحقٍّ.

وصفوة القول إنّ بجاية عبر مراحلها المختلفة قد عرفت اهتماما ملفتا بسائر المؤسّسات الدينيّة والتعليميّة التي انتشرت عبر ربوعها؛ من مساجد وكتاتيب وزوايا ومدارس ومكتبات فهي تعدّ عاملا أساسا لدفع الحركة العلميّة والثقافيّة بالحاضرة، وبخاصّة بعدما سعى الشّيوخ المدرّسون للاعتناء بجانبي التّربية والتّعليم والعمل على إصلاح مناهجهما، حيث أوْلَوا القرآن الكريم ومختلف العلوم الدينيّة المكانة المرموقة والرّائدة ،كما أنّهم شجّعوا على تعلّم سائر العلوم الأخرى، من أجل تكوين أجيال مثقّفة ومتّزنة قادرة على حمل مشعل الحضارة؛ فتجعل من بجاية مركزا علمياً متميّزاً.

ثالثا:تعدّد العلوم ببجاية وأشهر علمائها

عرفت بجاية نهضة فكريّة وعلميّة هائلة أيّام الدّولة الحمّادية وسائر الدّول التي تَلَتْهَا ، وتحوّلت إلى منارة للعلم وملتقى للعلماء والطّلاب من مختلف مدن المغرب الإسلاميّ، بفضل ما عرفته من تسامح للحكّام وما احتوته من معاهد ومؤسّسات علميّة رائدة نبغ بها علماء أجلّاء، منهم من أنجبتهم هذه الحاضرة، ومنهم الوافدون عليها ممّن أَبَوْ إلّا أن يرتحلوا بين الحواضر لطلب العلم وتحصيله وعلى رأسهم الأندلسيّون، فألمُّوا بالعلوم النقليّة واللّسانية والعقليّة، وألّفوا فيها الكتب والمصنّفات كما أنّهم لم يكتفوا بالتخصّص في علم واحد من تلك العلوم؛ وإنّما نجد عالم الفلسفة له دراية بعلم الفقه وأصوله، وللطّبيب يدٌ في نظم الشّعر وغيرهم فكان هؤلاء أشبه بالعلماء الموسوعيّين.

[1]- التّربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص 35.

أ. العلوم النّقلية :

وتسمّى أيضا العلوم الدينيّة والشرعيّة، وقد اهتّم المسلمون بها منذ ظهور الإسلام، مرتكزين على الكتاب والسّنة النّبوية وما تفرّع عنهما من علوم لازمة لتَمام الفائدة، فكان من أهمّها علم القراءات، والتّفسير، والفقه وأصوله والحديث، وعلم الكلام والتّصوف.

تميّزت حاضرة بجاية باهتمامها الكبير بالعلوم الدينيّة، فظهر بها عدد هائل من العلماء والفقهاء، وعَمَد الحمّاديون لإنشاء المعاهد والمساجد والزّوايا ليكفُلوا انتشارها، ويُتحفوا مجالسهم بمُدارستها، كما أولاها الموحّدون عناية فائقة نظرا للطّابع الدّيني الذي بُنِيت عليه دولتهم، ليَحذُوَ الحفصيّون حذوهم حيث سارع النّاس للتّفقه وتعلّم العلوم الدّينية من العامّة والخاصّة، وجلب العلماء والمدرّسين من كلّ مكان وتنظيم حلقات الوعظ والإرشاد وتأليف المصنّفات المتنوّعة حولها ممّا أدّى إلى انتشارها وازدهارها بشكل ملحوظ.

- علم القراءات:

عرف حفظ القرآن الكريم ومدارسته اهتماماً بالغاً لدى العلماء وطلبة العلم، فتصدّر علم القراءات مقدّمة هذا الاهتمام« فهو علم يُبحث فيه عن كيفية النّطق بألفاظ القرآن، وموضوعه القرآن من حيث أنّه كيف يُقرأ، ويعتبر هذا العلم من أوّل العلوم الّتي اهتمّ بها المسلمون، غير أنّهم اختلفوا في عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبع قراءات وبعضهم جعلها أكثر، غير أنّ الرّاجح هو سبع قراءات »[1] فعلم القراءات يعدّ من أوائل العلوم المدروسة لدى المسلمين متّبِعين في ذلك ما سمعوه من قراءة النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) بأوجه مختلفة في النّطق، وهكذا نشأت تلك القراءات المتعدّدة المتواترة ونُسبت كلٌّ منها لِمَن اشتهر بروايتها.

[1]- التّربية الإسلاميّة في المغرب ،محمد عادل عبد العزيز ،ص(77، 78).

انتقلت هذه القراءات إلى المغرب الإسلامي وإلى بجاية بخاصّة؛ وانتشرت بين علمائها بفضل ما اطّلعوا عليه من مؤلّفات علماء الأندلس إبّان القرنين الخامس والسّادس الهجريّين[1] منهم أبو القاسم بن فِيرُّهْ من أهل شاطبة الذي «عمد إلى تهذيب ما دوّنه أبو عمرو وتلخيصه، فنظم ذلك كلّه في قصيدة لغز فيها أسماء القرّاء بحروف (أ ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسّر عليه ما قصده من الاختصار، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفنّ استيعابا حسنا»[2] فهذه الأرجوزة التي نظمها الشّاطبي عُرفت باسمه أي الشّاطبية؛ وقد قصَد منها تيسير القراءات وحفظها للولدان والمتعلّمين والنّاس كافة، وقد جرى العمل بها في مدن المغرب والأندلس.

كما اشتهرت بجاية بعدد من علماء القراءات من أمثال أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن محمّد المعافري القلعي المعروف بابن الخرّاط الذي كان « فقيها نحوياً، أستاذاً مقرئاً، صالحاً مباركاً، من أحد الثّقاة الأثبات الصّلحاء الرّواة، قرأ بقلعة بني حمّاد، وانتقل إلى بجاية واستوطنها وأقرأ بها، وجلس للأستاذيّة، وانتفع النّاس به»[3] وقد نال هذا الشّيخ مكانة رفيعة لحُسن تلاوته وصدق قراءته، فيتنافس النّاس للقيام خلفه والتبرّك به، إضافة إلى أحمد بن عبد الصّمد الأنصاري الخزرجي القرطبي نزيل بجاية الذي كان «نبيلًا ذكيّا مشهورا بحفظ الحديث، متين الأدب، ألّف عددا من الكتب، منها نَفَس

[1]- ظلّت الدّراسات القرآنيّة بالمغرب الإسلامي خلال هذين القرنين في نطاق محدود، لا تتجاوز دائرة الأخذ والتّلقي بالرّغم من وجود جمهرة من علماء القراءات، وأنّ جُلّ اعتمادهم كان على مؤلّفات علماء الأندلس الذين أثّروا بشكل بارز في ازدهار هذه الدّراسات، للتّفصيل ينظر قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6هـ-9هـ/12م-15م) دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، ص(268، 269).

[2]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص(552، 553).

[3]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء المائة السّابعة ببجاية ،أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 133.

الصّباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه، وحضر مجلسه جمع غفير من العلماء ونفعهم الله به»[1] فكان ذلك من أفضل ما أُلِّف في علوم القرآن رواه عنه ابن عتيق من موسى حين لَقِيَهُ ببجاية.

هذا فضلا عن إسهامات الشّيخ أبي العبّاس أحمد بن محمد بن حسين بن محمد بن خضر الصدفي الشّاطبي حين يتحدّث عنه الغبريني فيقول:«هو الفقيه المقرئ المحصّل الرواية، الضّابط المتقن المجوّد، له رواية واسعة ومعرفة بالقراءات، ما رأيت أتقن منه في القراءات، ألّف جزءً في بيان تمكين ورش حروف المدّ واللّين الثلاثة، الألف والواو والياء إذا تقدّمَتْهُنَّ الهمزة، وألّف أيضا جزءً آخر في بيان مذهب ورش في تفخيم اللاّم وترقيقها»[2] فهو أحد أئمّة القرّاء في عصره وفد إلى بجاية وانتصب للتّدريس بها بالجامع الأعظم وجامع القصبة، وتتلمذ على يديه طلبة كُثر منهم أبو العبّاس أحمد الغبريني، كما اشتهر أيضا في علم القراءات أبو العبّاس أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري «وهو فقيه، مُقرئ نشأ بقلعة بني حمّاد، ثمّ رحل إلى بجاية فأخذ عن أبي زكريا الزواوي، ولقي المؤرّخ ابن حمّاد الصّنهاجي وغيره، ألّف مختصر كتاب التّيسير في القراءات السّبع لأبي عمرو الدّاني»[3] وجلس للإقراء بالجامع الأعظم ببجاية، وقام باختصار كتاب التّيسير اختصارا بليغا أفاد عن قوّة علمه وجودة فهمه حتّى صار من أبرز قرّاء بجاية في القرن السّابع الهجري.

- علم التّفسير:

يعدّ التّفسير العلم الثّاني الذي أولاه العلماء أهمّيّة كبرى بعد علم القراءات، فبفضله يمكننا معرفة المعنى الحقيقيّ للقرآن الكريم، والمقصد الأسمى من تعاليمه «فهو علم يُعرف به نزول الآيات،

---

[1]- ينظر الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، دط، 1984م، ج1، ص(239، 240).

[2]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية ،أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص(85، 86).

[3]- المصدر نفسه، ص316، والجزائر في التّاريخ، رشيد بورويبة وآخرون، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م، ج3، ص343.

وشؤونها، وأقاصيصها والأسباب النّازلة فيها، ثمّ ترتيب مكيّها ومدنيّها، ومُحكمها ومُتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصّها وعامّها، ومطلقها ومقيّدها، ومُجملها ومُفسّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها، وغيرها»[1] فهو علم يُزيل اللّبس عن المسلم حتّى يفهم ما جاء في ديننا الحنيف، ويعرف ما لَهُ من حقوق وما عليه من واجبات، كما أنّه يساعدنا على معرفة فحوى السّور والآيات؛ فيبيّن سبب نزولها والهدف منه بعيداً عن ذلك الفهم السّطحي والسّاذج للإنسان العادي لحظة قراءته لكلام الله عزّ وجلّ ومحاولة فهمه للوهلة الأولى، وقد انقسم التّفسير إلى قسمين أساسيّين «تفسير نقليّ ويستند إلى الآثار المنقولة عن النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وسائر السّلف الصّالح، وتفسير يعتمد على الرّأي وهو ما يرجع إلى اللّسان من معرفة اللّغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى»[2] وذلك لأنّ أيّ تفسير يجب أن يخضع لأحد هذين القسمين إمّا ما أُثر من تفسير عن النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) أو ما جاء على سبيل الرّأي ولكنّه مسموح في حدود التّفسير اللّغوي للألفاظ فقط لا المعاني.

وقد سارت بجاية على نهج بلاد المغرب باحتضانها لتفسير القرآن الكريم وفق المأثور عن النّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، وعكف العلماء وطلبة العلم على إتّباعه في التّدريس والشّرح، منهم أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني الوافد على بجاية « وهو من أشهر الفقهاء ارتحل إلى الأندلس ثمّ إلى المشرق وحصّل علوما كثيرة، وبعد رجوعه للبلد كان لا يُرى إلّا ناسخا وللأقلام باريًا، ترك كتبا جليلة في أصول الفقه والحديث ومختلف العلوم العقليّة، كما ألّف في التّفسير كتاب تفسير القرآن وهو يقع في نحوِ سبعين جزءً »[3] وقد عُنِيَ هذا الكتاب بتفسير آيات القرآن الكريم بغية الوصول إلى استنباط الأحكام الشرعيّة بالوجه الصّحيح وفهم معناها، كما نجد أيضا الشّيخ الفقيه أبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي الذي لُقّب بأبي حامد الغزالي وأبي حامد الصّغير «جمع بين العلم

---

[1]- التّربية الإسلاميّة في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص72.

[2]- ينظر المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص(554، 555).

[3]- ينظر تاريخ الثّقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صالح بن نبيلي فركوس، ج1، ص129.

والورع، له المصنّفات الحسنة منها كتاب في علم التّذكير سمّاه التّفكير فيما تشتمل عليه السّور والآيات من المبادئ في الغايات»[1] وهو كتاب حسن سلك فيه المسيلي مسلك أبي حامد الغزالي فتداوله النّاس واستفادوا منه إلى جانب مصنّفاته الدينيّة الأخرى.

وفي السّياق ذاته ذكرت لنا المصادر أسماءً لأعلام كثر أسهموا في حقل التّفسير من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرّالي الذي «أَقْرَأَ الفاتحة في نحو ستّة أشهر، وابتدع عِلماً جديداً لقواعد التّفسير، فكان يُلقي في التّعليم قوانين تتنزّل في علم التّفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، وعلى أحكام هذه القوانين ألّف كتابه مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزّل»[2] فهذا الشّيخ قد اجتمع لديه من الزّهد والورع والعلم والعمل ما لم يجتمع عند شخص غيره، وإذا همّ بتفسير سورة من كلام الله عزّ وجلّ فإنّه يُورد آياتها ويحرّر الكلام لفظة لفظة وحرفا بعد حرف، كما كان لأبي زكريا يحي الزّواوي مشاركة مهمّة في علم التّفسير حيث نجده «يرتّب ميعاداً لتفسير القرآن الكريم لعامّة النّاس بالمسجد الأعظم ببجاية، ويواظب على ذلك خاصّة في شهر رمضان المعظّم على عادة السّلف الصّالح»[3] فهذا العالِم بذل جهوداً جبّارة رغبة منه في تقريب العامّة لدينهم وتبسيط ما صعب فهمه عليهم بأسلوب يعتمد على التّرغيب تارة والتّرهيب تارة أخرى.

- علم الفقه وأصوله:

أولى العلماء المسلمون علم الفقه مكانة رفيعة بين الدّراسات الدّينية، لارتباطه الوطيد بكتاب الله وسنّة نبيّه محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ويُطلَق عليه أيضا علم الدّراية، فهو في أصله «معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين بالوجوب والحذر، والنّدب والكراهة والإباحة وهي متلقّاة

---

[1]- نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، أحمد بابا التنبكتي، منشورات كليّة الدّعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989م، ص156.

[2]- العلوم و الآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص44، وعنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص143.

[3]- قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين(6هـ - 9هـ/12م -15م) دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، ص275.

من الكتاب والسنّة وما نصبه الشّارع لمعرفتها من الأدلّة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلّة قيل لها فقه»[1] والمسلم يستعين بعلم الفقه في جميع ما يواجهه من مسائل دينيّة واجتماعية واقتصادية بغرض معرفة ما جاء في القرآن الكريم من أحكام شرعيّة لازمة، وبناءً على ذلك فقد ظهر علماء أجلّاء في هذا العلم ألّموا بكلّ مقاصده فازدهر وشاع عبر مذاهب فقهيّة متعدّدة أبرزها المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشّافعي والمذهب الحنبلي.

وأمّا أهل المغرب فهم يُقلّدون مذهب مالك الذي عرف انتشاراً واسعاً ورواجاً كبيراً، بخاصّة في حاضرة بجاية حيث تصدّر قائمة المذاهب الأخرى ولقي رعاية مُلفِتة باعتباره مصدرا للأحكام والتّشريع « بل إنّ انتصاره قد أضفى لونا من الثّبات الفكري والعاطفي في الدّولة، وتحقّق على المستوى العقائدي نوع من الوحدة لم يتوفّر لبلدان المشرق المعاصرة التي كان الصّراع قائما فيها بين السنّة والرّوافض»[2] فراح علماء بجاية يتداولون كتب الإمام مالك بخاصّة الموطأ، ومدوّنة سحنون بن سعيد التنّوخي، والتّهذيب للبراذعي وغيرها من الكتب الفقهيّة، وعمدوا إلى دراستها والعمل بها وتدريسها للطّلبة، ومن فقهاء بجاية نجد الشّيخ أبو محمد عبد الحق الاشبيلي «الفقيه الجليل والقاضي الخطيب الّذي رحل إلى بجاية وتخيّرها وطنا وكمل بها خبرة، وألّف عدداً من المصنّفات أبرزها العاقبة والتهجّد والأحكام الكبرى والأحكام الوسطى والأحكام الصّغرى»[3] فقد كان فقيها كبيرا مصاحبا لثلّة من فقهاء عصره الذين شهدوا له بالرّيادة في الفقه وسائر العلوم الدينيّة.

---

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص563.

[2]- دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، عبد الحليم عويس، دار الصّحوة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط2، 1991م، ص257.

[3]- ينظر الدّولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، رشيد بوروبية، ص 192.

وقد واصل المذهب المالكي انتشاره بالرّغم من كلّ المحاولات الموحّدية للقضاء عليه واستبداله بالمذهب الظّاهري[1] وإحراق كلّ الكتب الفقهية التي لها صلة به ومنع تداوله بل نجده « لم ينهزم مطلقا أمام الدّعوة إلى الاجتهاد، ولا أمام المذهب الظّاهري الذي نشط نشاطا كبيرا في هذا العصر»[2] وإنّما تضاعف الاهتمام به وأعيدت كتابة مصنّفاته وتأليف الشّروح عنها، فعرفت بجاية علماء آخرين في الفقه منهم أبو زكريا يحي الزّواوي الّذي أخذ علوم المذهب رواية ودراية عن خيرة علماء المذهب «فتعدّدت مجالسه التّعليمية بين مساجد بجاية يدرّس كتابي الموطأ والمصابيح، وألّف كتبا قارع بها النّزعة الظّاهرية للدّولة»[3] وهذا ما يدلّ على شدّة تعلّق هؤلاء العلماء بالمذهب المالكي ورفضهم القاطع للانخراط في أيّ مذهب آخر غيره، كما لا ننسى أيضا إسهامات الفقيه أحمد بن عثمان بن عبد الجبّار المتوسي الملياني الذي كانت له دراية واسعة بعلم الفقه وأصوله، عمل ببجاية على تدريس الفقه المالكي، وبخاصّة كتاب التّلقين؛ حيث يذكر الغبريني أنّه «كان له في التّلقين تقدّم ونظر لم يكن لغيره، ولم يكن له مثل في غيره من الكتب، وإن كان الرّجل إماما في الفقه، ولكنّه في هذا الكتاب أجلّ من غيره من الكتب، وله عليه تقييد فيه تنبيهات خفيّة»[4] فكتاب التّلقين هذا لصاحبه المازري، كتاب جليل في الفقه المالكي وقد قام الملياني باتّخاذه مصدرا مهماً لتدريس الطّلبة، كما قام بإتمام شرحه لتعميم الفائدة وهو ما ساعد على ترسيخ هذا المذهب بين البجائيين.

أمّا علم أصول الفقه فهو أيضا قد نال قسطا وافرا من الاهتمام لعِظم فوائده وأكثرها بين العلوم الدينيّة، وهو« النّظر في الأدلّة الشرعيّة من حيث تُؤخذ منها الأحكام والتآليف، وأصول الأدلّة

[1]- المذهب الظّاهري هو المذهب الذي كان محبوبا من لَدُنِ الخلفاء الموحّدين؛ وبصفة خاصّة لدى يعقوب المنصور الذي حمل النّاس بالعمل على هذا المذهب وأحرق كتب المالكيّة، للتّفصيل ينظر العلوم و الآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني ،ص50.

[2]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ج1، ص 123.

[3]- قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين(6هـ-9هـ/12م-15م)دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات ،ص(284، 285).

[4]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص188.

الشرعيّة هي الكتاب الّذي هو القرآن ثمّ السنّة المبنيّة له»[1] فعلم الأصول يساعدنا على معرفة تلك القواعد التي نستطيع بفضلها استخراج الأحكام الشرعيّة، وقد تمكّن العلماء والفقهاء أن يستحدثوا هذا العلم ويؤلّفوا حوله الكتب الكثيرة التي تجمع مقاصده وتكون هي القواعد الأساس لأصول الفقه الإسلامي بعامّة وأبرزها كتاب الأمّ للإمام الشّافعي، وكتاب المستصفى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي وغيرها من المختصرات والشّروح.

وقد عرفت حاضرة بجاية مجموعة من الفقهاء والأصوليّين الذين أسهموا في نشر هذا العلم وتدريسه وشرح مصنّفاته منهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري المشتهر بالأصولي «وقد كان عالماً بالفقه والأصلين والخلاف والجدل، رحل إلى المشرق والْتَقَى بثلّة من علمائها ثمّ قفل راجعا إلى بجاية وتولّى القضاء بها، قبل أن يتقضّى بمدن الأندلس، كما جلس للتّدريس والإفتاء وانتفع به خلق كبير»[2] وبخاصّة أنّه قد قام بشرح كتاب المستصفى في علم الأصول والتّعليق عليه من أجل تبسيطه وتقريب الفهم للطّلبة الّذين كانوا يتوافدون على مجلسه فيؤثرهم ويكرمهم، كما لا ننسى الفقيه أبي المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن حسين بن عميرة المخزومي، وهو من العلماء الأجلّاء ببجاية له دراية واسعة بالفقه وأصوله، يقول عنه الغبريني:«وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه لا بأس به، وهو جواب لسؤال سائل، وهو مكمّل لعشرة أبواب حسبما سأل السّائل، وكان الطّلبة مدة كونه ببجاية يقرؤون عليه تلحيقات السهروردي وهي من مغلقات أصول الفقه عند طائفة ممّن يمارس علم الأصول ولا يتعرض لإقرائها إلّا من له ذهن ثاقب»[3] فهذه الكتب التي ألّفها فقهاء بجاية تنمّ في الحقيقة عن عنايتهم الفائقة بالقرآن الكريم وكلّ العلوم الدّينية المتّصلة به في سبيل نشر الدّين بالطّريقة الصّحيحة ووفق الأسس القويمة.

---

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص573.

[2]- نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، أحمد بابا التّنبكتي، ص378.

[3]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص301.

- علم الحديث:

يعدّ علم الحديث المصدر الثّاني من مصادر التّشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم وهو«علم تُعرف به أقوال رسول الله (صلّى الله عليه و سلّم) وأفعاله من قول أو فعل، أو تقرير أو صفة، وهو مرادف للسنّة، كما أنّه أصل من أصول التّشريع الإسلامي ومرتبته تلي مرتبة القرآن الكريم في الاستدلال»[1] وتكمن فائدة علم الحديث في كونه مساعدا للمسلمين على فهم وتفسير ما اختلفوا فيه من آيات القرآن بفضل ما تمّ جمعه من أحاديث النّبي (عليه الصّلاة والسّلام) بأسانيدها الصّحيحة المتواترة، كما قام أئمة المسلمين بجمعها وتخريجها منها صحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرها.

شهدت بجاية اهتمام علمائها بعلم الحديث أيّم اهتمام فتدارسوه ولقّنوه للطّلبة وتداولوا مصنّفاته القيّمة لاسيما صحيح مسلم حيث «أقدم الإمام المازري[2] من فقهاء المالكية في القرن الخامس الهجري مثلا على شرحه وسمّاه المعلم بفوائد مسلم، واشتمل على عيون الحديث ثمّ أكمله القاضي عياض في القرن السّادس الهجري وسمّاه إكمال المعلم»[3] فصحيح مسلم قد نال صدارة العناية من لدن البجائيين والمغاربة بعامّة، إلى جانب عديد من المؤلّفات الأخرى، كما كان لأبي الخطّاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي مشاركة في علم الحديث فنجده «حفظ صحيح مسلم كلّه، وقد امتحن علماء مصر حفظه للحديث فذكروا له أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها فأعاد هذه المتون المحوّلة وعرّف عن تغييرها، ثمّ ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية»[4] وهذا إنّما يدلّ

---

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص(556، 557)، والتّربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص 86.

[2]- هو الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري، فقيه من فقهاء المالكية صاحب شرح صحيح مسلم المعنون المعلّم بفوائد مسلم وهو كتاب يشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه، توفي سنة 536هـ، للتّفصيل أكثر ينظر المقدّمة ،عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص560.

[3]- بجاية النّاصرية دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية، محمد الشّريف سيدي موسى، ص 161.

[4]- حضارة الموحّدين، محمد المنّوبي، ص 36.

على سعة دراية هذا المحدّث بعلم الحديث وبدقائقه فاجتمع حوله علماء الحديث واعترفوا له بالسّبق فيه وأولوية الحفظ والإتقان.

- علم التّصوّف:

يعدّ التّصوّف أحد أركان العلوم الدّينية وأصله التقرّب لله تعالى بالفضائل وتزكية النّفس والابتعاد عن الرّذائل، وهو كما يعرّفه ابن خلدون في قوله «إنّ هذا العلم من العلوم الشرعيّة الحادثة في الملّة، وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمّة وكبارها والتّابعين ومن بعدهم طريقة الحقّ والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها»[1] فالتصوّف هو مجاهدة المسلم لنفسه وقطع شهواتها وتوجيهها إلى حبّ الخالق وعبادته وحده، فتسمو روحه ويصبح من أصفياء خلق الله، وقد اختلف النّاس في نسبة كلمة التّصوف فرأى بعضهم أنّها مشتقّة من الصّفة وهم الفقراء على عهد رسول الله(صلّى الله عليه وسلّم) ومنهم من ذهب إلى أنّها «مشتقّة من الصوفة، أي القطع الصّغيرة من الصوف، لأنّ الصّوفي يحاول أن يكون أمام ربّه ذليلا قليلا كالصّوفة»[2] وهو دليل على حبّ الصّوفي للتّقشّف والزّهد في الدّنيا بين يدي الله عزّ وجلّ.

وقد عرفت بجاية ظهور عدد من أقطاب التصوّف في سائر أرجائها، وبخاصّة بعدما اطّلع النّاس على تلك الكتب الّتي ألّفها بعض المتصوّفة مثل كتاب الرّسالة القشيرية في علم التصوّف لأبي القاسم عبد الكريم القشيري وكتاب إحياء علوم الدّين لأبي حامد الغزالي، فكان من أبرز الصّوفيين آنذاك أبي مدين شعيب بن الحسين الأندلسي شيخ المتصوّفة ببجاية «حيث انتقل إلى فاس وتلقّى تعليمه بها على أيدي علمائها من أمثال أبي يعزى وبن حرزهم، كما استغلّ رحلته للحجّ للقاء الشّيخ عبد القادر الجيلاني -الّذي أخذ عنه التصوّف وألبسه الخرقة- ولدى رجوعه تخيّر بجاية وطناً وبها انكبّ

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص611.

[2]- ينظر الرّسالة القشيرية في علم التّصوف، أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري النيسابوري، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001 م، ص 279.

على التّصوف علماً وعملاً حتّى أصبح عالما يقصده النّاس للاغتراف من بحره»[1] وبفضله ازدهرت الحركة الصّوفية ببجاية وسائر مدن المغرب والأندلس فاشتغل على تبسيط تعاليم الصّوفية وتدريس مؤلّفاتهم ضمن مجالس علميّة تعجّ بالطّلبة والعلماء من كلّ مكان، فتخرَّج على يديه جمع غفير من طلّاب علمَيْ الظّاهر والباطن وعلى طرق أساتذته الأجلّاء بمصنّفاتهم القيّمة[2] فلم يبق أحد من علماء الحاضرة وطلّابها إلّا وقد استقطبه الشّيخ في دائرة تأثيره، وهو الّذي ترك آثارا منظومة ومنثورة تنتفع بها الأجيال بعده منها أبرز تصانيفه أنس الوحيد ونزهة المريد وديوانه الشّعري بما في ذلك الموشّحات والأزجال؛ فصار بحقّ حاملاً « لمناقب الشّهرة وألقابها مثل:شيخ المشايخ، والجامع بين الحقيقة والشّريعة، وصاحب مقام التوكّل، ومخرّج الألف شيخ وعلم العلماء والحافظ والمفتي وصاحب الكرامات والخوارق والقطب الغوث»[3] فهذه الألقاب طبقّت الآفاق وقد نالها في أغلبها وهو ببجاية فصار أشهر ممثّل للحركة الصّوفية بالمغرب الإسلامي.

كما اشتهر أيضا في علم التصوّف ببجاية الشّيخ العابد الزّاهد أبو الحسن علي بن محمد الزواوي اليتّورغي «وهو من جملة الأعلام المتّقين، ومن الأكابر الّذين يجب اعتقادهم في الدّين، له عبادة وديانة، وصلاح وانقطاع، وزهد وولاية، وكانت له كرامات ظاهرة متواترة»[4] وهو كما ترجم له الغبريني

---

[1]- ينظر إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، دار البصائر للنّشر، الجزائر، دط ،2011م، ج1 وج2، ص 252.

[2]- تأثّر إمام الزّهاد أبي مدين شعيب بالغزالي وأعجب بكتابه الإحياء فعكف على قراءته وتأمّل مضامينه، كما كانت له عناية برسالة القشيري التي كان يشرحها في مجالس درسه وتذكيره، هذا فضلا عن كتاب الرّعاية لحقوق الله للمحاسبي الحارث بن أسد الذي درسه على شيخه أبي الحسن بن حرزهم، للتّفصيل أكثر ينظر الحياة العقلية في بجاية، عمّار طالبي، مجلة الأصالة، وزارة التّعليم الأصلي والشّؤون الدّينية والأوقاف، المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، العدد 19، 2011م، مج07، ص .162

[3]- شعر أبي مدين شعيب الرؤيا والتّشكيل، مختار حبّار، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، دط، 2002م، ص 13.

[4]- ينظر قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6 هـ-9 هـ/12 م-15 م)دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، ص 370، وعنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 125.

في كتابه من علماء زواوة الذين أثّروا في أقرانهم من الصّوفية وأسهموا في تنشيط حلقات التّعليم والذّكر والإفتاء ونشر الدّين على سُنَن السّلف الصالح بعيدا عن كلّ تحريف وتبديل.

- علم الكلام:

عرف المسلمون علم الكلام وقد حظي باهتمام وافر لدى بعض العلماء فهو «علم يتضمّن الاستدلال على العقائد الإيمانية بالأدلّة العقليّة، والرّد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السنّة، وسرّ هذه العقائد الإيمانية هو التّوحيد»[1] وهو علم يسمّى أيضا بعلم أصول الدّين وعلم النظر والاستدلال وعلم التّوحيد والصّفات، موضوعه القرآن الكريم وما يتعلّق به من مسائل عقيدية مثل الصّفات الإلهية والقدر وحقيقة النّبوة وغيرها، وما تفضي إليه من الخوض في متشابه القرآن والسنّة، حيث عرف المشرق الإسلامي ظهور هذا العلم أوّل الأمر، إلّا أنّ المغاربة كانوا ميّالين أكثر إلى علم الفروع والقراءات والتّفسير فلم يحظ علم الكلام لديهم بالاهتمام الكبير.

سار علماء بجاية أيضا على مذهب السّلف الصّالح فلم يهتمّوا بعلم الكلام، إلّا أنّه وبامتلاك الدّولة الموحّدية لزمام الحكم نال هذا العلم حظّه من الانتشار؛ وتبنّاه عدد هائل من العلماء وبخاصّة بعدما «ألزم المهدي ابن تومرت ومن بَعْدِهِ خليفته عبد المؤمن بن علي النّاس بدراسته والنّظر في الأدلّة والأخذ بالاجتهاد، وهو ما تفصح عنه مؤلّفات ابن تومرت أعزّ ما يطلب والعقيدة المرشدة وغيرها من المصنّفات»[2] فصار علم الكلام أو التّوحيد لدى الموحّدين هو أساس كلّ المعارف على اختلافها بالرّغم ممّا أورثه من خلاف وشقاق بين الفقهاء والمتكلّمين والمتصوّفة.

ومن بين العلماء البجائيين الذين اهتمّوا بعلم الكلام آنذاك الشّيخ أبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي الذي جمع بين علمي الظّاهر والباطن، فخلّف مصنّفات عديدة منها ماله علاقة بعلم

---

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 580.

[2]- ينظر النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة، دار الوفاء لدنيا النّشر، الإسكندرية ،دط، 2004م، ص 130.

الكلام مثل «كتابه التذكرة في أصول علم الدّين وهو كتاب حسن طالعه الغبريني وكرّر النّظر فيه فرآه من أجلّ الموضوعات، وله أيضا النّبراس في الردّ على منكر القياس إضافة إلى كتابه في علم التذكير وسمّاه كتاب التّفكير فيما تشتمل عليه السّور والآيات من المبادئ والغايات»[1] وكلّها كتب جليلة تدلّ على إحاطة هذا الشّيخ بعلمي المعقول والمنقول وعلمي الظّاهر والباطن، وقدرته الفائقة على إيصال المعنى للمتلقّي فكثر اعتناء النّاس بكتبه وإيثارهم لها.

ويضاف إلى ثلّة علماء الكلام الشّيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري المشتهر بالأصولي وإنّما «اشتهر بذلك لغلبة علم الأصلين عليه، فقد كان أوحد زمانه علما وتفنّنا في المعقول والمنقول بخاصّة في علوم الحكمة والفلسفة والخلافات والجدل، وله إصلاح كتاب المستصفى للغزالي»[2] وهو على كثرة تفنّنه في علم الكلام والأصول نجده قد طاف بمختلف البلدان ولقي كثيرا من العلماء الأكابر وأخذ عنهم ممّا أهّله لتولّي القضاء في كلٍّ من مراكش ومرسية وبجاية.

ب. العلوم اللّسانية والاجتماعية:

يُطلق على الدّراسات اللّسانية أيضا العلوم اللّغوية والأدبيّة، وقد حظيت بعناية فائقة من لَدُنِ العلماء المسلمين بفضل ارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم والسنّة النّبوية ودورها الفعّال في فهم معانيهما وتفسيرها، وهي تشمل علوم النّحو والآداب، فضلا عن الاطّلاع المكثّف على التّاريخ والسّير، وقد نالت هذه العلوم حظوة لدى البجائيين الذين عكفوا على دراستها وأتحفوا مجالسهم العلمية بتدريسها وتبسيطها للنّاشئة فلقيت إقبالا كثيفا لدى طلبة العلم، كما نبغ فيها علماء وأدباء وشعراء كُثر من أبناء بجاية، وكذا الوافدين عليها الذين قاموا بالتّأليف حولها وكتابة الشّروح والتّذييلات على كتب الأدباء واللّغويين البارزين في سبيل بعث النّشاط الأدبي واللّغوي وتقدّمه.

---

[1]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 33.

[2]- ينظر تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ج2، ص(36، 37).

- **علوم اللّغة:**

عرفت علوم اللّغة العربيّة انتشارا واسعا في حاضرة بجاية؛ فقد دأب البجائيون على تعلّمها وإتقانها خدمة للدّين واللّغة فتراوحت بين البلاغة والبيان وما أكثرهما تواجداً في القرآن الكريم والسنّة النبويّة، والعروض والنّحو لمعرفة أسرار هذه اللّغة ومعانيها، فازدهرت دراسة هذه العلوم ونشطت المباحث اللّغوية وكثرت المؤلّفات حولها؛ ونبغ فيها علماء كثر من بينهم الإمام الشّيخ أبي محمد عبد الحق بن عبد الرّحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدري الإشبيلي «الذي ترجم له الغبريني في مؤلّفه الفريد بأنّه صاحب التّآليف الحسنة الجليلة وبخاصة في العلوم الدّينية، كما له إسهام في علوم اللّغة بتأليفه كتاباً حولها سمّاه الحاوي؛ وهو يقع في ثمانية عشر مجلّداً»[1] فقد كانت الدّراسات اللّغوية آنذاك تعتمد على كتابات العلماء الأجلّاء شأن الزّجاجي في كتابه الجُمل، وأبي علي الفارسي في الإيضاح وإسماعيل بن القاسم القالي في الأمالي وغيرها من المؤلّفات القيّمة في علم اللّغة، كما كان لأبي محمد عبد الحقّ بن يوسف بن حمامة الغبريني مشاركة فعّالة في ازدهار علوم اللّغة «وهو الشّيخ الفقيه، النّحوي اللّغوي المجيد، وكتاباته تدلّ على بلاغته وبراعته وطلاقة قلمه وفصاحته، كان مليح المذاكرة، حسن المحاضرة، ممّن يُعدّ في أعداد الفضلاء الأخيار، ويعوّل عليه في العلم وإليه يُشار»[2] فهذا الشّيخ يعدّ من جملة العلماء ببجاية الذين أَبَوْ إلّا أن يحملوا على عاتقهم مهمّة تدريس الطّلبة بالجامع الأعظم وغيره من الأماكن، والعمل على شرح وتبسيط مختلف القضايا والمسائل اللّغوية.

يحتلّ علم النّحو الصّدارة من بين علوم اللّغة جميعها؛ لقدرته على صيانة اللّسان العربي من الخطأ في الكلام وبخاصّة ما تعلّق بكتاب الله عزّ وجلّ، فلقيَ اهتماما بالغاً لدى علماء بجاية الذين تداولوه

---

[1]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 43.

[2]- ينظر قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين(6 هـ-9 هـ /12 م-15 م)دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، ص(333، 334)/نقلا عن عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 320.

تدريسا وتأليفا أبرزهم يحيى بن عبد المعطي الزّواوي[1] صاحب الألفيّة النّحوية «فقد نبغ ابن المعطي في علوم العربيّة حتّى أصبح إماما مُبرزا فيها؛ وما ساعده على ذلك هو رحيله إلى المشرق حيث موطن إنتاجه العلمي، فكانت الدّرة الألفية في علم العربية من أشهر مؤلّفاته، وكان هو صاحب السّبق في نظمها »[2] بلغت هذه المنظومة النّحوية ألفًا وعشرين بيتا ضمّنها ابن المعطي قواعد اللّغة العربيّة ونحوها وفق بحري السّريع والرّجز، وقد قام كثير من النحّاة بعده بشرحها والتّعليق عليها وتدريسها للطّلبة بل والنّظم على منوالها مثلما فعل ابن مالك في ألفيته أيضا، وإلى جانب الدّرة الألفية نجد أنّ لابن المعطي مؤلّفات نحويّة أخرى كثيرة تشهد له بالأفضلية والتميّز بين أقرانه من العلماء.

ومن الوافدين على بجاية الذين كان لهم دور فعّال في نشر العلوم اللّغوية بها الشّيخ أبي جعفر أحمد بن يوسف الفهري الفقيه النّحوي والأستاذ اللّغوي «كان ممّن استوطن بجاية وأقرأ بها، وهو إلى جانب علمه بالعربية تبسّط لإقراء كتبها فألّف فيها شرحا لكتاب الجُمل وآخر لكتاب الفصيح، كما صنّف مجموعا سمّاه الإعلام بحدود قواعد الكلام، تكلّم فيه عن الكلِم الثلاث الاسم والفعل والحرف»[3] فتراث أعلام بجاية اللّغوي والنّحوي يشهد لهم بدورهم الهامّ في تدعيم الحركة العلميّة والثقافية بالحاضرة، وينفي عنهم صفة التّقليد للمشارقة بل هو تفاعلٌ بينهم ضمن التأثّر الذي يعدّ أساس العملية التعليميّة ويضمن لها الازدهار والرّقي.

---

[1]- هو أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي الملقّب بزين الدّين، جزائري البلد، مغربي الأصل والمنشأ ولد سنة 564 هـ ببجاية، برز في علوم اللّغة العربية وصار أحد أئمّة عصره في النّحو والأدب، رحل إلى المشرق واشتغل مدرّسا للطّلبة بالجامع العتيق، له آثار عديدة في اللّغة والشعر منها شرح الجُمل والعقود والقوانين، وكانت وفاته سنة 628هـ، للتّفصيل أكثر ينظر موسوعة العلماء والأدباء الجزائريّين، رابح خدّوسي وآخرون، دار الحضارة ،الجزائر، دط ،2003م، ص 17.

[2]- الدّرة الألفية ألفية ابن معطي في النّحو والصّرف والخط والكتابة، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي المغربي، ضبط وتقديم سليمان إبراهيم البلكيمي، دار الفضيلة، القاهرة، ط1، 2010 م، ص(11، 12، 13).

[3]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص(345، 346).

- **العلوم الأدبيّة:**

تصدّر الأدب بشقّيه النّثري والشّعري صدارة العلوم اللّسانية؛ فصار مستعملا في سائر مجالات النّشاط العقلي، فهو كما يعرّفه ابن خلدون قائلا:«هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نَفْيِها، وإنّما المقصود منه عند أهل اللّسان ثَمَرَتُه، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم»[1] وهو ما يؤكّد أنّ الكلام موجود على فنّين أحدهما المنظوم وهو الكلام الموزون والمقفّى، والثّاني هو المنثور أي غير الموزون وكلّ نوع منهما يشتمل على أغراض كثيرة تندرج تحته.

ونجد في حاضرة بجاية أنّ الآداب قد ازدهرت وبرع فيها علماء وأدباء وشعراء عدّة، فتراوحت الفنون النّثرية بين الرّسائل بأنواعها من ديوانية وإخوانية وخطابة ومناظرات وتوقيعات ومقامات ونصوص نقدية، نذكر من بين هؤلاء الأدباء أبو عبد الله محمد بن دفرير الذي كان أحد كتّاب الدّولة الحمّادية زمن يحيى بن العزيز الحمّادي، وقد أورد المؤرّخون رسالة له كتبها بأمر من السّلطان يستنجد فيها أهل موالاته ويستعطفهم «فجاء أسلوبها رقيقا بليغا، عبّر فيه الكاتب عن خَور الأمير أمام ما دهاه، وعن استعطافه أمراء العرب لِيُنجِدوه، وتأنّق في تنظيم الأفكار بألفاظ منتقاة، جميلة التّنسيق ،بيّنة الغرض، واضحة المعنى، خالية من التهويل والمبالغة محلّاة بسجع قصير مقبول الصّنعة»[2] وهذا إنّما يدلّ على حسن اختيار الحكّام لكتّابهم ممّن يتمكّنون من اللّغة ويمتلكون ناصية البيان ولهم نباهة وكفاءة علمية وأدبيّة.

هذا فضلا عن تلك الرّسائل المتبادلة بين الأدباء ببجاية وسائر الحواضر الأخرى، نورد منها المراسلات التي كانت بين أبي محمد الحق بن ربيع البجائي وأبي المطرّف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي، حيث يصف الغبريني كتابة أبي المطرّف قائلا:« ما رأيت من الكتّاب ما أعجبني مثل كتب أبي المطّرف فهو من أهل العلم، وكتابته علميّة أدبيّة وغير مقتصرة على نوع من الأدب

---

[1] - المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 763.

[2] - الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمد أبو رزّاق، ص 182.

بل تجمع بين كتابة العلماء والأدباء، وهذا المعنى هو الذي تميّز به عمّن عداه وسبق به من سواه»[1] وهذا النّوع من الرّسائل يندرج تحت موضوع الرّسائل الإخوانية يتبادله الكتّاب بينهم للشّكر والتّهنئة والتّعزية والعتاب والحنين فيأتي مسجوعا متفنّناً فيه.

وعرفت الحاضرة أيضا انتشار نوع مهمّ من الكتابة الفنّية وهي الخطابة تبعا للظّروف الاجتماعية التي عاشتها بجاية فأولاها الموحّدون أهمية كبرى لقدرتها على مخاطبة العقل، منها خطبة ابن تومرت التي ألقاها على الموحّدين فقال: «واعلموا وفّقكم الله أنّ المجسمين والماكرين، وكلّ من نسب منهم إلى العلم أشد في الصدّ عن سبيل الله من إبليس اللّعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولون فإنّه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله»[2] فالمتتبّع للخطب الموحّدية يلمس مدى ارتباطها بالإسلام ودعوتها للتّوحيد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وضرورة اكتساب العلم والعمل به، فتأتي مرتجلة متضمّنة للحجج والأدلّة الشّرعية بأسلوب راق ومقنع وبليغ.

كما يعدّ النقد الأدبي فناً متميّزا من فنون النثر بفضل تقديره للعمل الأدبي وبيان قيمته وإصدار الأحكام عليه، وقد أفاد النّقد المغربي كثيرا من نظيره المشرقي إلّا أنّه «لابدّ من الاعتراف بأنّ النّقد المغربي قد استطاع أن يؤصّل نفسه، ويؤسّس لمدرسة نقديّة كان لها الأثر في ما لحقها من نظريات نقدية متجدّدة فيما بعد»[3] وذلك تبعا لِمَا قدّمه أبناء هذا الإقليم من إسهامات قيّمة في الدّراسات النّقدية والبلاغية نذكر منهم عبد الكريم بن إبراهيم النّهشلي صاحب كتاب الممتع في علم الشّعر وعمله، وابن رشيق المسيلي صاحب كتاب العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، فبهذين المصنّفين

---

[1]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص(300، 301).

[2]- عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح قربة، ص109، وتطوّر الحياة الثقافيّة والفكريّة في عهد عبد المؤمن بن علي، عبد النّاصر بوعلي، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الخامس، ص 66.

[3]- النّقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوّره، محمد مرتاض، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، دط،2000م، ص 31.

ارتاد النّاقدان أفق النّقد ومهّدا السّبل لغيرهما لسبر أغواره، فكان المصنّفان من أهمّ الكتب النّقدية التي اعتمد عليها الأدباء ببجاية ودرسوها واستعانوا بما جادت به من فوائد.

أمّا عن الفنون الشّعرية فهي أيضا قد عرفت انتعاشا كبيرا ببجاية على يد ثلّة من الأدباء والعلماء باختلاف تخصّصاتهم، وتعدّدت أغراضها وتنوّعت كشعر التّصوف والزّهد والمدائح الدّينية والرّثاء والوصف والغزل والمدح وغيرها من الأغراض، فنال مدح سيّدنا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) جانبا كبيرا من الاهتمام؛ فعكف الشّعراء البجائيون ينظمون المدائح النّبوية يُشيدون فيها بخصاله ومعجزاته ويتشوّقون لزيارة قبره الشّريف، مثلما فعل الشّاعر الأديب محمد بن الحسن التّميمي القلعي حيث يقول:

وَإِنِّي لَأَدْعُـو اللهَ دَعْوَةَ مُـــذْنِبِ   عَسَـى أَنْظرُ البَيْتَ العَتِيقَ وَأَلْثـمُ

فَيَا طُـولَ شَوْقِي لِلنَّبِي وَصَــحْبِهِ   وَيَــا شَدَّ مَا يَلْقَى الفُـؤَادُ وَيَكْتُمُ[1]

فهو في هذه الأبيات يتضرّع لله سبحانه وتعالى ويطلب منه العفو وغفران ذنوبه، وتمكينه من الوصول للرّوضة الشّريفة وزيارة قبر النّبي (عليه الصّلاة والسّلام)، وعلى غرار ما نظمه هؤلاء الشّعراء من مدائح نجد الزّهاد هم أيضا مزجوا أشعارهم بمدائح خير الأنام فيقول أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن الجنان:

صَلُّـــوا عَلَى الزَّاكِي الكَرِيمِ مُحَمَّدِ   مَـا مِثْلُـهُ فِي المُرْسَــلِينَ كَرِيمَــا

ذَاكَ الذِي حَازَ المَكَارِمَ فَاغْتَدَتْ   قَــدْ نُظِـمَتْ فِي سِـلْكِهِ تَنْظِيمَا[2]

حيث امتاز هذا النّوع من النّظم بقدرته على تحريك المشاعر ودقّة وصفه لِمَا يُعانيه الشّاعر من أشواق عامرة وحنين دافق للبقاع المقدّسة؛ وسط جوٍّ من الخشوع يملأه اليقين وحبّ التّقرب إلى الله بالقول والفعل.

[1]- معجم أعلام شعراء المدح النّبوي، محمد أحمد درنيقة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط، 2003م، ص 341.

[2]- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقري التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، مج07، ص 440.

كما عمد المتصوّفة ببجاية للتّعبير عن حياتهم الدّينية وأحوالهم الدّنيوية فيما نظموه من شعر، تتخلّله بعض الرّموز التي لا يظفر بمعناها إلّا أهل التصوّف[1] وقد كان شيخنا الجليل أبي مدين شعيب أحد أبرز الشّعراء الصّوفيين الذين استعملوا هذه الرّموز وهي الخمرة، والطّبيعة، والمرأة للتّعبير عن الحبّ الأسمى وهو الحبّ الإلهي فنجده يقول:

أَدِرْهَا لَنَا صِرْفًا وَدَعْ مَزْجَهَا عَنَّـــا   فَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا نَرَى المَزْجَ مُذْ كُنَّا

وَغَنِّ لَنَا فَالوَقْتُ قَدْ طَابَ بِاسْمِهَا   لِأَنَّا إِلَيْهَـــا قَدْ رَحَلْنَـــا بِهَا عَنَّـــا[2]

وهذه الأبيات تنضوي تحت نوع القصائد الخمرية الصّوفية التي أبَى أبي مدين شعيب إلّا أن يجعلها إحدى منابع إلهامه، فتغزّل بذكرها للتّعبير عن لذّتها الرّوحية وهي الفناء في الله.

ومن الشّعراء الذين حذقوا الشّعر ببجاية أيضا أبي علي الحسن بن الفقّون الذي برع في وصف الطّبيعة وسائر المعالم الأثرية والفنّية، وذلك حينما نظم قصيدة يصف فيها قصر الرّفيع ببجاية فيقول:

عَشَـــوْنَا إِلَى نَـــارِ الرَّفِيـعِ وَإِنَّمَـــا   عَشَـوْنَا إِلَى نَـارِ النَّدَى وَالمُـحَلَّقِ

رَكِبْنَـــا بِوَادِيــــهِ جِيَـــادَ زَوَارِقٍ   نَزَلْنَا إِلَيْهَـــا عَـنْ ضَـــوَامِرَ سُبَّقِ[3]

فقد شكّلت حاضرة بجاية مصدر إلهام لهذا الشّاعر فانطلق لسانه واصفا جمالها الخلّاب بأبيات اجتمع فيها الوصف الدّقيق ورونق التّصوير.

---

[1]- يُطلق أيضا على الرّموز الصّوفية تسمية الموضوعات؛ وهي تتراوح بين الطّلل والغزل والخمر، فتتداخل مع بعضها البعض في قصيدة واحدة أو تأتي مقطعة، ظاهرها شيء وباطنها شيء آخر، وهي تعدّ من القرائن الأساسيّة التي ترفع القصيدة بمقتضاها دلاليّا إلى أجواء صوفيّة، للتّفصيل ينظر شعر أبي مدين شعيب الرؤيا والتّشكيل، مختار حبّار، ص60.

[2]- شعراء الجزائر على عهد الدّولة الحمّادية سير ونصوص، مختار حبّار، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، دط، 1998م ، ص 33.

[3]- الخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، محمد مرتاض، دار الأوطان للطّباعة والنّشر، الجزائر، ط1، 2000م، ج2 ،ص531، وإرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1وج2، ص 285.

أمّا الشّعراء الذين اختاروا غرض المدح فهم كُثر، وقد تعدّدت قصائدهم بتعدّد الأحوال وتغيّرها، من أبرزهم ببجاية يوسف بن المبارك الذي كان من أحد موالي بني حمّاد وقد لهج لسانه بمدحهم فقال:

هَنَّاكُـمُ النَّصْـرُ وَنَيْلُ النَّجَـاحِ فِي يَوْمِكُـمْ هَذَا بِسَـمْرِ الرِّمَاحِ

فَأَنْتُـمْ الصّـيدُ الكِـرَامُ الألى شَـادُوا العُلَا بِالنَّائِلِ المُسْتَمَـاحِ[1]

فقد جرت عادة حكّام بجاية أنّهم دأبوا على تقريب العلماء والشّعراء من بلاطاتهم وإكرامهم، فقابلهم هؤلاء الشّعراء بمدحهم ووصف أفعالهم الكريمة وسجاياهم النّبيلة في نظم جيّد رائق.

كما برع الشّعراء البجائيون أيضا في نظم قصائد الغزل، نذكر منهم الأديب أبي محمد عبد الله بن علوان الذي استهلّ مقطوعته الغزليّة بقوله:

مِنْ أَرْضِ نعمَانَ هَبَّتْ نسْمَةُ السَّحَرِ جَاءَتْ بِنَشْـرِ عَبِيرٍ طِيبٍ عَطِـرِ

نَمَتْ بِسِرِّ خُزَامَـى الجَزِعِ وَاحْتَمَلَـتْ مَا ضَاعَ مِنْ نَفَحَاتِ البَانِ والسّمُرِ[2]

فقد عبّر ابن علوان في مقطوعته عن عواطفه وأشواقه وما يجيش في صدره من مشاعر الحبّ، وآلام الفراق والجزع لصدّ المحبوب فاشتمل النّظم على معاني جميلة وموسيقى عذبة وصور بارعة.

- التّاريخ والتّراجم:

لم يكن حظّ التّاريخ أقلّ نصيبا عن سائر العلوم الأخرى في الرّواج والذّيوع؛ بل حظي بالاهتمام الوافر لعلاقته الوطيدة بعلوم جمّة، حيث يصفه ابن خلدون قائلا «إعلم أنّ فنّ التاريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم،

---

[1]- تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمّار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2006م، ص143، والحركة الأدبية في بجاية بني حمّاد، رشيد مصطفاوي، مجلّة الأصالة، العدد 19، مج07، ص 276.

[2]- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 314، وموسوعة الشّعر الجزائري، الرّبعي بن سلامة وآخرون، دار الهدى للنّشر، الجزائر، ط1، 2002م ،ج1، ص 54.

والأنبياء في سيرهم، والملوك في دُوَلهم وسياستهم، حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا»[1] فبه نستطيع تدوين أخبار ما سلف من الأمم ومعرفة حوادث زمانهم في شتّى ميادين الحياة على شكل مصنّفات تاريخية تعود إليها الأجيال اللّاحقة للدّراسة والاقتباس والاعتبار.

وقد شارك البجائيون في إثراء الدّراسات التّاريخية وتدوين الوقائع الماضية نذكر منهم أبي عبد الله محمد بن علي الصّنهاجي «الذي عُدَّ من كبار المؤرّخين الذين ارتبطوا بالدّولة الحمّادية وانتسبوا إليها، فألّف أكبر كتاب في التّاريخ الصّنهاجي وهو النّبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة، إضافة إلى كتاب أخبار ملوك بني عبيد»[2] فهذان المؤلَّفان قد أظهرا مدى براعة الصّنهاجي في فنّ التّاريخ وتقييد أخبار الملوك؛ ممّا جعلهما من المصادر المهمّة التي يرجع إليها كثير من المؤرّخين اللّاحقين له.

وإلى جانب هذه المؤلّفات التّاريخية نجد كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحّدين لمؤلّفه أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّا بالبيذق، وهو كتاب قيّم ذاع صيته في أرجاء الدّولة الموحّدية وما بعدها« وهو مدوّن في شكل مذكّرات ترصد تحرّكات ابن تومرت عبر الدّول في كلّ من تونس وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش وصولا إلى تينمل موضع بيعته وحملاته العسكريّة ثمّ وفاته»[3] فهو يعدّ أساس تاريخ الموحّدين وبداية تجسيد دولتهم على أرض الواقع، فضلا عن استعراض الكاتب لبعض الآثار العمرانيّة، وبعض الإفادات الهامّة بأسماء المنتمين إلى العلم بشمال إفريقيا وإسهاماتهم المتنوّعة.

ومن جملة المؤلّفات ذات العلاقة المتينة بالتّاريخ، نجد كتب تراجِم حياة مختلف الأعلام والعلماء ببجاية، وذِكر أحوالهم ورحلاتهم وما صنّفوه من كتب، وما قاموا به من أعمال جليلة، فكان من أبرز مَنْ اشتهر بكتابة التّراجم ببجاية أبي العبّاس أحمد الغبريني بكتابه الموسوم عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، وهو مؤلَّف ينحصر منهجه «في التّرجمة لمشاهير المائة السّابعة

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكار، ص 13.

[2]- ينظر دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، عبد الحليم عويس، ص 269.

[3]- ينظر المصادر العربيّة لتاريخ المغرب، محمد المنّوني، مؤسسة بَنْشَرَة للطّباعة والنّشر، الدّار البيضاء، دط، 1983م، ج1، ص 43.

من علماء بجاية الأصلاء أو الوافدين عليها، وتقيّد بهذا المنهاج ولم يخرج عن نطاقه إلّا نادرا ولعلّه يذكرها، ومن ذلك أنّه أورد تراجم لبعض علماء القرن السّادس الهجري، فتراوحت تراجمه زهاء مئة وتسعة وأربعين عالِماً»[1] ترجم لهم بتعدّد تخصّصاتهم واتّجاهاتهم الفكريّة بين العلوم الدّينية واللّسانية والعقلية؛ ممّا جعل الكتاب ينطوي على قيمة علميّة وأدبيّة تؤهّله ليكون مصدرا أساسا للحركة الثقافيّة ببجاية في القرن السّابع.

ج- العلوم العقلية:

وتسمّى أيضا العلوم الحكميّة أو الكونيّة، وقد اعتنى المسلمون بها رغبة منهم في توسيع مداركهم وإطلاق العنان لعقولهم من أجل البحث والتفكّر والتّجريب والاستنتاج، وتشمل هذه العلوم كُلًّا من الطّب والصيدلة والعلوم العدديّة والمنطق والفلسفة والعلوم الفلكيّة وغيرها.

وقد ازدهرت العلوم العقليّة ببجاية وبرع فيها علماء مبرزون من البجائيين وإخوانهم الوافدين عليها من مختلف البلدان، فضلا عن طلّاب العلم الرّاغبين في الدّراسة والاستزادة من علوم الحاضرة ومصنّفات أبنائها[2].

- علم الطبّ والصّيدلة:

نال علم الطبّ جانبا من الاهتمام لدى العلماء المسلمين وغيرهم، فهو من حيث أهميته لا يمكن لأيّ أمّة الاستغناء عنه لأنّه «صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصحّ، فيحاول صاحبها حفظ الصحّة وبُرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبيّن المرض الذي يخصّ كلّ عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض الّتي تنشأ عنها، وما لكلّ مرض من الأدوية،

[1]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط 2، 1981م، ص (35، 36).

[2]- تُعدّ بجاية مركزا مهماً من المراكز الثّقافيّة بالمغرب الأوسط، فهي محطّ رحال طلّاب العلم ورجالات الكلام والفلسفة والتصوّف والطبّ، وإليها يأوي المشتغلون بعلوم الأوائل وأصحاب العقول المستقلّة، للتّفصيل ينظر الحياة العقلية في بجاية، عمّار طالبي، مجلة الأصالة، العدد 19، مج 07، ص153.

مستدلّين على ذلك بأمزجة الأدوية وقُواها على المرض بالعلامات المؤذن بنضجه وقبوله الدّواء»[1] فهذه الصّناعة تسمّى الطبّ وهي تسعى لحفظ صحّة الإنسان ووقايتها وعلاجها بشتّى أشكال الأدوية من أشربة ومعاجن وعقاقير نباتيّة، وهو ما يثبت تلك العلاقة الوطيدة بين الطبّ والصيدلة وقدرتهما معا على تشخيص المرض ثمّ علاجه.

انتشر هذان العلمان بحاضرة بجاية وبرع فيهما أطبّاء وعلماء عدّة فعرفت دولة بني حمّاد «بروز شاعرين ماهرين اشتهرا بالطبّ ومداواة المرضى وهما علي بن الطّبيب، وابن أبي المليح الطّبيب»[2] وهذا دليل على أنّ العلماء قديما لم يعرفوا التخصّص في علم معيّن؛ بل لهم مشاركة في كثير من العلوم، هذا إلى جانب أطباء آخرين وفدوا من القلعة مثل عمر بن البيدوخ أبو جعفر القلعي ومحمد بن أبي بكر المنصور القلعي الذيْن كانت لهما مشاركات في الطبّ وإعداد الأدوية.

وعلى هذا النّحو واصل الموحّدون وبنو حفص الاعتناء بهذين العلمين، حيث شُيّدت البيمارستانات وأُلحِق بها الأطبّاء والصّيادلة من مختلف الأرجاء، فضلا عن تدريس الطّلبة وترجمة المؤلّفات الأجنبية للاستعانة بها، ومن أشهر الأطبّاء آنذاك الطّبيب أبي القاسم محمد بن أنداراس المرسي البجائي موطنا الذي قال عنه الغبريني إنّه «تبسّط للطبّ طبيبا باحثا جيّدا، وله معرفة بعلم العربيّة، وكانت له حدّة ذهن وجودة فكر؛ فقد تبسّط لإقراء الطبّ والعربيّة فاجتمع حوله الطّلبة حتّى إذا سُئِلَ عن المسألة الطبيّة كثيرا ما يتوقّف عن الجواب إلّا بعد نظر، كما تولّى طبّ الولادة ببجاية إلى جانب أقرانه، وله رجز نظم فيه بعض الأدوية»[3] فهو إلى جانب تضلّعه في علم الطبّ والأدوية أقرأ الطّلبة العديد من المصنّفات الطبيّة المفيدة، وكلّف تلميذه الغبريني بمساعدته في إعداد أرجوزته التي تضمّ أسماء الأدوية فأجابه لذلك وبخاصّة أنّ البيئة الطبيعيّة لبجاية تحوي الكثير من النّباتات والأعشاب الطبيّة التي تصلح لتحضير الأدوية.

1- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 650.

2- ينظر الدّولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، رشيد بورويبة، ص199.

3- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص(75، 76).

- العلوم العدديّة:

تعدّ العلوم العدديّة من أهمّ العلوم التي ازدهرت لدى المسلمين، وهي تضمّ الحساب والجبر والهندسة وأساسها «معرفة خواص الأعداد من حيث التّأليف إمّا على التّوالي أو بالتّضعيف»[1] ففي أيّة أمّة من الأمم نجد أنّ الحساب ضروري ويستعمل في كثير من مجالات الحياة.

وقد أولى علماء بجاية أهميّة خاصّة للعلوم العدديّة، فنبغ فيها علماء كُثر أسهموا في تطويرها وتدريسها للطّلبة الذين وفدو إلى بجاية من كلّ حدب وصوب حتّى من أوربا من أمثال الرّياضي البيزي (لوناردو فيبوناتشي) «الذي التحق بوالده إلى بجاية وهناك تعلّم على يديه قبل أن يوكله إلى أستاذ يدعى علي البجائي ليعلّمه ويثقّفه، فانكبّ على دراسة مادّة الحساب والرياضيات، كما أخذ عن المتعاملين التّجاريين طريقة العدّ السّريعة مستخدما الأرقام الهنديّة الغبارية التّسعة والصّفر الدّائري»[2] فبعدما تلقّى هذه العلوم من بجاية وحذقها فإنّه نقلها إلى أوربا حتّى تتمّ الاستفادة منها، وهذا أكبر دليل على أنّ الحاضرة هي عبارة عن مركز ثقافي وحضاري رائد وصل تأثيره إلى جنوب أوربا وإيطاليا.

- علم الفلك والجغرافيا:

أدّى علم الفلك دورا هاماً في حياة المسلمين اليوميّة والعلميّة، فهو علم يُيسّر لهم معرفة مواقع النّجوم والكواكب، فيعرّفه ابن خلدون قائلا:« هو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمحرَّكَة والمتحيّرة، ويستدلّ بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها لهذه الحركات المحسوسة بطرق هندسيّة»[3] وقد سعى العلماء في هذا المجال للاستعانة بمؤلّفات الهند والفرس واليونان وقاموا بترجمتها ثمّ شرحها وابتكار أشياء جديدة لم يصل إليها أحد من قبل.

[1]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 634.

[2]- ينظر موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحيى بوعزيز، ج1، ص 55.

[3]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 641.

وقد اهتمّ البجائيون بهذا العلم وبخاصّة ما تعلّق بمعرفة مواقيت الصلاّة والصّيام والحجّ، فكان من أبرز الكتب التي اطّلعوا عليها وأفادوا منها «كتاب البارع في أحكام النّجوم الذي نُقِل إلى الإسبانية واللاّتينية، وكتاب أرجوزة في الأحكام الفلكيّة لعلي بن أبي الرجال التاهرتي»[1] كما كان الموحّدون أكثر النّاس شغفا بعلم الفلك وحثّا على دراسته وتأليف المصنّفات حوله، بل نجد أنّ خلفائهم كانوا هم أيضا فلكيّين وعلماء في التّنجيم كحال الخليفة يعقوب المنصور« الذي أسّس في مسجد إشبيلية الجامع برجاً عالياً ليكون مرصدا لرصد النّجوم، واتْبَعَه بوضع أزياج فلكية عن كسوف الشّمس»[2] فعُدّت هذه المراصد الأولى من نوعها، وهكذا زوّد هؤلاء الفلكيّون المسلمون أوربا بالمعلومات والنّتائج الفلكيّة التي توصّلوا إليها واستحقّوا الثّناء عليها، وكذلك فعل أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي الشّهير محيي الدّين بن عربي المرسي البجائي موطنا «حيث يُظهر لنا مُؤَلَّفُ الغبريني أنّ له كتابا في علم الفلك هو جامع مواقع النّجوم ومطالع أهلّة الأسرار والعلوم»[3] وكثيرا ما يرتبط علم الفلك بالجغرافيا لاهتمام المسلمين بمعرفة كلّ ما يخدم رحلاتهم وتنقّلاتهم إلى مختلف البقاع وبخاصة لأداء فريضة الحجّ، فأسهم الجغرافيون «في غرس حبّ السّياحة والتّنقل والاطّلاع على أحوال الأمم، وزيارة الأماكن والمشاهد الدّينية المقدّسة، كما أسهموا في توسيع مفهوم الإنسان عن الكون وإعطائه فكرة دقيقة عن الكوكب الذي يعيش فيه»[4] فكان من أبرز هؤلاء الجغرافيّين الذين طارت شهرة مؤلّفاتهم في الآفاق وتداولها النّاس والبجائيون بخاصّة الإدريسي وابن جبير والعبدري وابن فكّون القسنطيني وغيرهم.

---

[1]- دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، عبد الحليم عويس، ص 271.

[2]- ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص109.

[3]- ينظر بجاية النّاصرية دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية، محمد االشّريف سيدي موسى، ص300، وعنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 167.

[4]- ينظر النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة، ص 143.

- علم المنطق والفلسفة:

زيادة على مختلف العلوم العقليّة لدى المسلمين فإنّهم اهتمّوا بعلم المنطق أيضا، وهو«القوانين التي يُعرف بها الصّحيح من الفاسد في الحدود المعرِّفة للماهيات والحجج المفيدة للتّصديقات، وذلك لأنّ الأصل في الإدراك إنّما هو المحسوسات بالحواس الخمس»[1] فقد كان هذا العلم ممنوعاً ومذموماً من لَدُنِ العلماء والفقهاء الذين حظروا تعاطيه وتعليمه؛ إلى أن برز الغزالي ثمّ ابن تومرت الذَيْنِ تدارسوه وفتحوا باب الحوار والتفكّر في مسائله، فبرع فيه بعض العلماء من أمثال أبي محمد عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر الذي «كان له تحصيل في العلوم الدّينية ومعرفة بالحكمة وبراعة في علم المنطق، وخصوصا على طريقة المتأخّرين ولم يكن في وقته أعلم منه بكشف الأسرار الذي وضعه الخونجي في علم المنطق أعلم به من واضعه مع أخلاق حسان ونزاهة وعفاف وعدم الْتِفَات إلى ما عند النّاس»[2] كما لا ننسى عددا من العلماء الآخرين الذين عكفوا على إقراء طلبتهم كتب الغزالي في المنطق، مثل أبي العبّاس أحمد بن خالد وأبي الحجّاج يوسف بن سعيد الجزائري.

وكذلك الأمر بالنّسبة للفلسفة التي عُدّت من العلوم التي تجرّ المسلم إلى الكفر والإلحاد؛ إلّا أنّه وبتَوَلّي الموحّدين لزمام الحكم نفقت سوقها وصارت من أبرز العلوم التي تعلّمها الخاصة[3] والعامّة، وطالعوا كتبها وأسهموا في حلّ مسائلها، منهم ابن سبعين الذي سكن بجاية وشارك في معقول العلوم ومنقولها حيث«كان ذا معرفة بالفلسفة اليونانية، ناقدا لها من خلال الفلاسفة الإسلاميّين نقدا نفسانياً لـمَّاحاً وعنيفاً في أغلبه، تأثّر بابن عربي تأثّرا كبيرا وإن كان أكثر منه ميلا إلى الفلاسفة»[4]

---

[1]- المقدمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 644.

[2]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 233.

[3]- دأب حكّام الموحّدين للاعتناء بالفلسفة وعلى رأسهم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن؛ حيث شهدت الفلسفة في عهده نهضة كبيرة فعكف على تعلّمها والاشتغال بها وجمع أجزائها في خزائن الكتب، للتّفصيل ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص97.

[4]- الحياة العقلية في بجاية، عمّار طالبي، مجلّة الأصالة، العدد 19، مج 07، ص 170.

وبفضل هذا الاهتمام بالفلسفة فإنّها ازدهرت واستفاد من كتبها كثير من العلماء المسلمين والأجانب وصارت تدرَّس في معاهدهم إلى غاية اليوم.

وزبدة القول إنّ أبناء بجاية قد استطاعوا النّهوض بالحركة العلميّة والثقافيّة بها، بفضل عنايتهم بالعلم وتبجيلهم للعلماء الذين حرصوا على طلب العلم في مختلف تخصّصاته، فنالت لديهم العلوم الدينيّة النّصيب الأوفر من الاهتمام، تَلَتْها العلوم اللّسانيّة والأدبيّة،كما أنّهم لم يغفلوا عن الخوض في العلوم العقليّة، فتكوّنت كوكبة من العلماء والمؤلّفين استطاعوا أن يخلقوا تراثاً علمياً متنوّع المشارب.

وأخيرا فإنّه من خلال استعراضنا لمظاهر الحركة الثقافيّة ببجاية في هذا الفصل؛ يتجلّى أنّ الحاضرة قد أصبحت مركزا مهماً من مراكز الفكر في المغرب الإسلامي، ولها دور فعّال في دفع الرّكب الحضاري للازدهار ويستبين ذلك في الآتي:

- اصطبغ حكّام بجاية ورعيّتها بصبغة علميّة دفعت بهم للاهتمام بالعلماء، وكلّ ما يَمُتّ بِصِلَة للعلم وسعيهم الحثيث لنشره في كلّ أرجاء الحاضرة، بل والمشاركة في هذا الفعل مادياً ومعنوياً.
- تحوّلت بجاية إلى قطب علمي رائد يجمع في ثناياه كثيرا من المؤسّسات والمعاهد العلميّة بمختلف أشكالها، وفيها دأب المدرّسون على تلقين العلوم والمعارف؛ باستعمال شتّى الطّرق والمناهج ليضمنوا التّحصيل الجيّد والمتّزن لطالب اليوم وعالِم الغد.
- ازدهر النّشاط العلمي ببجاية وعمُرت المعاهد بالطّلبة والعلماء والرّحالة، فتنوّعت المعارف وبرزت التّخصصات وتباينت بين العلوم الدّينيّة والأدبيّة والعقليّة؛ وكثُر التّأليف حولها في شكل مصنّفات لازالت إلى اليوم تُدرّس في أعرق جامعات العالم.

الفصل الثّاني: مظاهر الحركة الثقافيّة بتلمسان

أوّلا: عناية حكّام تلمسان بالعلم والعلماء

ثانيا: المؤسّسات التعليميّة وحركة التّعليم بتلمسان

ثالثا: تعدّد العلوم بتلمسان وأشهر روّادها

نالت تلمسان أهمية بالغة بين المراكز الثّقافيّة والعلميّة الكبرى بالمغرب الأوسط، حيث غدت قلعة منيعة لعديد الحكّام والملوك الذين تعاقبوا على أرضها؛ ومنبعا علمياً دفّاقاً ينهل منه الكثير من العلماء وطلّاب العلم من شتّى بلدان المغرب الإسلامي، فازدهر عمرانها وعمرت أرجاؤها بجموع غفيرة من العلماء الذين دأبوا على نشر المعارف وتلقينها، وتدوين المصنّفات المتنوّعة وتبادلها، وهو ما جعل المدينة تبلغ شهرة ذائعة الصّيت سجّلت إسهاماتها بأحرف من ذهب.

أوّلا: عناية حكّام تلمسان بالعلم والعلماء

برزت تلمسان منذ عهود بصِفتها مركزاً إدارياً مرموقاً لكثير من الدّول، فأدّت دوراً هاماً في جميع مجالات الحياة، وبخاصّة ما تعلّق بازدهار الحركة العلميّة والثقافيّة، وصارت مادّة علميّة ثريّة كثُر الحديث عنها في عدّة مصادر تاريخيّة، باعتبارها من أحد أكبر المدن الإسلاميّة علماً وفكراً ومعرفةً؛ إلّا أنّ هذا التميّز والرُّقي بهذه الحاضرة لم ينشأ من عبث؛ وإنّما تضافرت في تكوينه عوامل جمّة أبرزها سعي الحكّام الحثيث للرّفع من مستوى العلم والثّقافة بالمدينة منذ القديم، وصولاً إلى عصر المرابطين فالموحّدين ثمّ الزيانيّين[1] فتأتّى لهم ذلك واستطاعت تلمسان أن تبسط إشعاعاتها العلميّة والفكريّة إلى أبعد نقطة من نقاط المغرب الإسلامي بل والمدن المجاورة له.

تعدّ النّزعة العلميّة للحكّام والأمراء بالمغرب الأوسط فعلاً متوارثاً بين الأجيال، فنجد المرابطين قد كبحوا قبائل زناتة وأصلحوا شؤون المغرب الإسلامي، واستطاعوا بناء دولة قوية مترامية الأطراف أخضعت عدّة دول لسياستها بقيادة أمراء من أهل الدّين والعلم، سعوا لنشر تعاليم الدّين وفق نهج

[1]- نالت حاضرة بجاية أيضا عناية خاصّة من لدن حكّامها بالعلم والعلماء، ومحاولاتهم الكثيفة لدفع عجلة النّمو الثّقافي عبر عصور متنوّعة منذ دخول الحمّادين والموحّدين فالحفصيّين، للتّفصيل ينظر بجاية حاضرة البحر ونادرة الدّر، تواتي بومهلة، ص (40إلى 48).

السّلف ودعّموا المذهب المالكي، وشجّعوا العلم والعلماء من أمثال الأمير يحيى بن إبراهيم[1] وهو الزّعيم السّياسي لدولة المرابطين وواضع قوانينها ودستورها الذي دأب على تحسين أوضاع بلاده وتبديل حالها، فما كان منه إلّا أن أخذ يبحث عمّن يُعينه على تحقيق أهدافه، فانطلق لأداء فريضة الحجّ في عام 427هـ تاركاً الإمارة لابنه إبراهيم بن يحيى، وبما أنّ العادة جرت أن يقترن الحجّ بطلب العلم فإنّ الأمير يحيى « انطلق يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهيّة طالباً للعلم لإرواء روحه الظّمأى إلى نور المعرفة الإسلاميّة التي اندرست معالمها في بلاده »[2] فما يلفت الانتباه أنّ هذا الأمير بفضل سداد رأيه ونفاذ بصيرته، قد تمكّن من أداء الفريضة وحرَص على التّعلم ولقاء أئمّة زمانه والبحث بينهم عمّن سيُرافقه لتَفقِيه قومه وتعليمهم شرائع الإسلام، فتأتّى له ذلك وجلب معه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي[3].

راح الفقيه عبد الله بن ياسين - وهو الزّعيم الدّيني للمرابطين- يؤدّي رسالته في نشر تعاليم الدّين الصّحيحة بين قبائل صنهاجة التي حُرمت من طلب العلم بسبب عزلتها وبُعدها عن المراكز الثقافيّة بالمغرب الإسلامي، فاتّصف « بصفة الفقيه المشاور المعلّم، واستطاع بسبب معرفته اللّهجات البربريّة، وصدق يقينه، وإخلاصه أن يجتذب إليه الطّلبة من كلّ فجّ، فكانوا يشدّون إليه الرّحال من أقصى الدّيار يحضرون حلقته ويستمعون إلى دروسه »[4] فهو بهذا العمل أقبل يُنير عقول النّاس بالعلم ويُقرّبه إلى إفهامهم، فابتدأ بعلوم الدّين من قرآن وحديث لأنّه دستور المسلمين ولن تستطيع

---

[1] - هو الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي صاحب الفكرة الأولى لتوحيد صفوف قبائل الملثّمين وفق عقيدة التّوحيد، امتياز برجاحة عقله، وبعد نظره، وصدق إيمانه ممّا جعله يتزعّم قبيلة جدالة، وله رئاسة قبائل صنهاجة الصّحراء، للتّفصيل ينظر انتصارات يوسف بن تاشفين، حامد محمد الخليفة، مكتبة الصّحابة للنّشر، الإمارات، الشّارقة، ط1، 2004م، ص14.

[2] - تاريخ دولتي المرابطين والموحّدين في الشّمال الإفريقي، علي محمد الصّلابي، ص21.

[3] - هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي أصله من قرية تماماناوت في طرف صحراء غانة، كان من حذّاق الطّلبة اجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية فأصبح عالماً ديّناً تقياً مربياً فاضلاً، للتّفصيل ينظر المرجع نفسه، ص27.

[4] - قيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي للنّشر، القاهرة، دط، دت، ص119 /نقلاً عن الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة لذي الوزارتين محمد لسان الدّين بن الخطيب، مطبعة التّقدم الإسلامية، تونس، ط1، 1329هـ، ص9.

أيّ أمّة التّطور والتّقدم إلّا بإتّباعه، فتفتّحت أذهان العامّة لتعاليمه ووثقوا به وأقبلوا عليه بل وصاروا جيوشا مُطيعين له، ودخلوا المغرب كمُصلحين فتمّ لهم ذلك.

نظّم أمراء المرابطين جانبي الدّعوة والعبادة في ربوع الدّولة كما أنّهم لم يُهملوا العناية بالنُّظُم العسكريّة والاقتصادية، والأهّم من ذلك محاولة الرّفع من مستوى الحركة العلميّة، وهو ما أدّى لنشر الدّعوة المرابطيّة في مختلف المدن بعد ذلك على يد أمراء محنّكين أبرزهم يوسف بن تاشفين[1] الذي آلت إليه إمارة الصّحراء وبلاد المغرب، فتفرّغ لمواصلة أعمال البناء بكلٍّ من مرّاكش وفاس ليتحرك نحو فتح بلاد المغرب الأوسط ثمّ ضمّ الأندلس إلى دولة المرابطين.

فانطلق يوسف بن تاشفين بجيوشه قاصدا بلاد المغرب الأوسط فدخلها واستولى على تلمسان سنة473هـ، لتصبح هذه المدينة من أحد أهمّ المدن المرابطيّة « حيث نزل المرابطون بالجانب الغربي من أقادير وهناك اختط يوسف بن تاشفين مدينة تاقرارت، بمكان معسكره وهو اسم محلّة بلسان البربر فضربوا سرادقاتهم وخيامهم، ولكن سرعان ما استحالت هذه السرادقات وهذه الخيام إلى دُور وقصور نزل بها أُولوا الأمر»[2] وبهذا اتّسعت تلمسان بإضافة تاقرارت إليها، فكثر سكّانها واستفحل عمرانها ونفقت سوق العلم والمعرفة بها، وامتازت بازدهار ملحوظ في مجال العلوم الدينيّة والشّرعية أكثر من غيرها من العلوم، وهذا ما يؤكّده عبد الله كنّون بقوله: « لقد كان أساس دعوة المرابطين العلم، وعليه قامت دولتهم وإنّ رحلة يحيى بن إبراهيم الكدالي التي تمخّضت عن دخول عبد الله بن ياسين إلى الصّحراء لأعظم دليل على ذلك»[3] فالمعلوم أنّ أمراء المرابطين قبل يوسف بن تاشفين كانوا علماء متديّنين تجمعهم نزعة حبّ الدّين وتعلّمه، وبخاصّة علم الفقه، وهو ما ورثه هذا الأخير

---

[1]- هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تومرت-وفي نسخ أخرى ترموت أو ترقوق- بن ورتاقط بن منصور بن مصالة بن منصور بن أميّة بن وانصال من تليت اللّمتوني الصّنهاجي الحميري، كان رجلا خيّرا عادلاً، صالحاً شجاعاً، مرابطاً مجاهداً أيمن النّاس نقيبة، وأسعدهم ولاية، وألزمهم نصرا، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، ص (233، 234).

[2]- ينظر تلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمّار، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م، ص(42، 43).

[3]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج1 ،ص68.

عن شيوخه فصار يهتمّ بالجانب الثّقافي والفكري، ويشجّع العلماء والأدباء، ويسهم في نشر الدّين والعلم بين الرّعية الذين لم يتوانوا عن طلبه والاشتغال به فكان ذلك حافزاً له لدعمهم.

وقد استفادت حاضرة تلمسان إبّان هذه الحقبة من نصيب معتبر من تلك الحركة العلميّة المزدهرة إذ برز بها كمٌّ هائل من العلماء والفقهاء، والأدباء والشّعراء من أبناء المنطقة والوافدين عليها من مختلف الأماكن، فتوطّدت الصّلات بين العُدوتين المغربيّة والأندلسيّة « وتدعّمت العلاقات بين القطرين فاستفادت مدن المغرب الأوسط ومن بينها تلمسان كثيرا من النّاحية الحضاريّة والعلميّة، ونزح علماء الأندلس وأدباؤها إلى هذه المدن حاملين معهم أنواع العلوم والآداب والفنون»[1] فقد كانت الأندلس تزخر بالعلم والعلماء، ونتيجة لتشتّت السّلطة السياسيّة وتزايد هجمات النّصارى عليها هاجر عدد كبير من علمائها إلى تلمسان فكان لهم أثر واضح وبصمات جليلة في تطوّر الحياة الفكريّة، بالإضافة إلى أنّهم وجدوا بها بذور النّهضة العلميّة القويمة التي بذلها الأمراء في سبيل نشر الدّين والعلم.

اتّبع يوسف بن تاشفين سياسة الأمراء السّابقين فكان يقرّب الفقهاء والعلماء والصّلحاء إليه، فيستشيرهم ويأخذ برأيهم[2] ويغدق عليهم بالأموال والأرزاق والأعطيات « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كلّ علم فحوله، حتّى أشبهت حضرته حضرة بني العبّاس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتّفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[3] فقد حرص هذا الأمير على ضمّ العلماء إلى بلاطه، ليس فقط للاستعانة بهم على شؤون الدّولة وأعمالها بل لإثراء الرّصيد العلميّ وإضفاء جوّ التّنافس العلميّ والفكريّ، فأخذ العلماء يتسابقون

[1]- ينظر الجزائر في التّاريخ، رشيد بورويبة وآخرون، ج3، ص339.

[2]- استفتى يوسف بن تاشفين الفقهاء والعلماء فور وصول رسائل الاستنجاد من الأندلس فأشاروا عليه بالموافقة على إنقاذها، حتّى إذا اطمئنّ إلى موافقتهم شرع في هذه المهمّة، وهذا دليل قاطع على تقريبه للعلماء والفقهاء وتمكينهم من شؤون الحكم لمكانتهم الرّفيعة وآرائهم السّديدة، للتّفصيل ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، مكتبة الخانجي، مصر،ط1، 1980م، ص(337، 338).

[3]- ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي بن علي التّميمي، ص123.

لحضور تلك المجالس العلميّة المنعقدة بحضرة الحكّام الذين لم يخلوا عن تشجيعها والمشاركة فيها وهو ما «دفع بالعلماء والأدباء والشّعراء والكتّاب لحضورها، بل وقد الْتَفّ العلماء الأندلسيّون حول الأمراء في المدن المغربيّة كمرّاكش وفاس وتلمسان وسائر المدن الأخرى للمشاركة فيها وتقديم أنفس ما تجود بها قرائحهم الأدبيّة»[1] فبقدر ما يُسهم الأمراء في إثراء الحياة الثقافيّة بدولتهم فإنّ ذلك سينعكس بالإيجاب على الرّعية، فيُذكي فيهم الشّعور بالمسؤولية تجّاه المساعدة في الرّفع من مستوى الحركة الفكريّة فيسعَون جاهدين لفعل ذلك؛ حيث اهتمّ يوسف بن تاشفين بالعلم والعلماء، ولكنّه لم ينس الالتفات للأدب وأهله، بل أولى الرّعاية الخاصّة للأدباء والشّعراء والكتّاب، فنبغ الكثير منهم من أبناء الرّعية ومن الأمراء والقادة، أبرزهم الأميرة حوّاء بنت تاشفين- وكان تاشفين أخاً ليوسف بن تاشفين لأمّه- «فقد كان لهذه الأميرة مجلس يحضره الكتّاب والشّعراء فتُحاضرهم فيه، وممّن كان يحضر هذه المجالس ابن المرخي وابن القصيرة وغيرهم من الأدباء»[2] وهذا إنّما يدلّ على المشاركة الفعّالة للمرأة في مجال الأدب والكتابة ونظم الشّعر، وما لها من نباهة وفصاحة اللّسان وفطنة وبراعة في القول.

استمرّ يوسف بن تاشفين في إخضاع الدّول ونشر تعاليم الدّين الصّحيحة ضمن دولة المرابطين، وسمع النّاس عن سياسته الحكيمة وسيرته الطيّبة، وطار ذكره في الأفاق إلى أن توفي سنة500هـ فخلفه ابنه علي[3].

تربّع علي بن يوسف بن تاشفين على حكم المرابطين ، وقد واصل سياسة أبيه في تسيير أمور الدّولة « فاضطلع أبرع اضطلاع، وقام أحمد مقام، وألبسه الله المهابة، وقذف له في القلوب المحبّة،

---

[1]- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص(417، 418).

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص418.

[3]- هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللّمتوني، كان ملكا كبيراً فاضلاً معتدلاً، عظم في أيّامه الملك واتّسق العزّ، فملك جميع بلاد المغرب من بجاية إلى الأرض الأندلسية والجزر الجوفية وبلاد القبلة بأسرها، وخطب له على أكثر من ألفي منبر، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، ص253.

فاجتمعت عليه الأمّة، واتّفقت الكلمة»[1] فقد اكتسب كثيراً من الصّفات الحميدة عن والده الذي عُدَّ رجل حرب بامتياز، إلى جانب تلك الاهتمامات الدينيّة والعلميّة المتميّزة، إلّا أنّ علياً نشأ في بيئة تتفوّق فيها المدنيّة على البداوة فاستطاع بحدة ذكائه ونزاهة نفسه أن يجذب اهتمام الرّعية إليه ويُكثّف من التفافهم حوله.

شرع علي بن يوسف في تثبيت سلطان المرابطين بالمغرب والأندلس، استكمالاً لجهود والده من قبله، وقد اشتدّ ميله لأهل الفقه والدّين« فكان هو الآخر لا يقطع أمرا إلاّ باستشارة الفقهاء، ولا يبثّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلاّ بمحضر أربعة منهم فبلغوا في أيّامه مبلغاً عظيماً »[2] فهؤلاء الفقهاء قد ذهبوا في أمورهم بمذهب مالك بفضل مساندة هذا الأمير لهم[3] فتعدّوا حدود المشاورة إلى شغل مناصب الإمامة والقضاء والوزارة، فصارت أمور الرّعية بأيديهم وآلت مهمّة تسيير دفّة الحكم لهم.

ازدهرت الحياة العلميّة والفكريّة في عهد الأمير علي بن يوسف فقد كان هو أيضا يحرص على الاهتمام بالعلم والعلماء، فيستضيفهم في قصره ويحضّ على تكريمهم وتبجيلهم « فلم يزل من أوّل إمارته يستدعي أعيان الكتّاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتّى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم الجدّ المعروف بالأحدب، أحد رجال البلاغة، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنَة، في جماعة يكثر ذكرهم»[4] فوفد إلى بلاط هذا الأمير حشد هائل من أعلام الأدب واللّغة، فنصّبهم في الوظائف الكبرى للدّولة كديوان الإنشاء والوزارة وهو ما دفعهم للتّفنّن والإبداع فيما يُعرض بين أيديهم من قضايا تستوجب مهارة الكتابة وقوّة

---

[1]- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المرّاكشي، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثّقافة للنّشر، بيروت لبنان، ط3، 1983م، ج4، ص48.

[2]- ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي، ص130.

[3]- يظهر التطوّر الدّيني على عهد علي بن يوسف بن تاشفين في أنّ المذهب المالكي قد بلغ ذروة قوية، فكان لا يحظى بالمنزلة الرّفيعة عند أمير المسلمين إلاّ من عَلِمَ علم فروع مذهب مالك، فنفقت حينئذ كتب المذهب وتمّ نبذ ما سواها، للتّفصيل ينظر تلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمّار، ص46.

[4]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي ،ص132.

الإقناع، ورونق اللّفظ والأسلوب، وهو بالضّبط ما توفّر في أحد كتّاب الأمير علي « وكان من أنبهِهِم عنده، وأكبرهم مكانة لديه، أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال، وحُقَّ له ذلك إذ هو آخر الكتّاب، وأحد من انتهى إليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلّق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطّولى»[1] فقد جرت عادة الحكّام أن يختاروا من الكتّاب والأدباء فقط من يثقون في سعة علمهم وثقافتهم، وقدرتهم على صياغة الكلام الذي ينفذ إلى نفوس المستمعين ومشاعرهم، بحكم وجود تلك المراسلات والمخاطبات المتبادلة بين الأمراء والولّاة والموظّفين وعمّال الأقاليم في مختلف أنحاء الدّولة.

دأب أمير المسلمين علي بن يوسف على تزيين مجالسه باستدعاء أهل العلم والأدب، والاستماع إليهم ومشاركتهم فيما يقدّمونه « فهو قد عاش فترة كبيرة من حياته بالأندلس فاستهوته ثقافتها ونهل منها، يُضاف لذلك تكريمه للعلماء وترحيبه بهم في عاصمته، ممّا أسهم في تكوين شخصيّته العلميّة، التي استمدّت أصولها من كتاب الله وسنّة رسوله، مع دراسة الأحكام الدينيّة وتفريعاتها، وعلوم العربيّة المختلفة من نحو ولغة وأدب وغير ذلك»[2] فهذه الصّفات الحميدة المتوفّرة في حكّام الدّول، ستكون بمثابة تشجيع بالغ للرّعية للاهتمام بالعلم وأهله؛ فانتعشت الحركة الأدبيّة والعلميّة وتوافد الأدباء والشّعراء على بلاط الأمير يمدحونه ويثنون عليه وعلى أبنائه، فخُصُّوا بمكانة عظيمة لدى الأمراء وأغدقوا عليهم الصّلات السنيّة رغبة منهم في مرافقتهم وتحفيزهم على هذا الصّنيع.

وقد توفي الأمير علي بن يوسف رحمه الله« لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة 537هـ»[3] فكان عمره نحو ستّين سنة فولّي الأمر بعده ابنه تاشفين[4].

---

[1]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي، ص132.

[2]- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، حسن علي حسن، ص497.

[3]- وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، أبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، تحقيق إحسان عبّاس، مج7، ص125.

[4]- هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ولّاه أبوه على الأندلس وأسكنه غرناطة، فكان بطلاً شجاعاً جميل الهيئة، سالكاً طريق الشّريعة مستقيم الأحوال، عظيم العفاف، لم يشرب مسكرا ولا استعمل أهواءً، ولا تلبّس بشيء ممّا تلبّس به الملوك، ورزقه=

خلف تاشفين بن علي والده في حكم دولة المرابطين، وقد كان واليا على الأندلس في حياة والده قبل أن تؤول إليه الإمارة سنة537هـ، فحَسُنت سياسته والْتَفَّتْ حوله الرّعية واكتسب من الخِلال ما جعل أفئدة من أصحاب الطّاعات من المرابطين تهوي إليه وتنضوي تحت لوائه؛ وواصل توسيع دائرة نفوذ المرابطين اقتداءً بمن سبقه من الأمراء، فقلّد الفقهاء وأولاهم المناصب الرّفيعة واستعان بهم في تسيير شؤون الحكم، كما لم يتوان عن «عقد المجالس العلميّة في حضرته والمشاركة فيها بالحوار والمناقشة؛ واستدعاء الكتّاب والأدباء والأعيان، فكان ممّن يحضر مجلسه القاضي أبو القاسم أخيل بن إدريس الرّندي»[1] فقد عُرف عن هذا الأمير ميله الكبير إلى الزّهد في الدّنيا وحبّه الشّديد لدين الله وحسن إقامة شعائر الإسلام، يرافقه سعيه الثّابت لنشر العلم وتبجيل أهله ومشاركتهم فيما تداولوه وتدارسوه من مواضيع، هذا فضلا عن أعمال جليلة أخرى تمثّلت في «إقامة المنشآت العمرانية المختلفة، والجلوس للنّظر في الظّلامات، وقراءة الرّقاع، وردّ الجواب، وكتابة التّوقيعات وإكرام الفقهاء والطّلبة، فكان له يوم في كل جمعة يتفرّغ فيه للمناظرة »[2] فوفد إليه العلماء والطّلبة من كلِّ مكان يحاولون استثمار نشاطاتهم العقليّة في عدد من القضايا التي تهمّ أمور الدّين والدّنيا، أو الإصغاء لما يجود به مجلس الأمير من فوائد علميّة وأدبيّة تشجّع المستمع على البحث والإبداع.

ظهرت دعوة الموحّدين المنافسة للمرابطين على المغرب والأندلس متّهمة إيّاهم بالجمود والتّحجّر والحياد عن المسار الصّحيح، فما كان من الأمير تاشفين إلاّ الخروج لمحاربتها ومحاولة إخمادها، إلّا أنّ الموحّدين قد ملكوا أكثر بلاد العدوة «ففرّ تاشفين إلى جهة وهران فهوت به فرسه من بعض

=الله من الظّهور وتوفيق الرّأي في حربه فهزم الجيش وفتح الحصون، ولم يظهر إلاّ ظاهراً، ولا صدر إلاّ ظافراً، للتّفصيل ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثّالث من أعمال الأعلام، لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، ص(256، 257).

[1]- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص 414.

[2]- ينظر الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م، مج1، ص450.

الحافّات فهلك ليلة السّابع والعشرين لرمضان عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، واستمسك من بقي من قومه بمراكش بولده إبراهيم »[1] وقد قُدِّرت فترة ولايته من زمن وفاة والده ثلاثة أعوام إلاّ شهرين.

تمكّن الموحّدون من هزيمة جيش المرابطين وامتلاك معظم مدن المغرب الأوسط، وأهمّها مدينة تلمسان وأحوازها بقيادة خليفتهم عبد المؤمن بن علي سنة539هـ وأعلن أهلها ولاءهم له « فأقام بها سبعة أشهر اشتغل فيها بتنظيم شؤون الدّولة والإدارة وإصلاح ما جرّته الحرب من فساد، وولّى عليها سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتي وترك معه ولده يوسف معاضداً له وناصراً »[2] فقد انطلق عبد المؤمن من تينملل بعد وفاة شيخه ابن تومرت موحّدا لصفوف الموحّدين وكلّه أمل في تكريس عقيدتهم ضمن أكبر عدد من الأنصار، فوطّد سلطانه في سائر أنحاء المغرب الأقصى قاصدا تلمسان مسقط رأسه؛ باعتبارها مجالا رئيساً يضمن من خلالها حماية دولته واستمراريتها، ثم توالت انتصاراته ففتح فاس ومكناسة ومراكش وهناك انقرضت دولة المرابطين وأنشأت على أنقاضها دولة الموحّدين التي شملت سائر دول المغرب والأندلس.

نالت تلمسان مكانة خاصّة وعناية فائقة من لدن عبد المؤمن بن علي الذي جعلها مقراً لولاّته على سائر المغرب الأوسط، وأسند شؤونها لذوي القرابة من بَنِيهِ، فكان من جملة ما قام به أنّه « أمر سنة 540هـ ببناء سور تاجرارت من تلمسان وبناء جامعها، وتحصين المدينة، وإعلاء سورها »[3] سعياً منه لجعلها مركزاً إدارياً قوياً، وقطباً علمياً مُهماً يستقطب كبار العلماء والأدباء من كلّ مكان، فعبد المؤمن بدخوله تلمسان بعد حكم المرابطين وجد الوسط العلمي والفكري مهيّئاً أمامه فما كان

---

[1]- ينظر تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثّالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، ص 264

[2]- تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م، ج2، ص(297، 298).

[3]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، دار الأمل للدّراسات والنّشر، الجزائر، دط، 2011م، ج1، ص132/ نقلا عن الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ ، دار الطّباعة المدرسيّة، أوبسال بالسويد، دط، 1943م، ص123.

منه إلاّ أن دفع الموحّدين حكّاما ورعيّة للرّفع من مستوى هذه الحركة العلميّة وصبغها بصبغة دينيّة وعلميّة خاصّة بهم، فهو نفسه كان «مؤثرا لأهل العلم، محباً لهم محسناً إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويُظهر التّنويه بهم والإعظام لهم »[1] فلم يكن عبد المؤمن خليفة عادياً بل رجل ثقافة وعلم طلبه منذ نعومة أظفاره، فامتلك ناصية اللّغة والآداب والعربيّة وتبحّر في الفقه والتّوحيد متأثّرا بشيخه وأستاذه ابن تومرت[2] فواصل بعده الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ونشر العلم بين الرّعية وهو ما جعل أفئدة من العلماء والطّلاب تهوي إليه فأكرمهم ونبّه على قدرهم.

اعتاد الأمراء ومن بينهم الخليفة عبد المؤمن على إثراء رصيدهم الفكري والأدبي داخل قصورهم؛ بعقد المجالس والمناقشات العلميّة فيحضرها العلماء والأدباء وكبار رجال الدّولة فتعرض عليهم مسألة من المسائل العلميّة المهمّة فيتناقشون حولها ويُدلي كلّ واحد منهم برأيه« ومن الموضوعات العلميّة التي كانت تُعرض في المجالس العلميّة، الموطّأ الذي ألّفه ابن تومرت حيث عرضه أبو يعقوب يوسف بن وانودين في أحد مجالس الخليفة عبد المؤمن، في جمع من أشياخ الموحّدين»[3] وقد قصد عبد المؤمن من هذه المجالس ترسيخ عقيدة الموحّدين بالحكّام والرعيّة، ودفعها للذّيوع والانتشار لتصبح هي وغيرها من النّدوات والمناظرات ميدانا خلاّقا يحثّ كلّ من حضره أو سمع عنه على البحث والاكتشاف والدّراسة.

حمل عبد المؤمن بن علي على كاهله عبئاً ثقيلا فإلى جانب بناء دولة قويّة ومترامية الأطراف كان لابدّ له من تكوين أجيال مثقّفة متعلّمة ومتّزنة، فتصبح دولة الموحّدين مركزاً ثقافياً مزدهراً، وقد ذكر

[1]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي، ص150.

[2]- لقد عمل عبد المؤمن كتلميذ وفيّ لمبادئ أستاذه ابن تومرت بنشر عقيدته بين النّاس من ذلك تدريس الطّلبة لكتابه أعزّ ما يطلب، وشرح ما جاء فيه من عقائد وأفكار وآراء ترتكز على التّوحيد وتفتح المجال للعقل للتّفكير والإبداع، للتّفصيل ينظر عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، ص(177، 178).

[3]- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص(315، 316)، والعلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص23.

ذلك ابن أبي زرع حين قال:«كانت ولاية عبد المؤمن حسنة، وسيرته جيدة، لم يكن في ملوك الموحّدين مثله أحسن عطيّة ولا فروسية ولا ديناً ولا أكثر علماً منه، كان فصيح اللّسان نبيهاً عالماً بالجدل فقيهاً في علم الأصول حافظاً لحديث النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) متقن الرّواية، مشاركاً في كثير من العلوم الدّينية والدّنيوية إماماً في النّحو واللّغة والأدب والقراءات، ذاكراً للتّاريخ وأيّام النّاس»[1] فهو وفقاً لهذه الأوصاف وتمكّنه من هذه العلوم والمعارف المتنوّعة أبان عن موسوعيّته، ومشاركته الفعّالة إلى جانب رعيّته في رفع مشعل حضارة الموحّدين، ولولا مسؤولياته الكثيرة تجّاه دولته لوصلتنا مصنّفات كثيرة من انتاجاته.

تولّى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أمور الحكم بعد وفاة والده سنة 558هـ، فسار بسيرة أبيه وعمل على إعلاء كلمة الموحّدين وإظهار عظمة سلطانهم، وبشكل خاصّ كلّ ما تعلّق بالحياة الثقافيّة والفكريّة؛ نظراً لدورها الفعّال والبارز في قيام الدّول وتحضّرها فقد كان هذا الخليفة «فاضلاً كاملاً، عدلاً ورعاً، جزلاً حافظاً للقرآن بشرحه، عالماً بحديث (رسول الله صلّى الله عليه وسلّم) آية الموحّدين في الإعطاء والمواساة، راغباً في العمارة، مثابراً على الجهاد، مشيعا للعدل...»[2] تعلّم هذا الأمير على غرار الأمراء من قبله كتاب الله وسنّة نبيّه، وتقدّم في علوم العقيدة الموحّدية وما جاء به ابن تومرت من تعاليم، فانطبعت نفسه بحبّ الاطّلاع والتعلّم والمشاركة في النّهضة الفكريّة لبلده، وهو ما تشهد له به المصادر المختلفة التي أرّخت له ولحياته العلميّة حيث يذكر النّويري أنّه «كان حسن السّيرة يحبّ العلماء ويقرّبهم ويشاورهم، وهم أهل خاصّته، وكان فقيهاً عالماً حافظاً متقناً »[3]

---

[1]- عبد المؤمن بن علي في مدرسة ابن تومرت العلميّة والدّينيّة والحربيّة، محمد بن عمر، الملتقى الوطني الثّاني حول عبد المؤمن بن علي الكومي النّدرومي الجزائري مؤسّس دولة الموحّدين، جمع وإعداد عزّ الدّين ميدون، جمعية الموحّدية، تلمسان، الجزائر، 2011م، ص(212، 213)/ نقلا عن الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، تحقيق كارل يوحنّا تورنبورغ، ص133.

[2]- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنّان، مج4، ص355.

[3]- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النّويري، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2004م، ج24، ص180.

فهو إبّان حياة والده كان والياً باشبيلية وهناك استأثر طلب العلم ولقاء العلماء بجلّ وقته فتبحّر في اللّغة والنّحو والقرآن، بل وقد ازداد تعطّشه للعلم أن شغف بالعلوم العقليّة فراح يتعلّمها ويصاحب المشتغلين بها، وهذا ما يؤكّده المراكشي في مصنّفه من أنّ هذا الخليفة قد« طمح به شرف نفسه وعلوّ همّته إلى تعلّم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطبّ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره، ممّا يتعلّق بالعلم خاصّة دون العمل، ثمّ تخطّى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب ممّا اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي»[1] فهذا القول يؤكّد تعلّق الخلفاء بطلب العلم بالرّغم من مشاكلهم الكثيرة، وهو ما أدّى بالأمير يوسف لتقريب العلماء منه وإكرامهم وحثّهم على النّظر في المسائل الواردة عليهم، وجمع تصانيف علوم الفلسفة والطّبيعيات والإلهيات فانضمّ إليه الفيلسوف أبي بكر محمد بن طفيل وأبي الوليد بن رشد الذي قام بشرح كتب أرسطو طاليس والتّعليق عليها بأمر من الخليفة.

وحرص يوسف بن عبد المؤمن على مجالسة العلماء المتمكّنين والأدباء والشّعراء؛ فكان يستدعيهم لقصره وتُعقد رفقتهم المجالس والمناظرات الفكريّة «فلم يزل يجمع حوله الأدباء والعلماء من شتّى الأقطار حتّى أقبل عليه الحافظ أبو بكر بن الجد، والفقيه القاضي أبو عبد الله بن صقر وغيرهم من العلماء »[2] حيث وفد إليه العلماء على اختلاف مشاربهم ومن كلّ مكان يحذوهم أمل الاستزادة في العلم، ونيل الحظوة لدى الأمراء وولّاة الأمور، فضلا عن مشاركاته المتميّزة في إثراء المناقشات وعرض الأفكار، حيث يقول الشّاعر أبو عمر بن حربون في أحد قصائده مهنّئا الخليفة يوسف على بيعته السّعيدة وواصفاً مجالس الأمراء والعلماء:

مَجَالِسُهُــمْ رَوْضَاتُ نَجْدٍ يَزِينُهَــا   مِنَ النَّوْرِ أَجْنَـاسٌ تُؤَامُ وَفَــارِدُ

مَجَالِسُ لَوْ تَرْقَى الكَوَاكِبُ نَحْوَهَــا   لَقَدْ بَاتَ تِلْمِيـذاً لَدَيْهِمْ عُطَـارِدُ

---

[1]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي، ص 175.

[2]- ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص 415.

لَقَـدْ عُمِرَتْ بِالعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّهَـــا لِكَثْرَةِ ذِكْـرِ اللهِ فِيهَا مَسَاجِـــدُ [1]

أبدى خلفاء الموحّدين اهتمامهم بالعلوم الأدبيّة ولاسيما نظم الشّعر، فكانوا يجمعون الشّعراء ببلاطهم ويستمعون إلى قصائدهم ويعقّبون عليها وينقدونها أو يقرّظون أصحابها، فوفد إليهم الأدباء والشّعراء ومنهم ابن حربون لتهنئتهم في مختلف المناسبات ويمدحونهم فينالون منهم العطايا الفاخرة.

بايع الموحّدون أبا يوسف يعقوب بن أبي يعقوب المكنّى المنصور خليفة لهم بعد وفاة والده سنة 580هـ، فاتّبع هو أيضا سياسة الحكّام من قبله حيث حفظ البلاد وحصّنها، وشيّد عمرانها وطبّق العدل بين رعيّته «فهو واسطة عقد ملوك الموحّدين الذي ضخّم الدّولة وشرفها، وكانت أيّامه أيّام دعة وأمن ورخاء، ورفاهية وبهجة، صنع الله عزّ وجلّ في أيّامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس، فكانت الظّعينة تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء»[2] فيعقوب المنصور بممارسته للوزارة إبّان خلافة أبيه قد اكتسب دربة وخبرة كافية أهّلته لتولي شؤون دولة الموحّدين، فقام بالأمر أحسن قيام وعمل على دفع عجلة النّمو التي مسّت جُلّ مجالات الحياة وبخاصّة في المجال الفكريّ والعلميّ.

وقد قرّب يعقوب المنصور -كسائر الأمراء- أهل العلم والفكر منه؛ وأحسن إليهم واستمع لآرائهم وأفكارهم وشاركهم فيها بالمناقشة والحوار، فكان من بين الأدباء الذين حضروا مجلسه واختصّوا بمنزلة مرموقة لديه الأديب أبي عبد الله بن مروان التّلمساني[3] إلى جانب كثير من الفضلاء، وأهل الصّلاح وأرباب العلوم والمعارف والفنون «فتزيّنت مجالس هذا الخليفة بحضورهم، فتُفْتح بالتّلاوة ثمّ الحديث،

[1]- المنّ بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، عبد الملك بن صاحب الصّلاة، تحقيق عبد الهادي التّازي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، 1987م، ص177.

[2]- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، أبي العبّاس أحمد بن خالد النّاصري، تحقيق جعفر النّاصري ومحمد النّاصري، دار الكتاب للنّشر، الدّار البيضاء، دط، 1954م ، ج2، ص177.

[3]- تولّى هذا الأديب منصب قاضي القضاة زمن المنصور، كما كانت له مشاركات قيّمة في مجلسه وله فيه أمداح كثيرة، إلاّ أنّ حفظه وعلمه بالأدب فوق شعره، للتّفصيل ينظر الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق إبراهيم الإبياري، ص(29، 30).

ثمّ يدعو هو، وكان يُجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلّم في الفقه، ويناظر ويهتمّ بطلاّب العلم الذين يأتون من الآفاق »[1] فلم يكن اختيار الخليفة لأهل العلم جزافا بل كان يبحث عن المهَرَةِ منهم حتّى يضمن نصيبا مهماً للاستفادة من خبراتهم وتقليدهم المناصب العلميّة بالدّولة، وحثّهم على التّنافس بحضرته وهو ما سيشجّع طلاّب العلم، ويُذكي فيهم الشّعور بمسؤوليّة الاجتهاد والبحث للوصول إلى هذه المراتب.

شدّد المنصور أثناء خلافته على رفض علم فروع الفقه وأمر بإحراق كتبه وسائر كتب المالكيّة، ومن ذلك « أنّ الفقهاء لا يفتون إلاّ من الكتاب والسنّة النبويّة، ولا يقلّدون أحداً من الأئمّة المجتهدين، بل تكون أحكامهم بما يؤدّي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس»[2] فقد أراد المنصور بهذا الفعل الحفاظ على كتاب الله وسنّة نبيّه والإنكار على كلّ من يريد تقديم كتبه أو كتب مذاهب أخرى عليهما، وما تحتويه من تشعّب في الآراء وصعوبة في الإدراك، وفي مقابل ذلك دعا المحدّثين لجمع الحديث من المصنّفات العشرة وأمر الرعيّة بحفظه وحفّزهم لذلك بالأعطيات السخيّة أمَلا في حمل النّاس على الظّاهر من الكتاب والسنّة.

ومن الأمثلة الدّالة أيضا على اهتمام هذا الخليفة بالعلم والعلماء اعتناؤه بالعلوم العقليّة، وحرصه على دراستها ونشرها بين العلماء والطّلبة، وبخاصّة الحساب والطبّ والفلسفة التي ولع والده بتعلّمها والاشتغال بها وجمع كتبها، فنجده هو أيضا قد « قرّب إليه أوّل الأمر أبا الوليد بن رشد الحفيد، فكان يعظّمه ويقدّره ويُجلسه أحيانا بجانبه، ويتعدّى بموضعه مواضع أشياخ الموحّدين، مستمعاً لآرائه وشروحه، ولاسيما علاقة الفلسفة بالدّين إلاّ أنّه بعد حين شنّ حرباً هوجاء عليها وعلى الفلاسفة

---

[1]- ينظر تاريخ دولتي المرابطين والموحّدين في الشّمال الإفريقي، علي محمد الصّلابي، ص(368، 369).

[2]- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، أبي العبّاس أحمد بن خالد النّاصري، تحقيق جعفر النّاصري ومحمد النّاصري، ج2، ص(178، 179).

وأحرق كتبها، ثمّ تراجع عن قراره وجنح إلى تعاطي الفلسفة مرّة أخرى »[1] وهو ما جعل جلّ العلوم العقليّة تستعيد مكانتها، ويكثر الْتِفَافُ العلماء عليها فظهرت حولها تآليف عديدة ومتنوّعة استفادت منها أجيال كثيرة عبر عدّة عصور.

ولـمّا حضرت الوفاة الأمير يعقوب المنصور بايع الموحّدون ولده أبا عبد الله محمد بن يعقوب وتلقّب بالنّاصر سنة 595هـ، حيث سارع هذا الخليفة يدافع عن دولته ويحفظ أمنها بخاصّة بعدما « استولى بنو غانية على بلاد إفريقيّة، فعمّر أسطولاً و طرائد فيها الخيل والرّجال ليستأصل شأفتهم، فتمّ له ذلك، وولّى عليها الشّيخ أبي محمد بن أبي حفص»[2] ليواصل بعد ذلك تمهيد أمور الدّولة التي غلبت عليها النّزاعات والثّورات، وهو ما سيجعل دولة الموحّدين تنتقل من مرحلة القوّة والتّحكم إلى مرحلة الضّعف والتّمهيد للانهيار، وفي ظلّ هذه الظّروف المترديّة شُغِلَ الأمير النّاصر عن الالتفات للجانب الحضاريّ والثقافيّ للدّولة فلم تسجّل المصادر أيّة مشاركات فكريّة له أو لأبنائه من بعده، فضلا عن تلك الصّراعات على السّلطة من لدن أبناء عبد المؤمن، يصاحبها تقلّص النّفوذ عبر عدوة المغرب والأندلس؛ فاستقلّت إفريقيّة استقلالاً تاماً وكذلك الأمر بالنّسبة لبني عبد الواد وبني مرين.

وبالحديث عن بني عبد الواد[3] فقد كانوا من القبائل الموالية للموحّدين دخلوا في طاعتهم وخدموهم في زمن الشدّة فنالوا ثقتهم؛ وبالتّالي منحهم الموحّدون وأثابوهم على موقفهم «بإقطاعهم بلاد بني وامانو وبني يلومي بتلك النّواحي التّلمسانية، ثمّ عقدوا لشيخهم أبي محمد جابر بن يوسف

---

[1]- ينظر الحركة الثّقافية والحضاريّة في العصر الموحّدي وأثرها بالغرب الإسلامي، عبد الهادي الحسيسن، ملتقى الدّراسات المغربيّة الأندلسية تيارات الفكر في المغرب والأندلس الرّوافد والمعطيات، ص(417، 418، 419).

[2]- ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لأبي عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي، ص(230، 231).

[3]- بنو عبد الواد هم قبيلة من ولد يادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، يرتفع نسبهم إلى رزجيك بن واسين بن ورسيك بن جانا،كانوا من أمراء القبائل الرحّل يجوبون صحراء المغرب الأوسط ومتغلّبين على ضاحيته عامّة الأزمان، للتّفضيل ينظر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، ج7،ص 97.

على تلمسان إلاّ أنّه انتزع ولايتها عنهم وأورثها بنيه من بعده»[1] فبنو عبد الواد عرفوا أنّ وصولهم للمُلك لن يتأتّى إلاّ بالإذعان لحكم الموحّدين الذين لم يجدوا بُداً من إسناد ولاية تلمسان لهم، إلاّ أنّ بني عبد الواد تملّكوها وتوارثوا على حكمها متطلّعين لتوسيع دائرة نفوذهم، كما سارعوا لإعلان استقلالهم وبناء دولة بني عبد الواد أو بني زيان سنة 633هـ، وعاصمتها تلمسان على يد يغمراسن بن زيان[2] .

تولى يغمراسن حكم دولة بني عبد الواد الزّيانية فتحوّلت إلى مركز سياسي وإداري مرموق؛ بفضل موقعها الجغرافي الممتاز الذي يعدّ همزة وصل بين دول المغرب الإسلامي وحواضره، وهو ما جرّ عليها المصائب حيث تكالبت الدّول المجاورة للحصول عليها من بني مرين وبني حفص وبقايا الموحّدين وغيرهم، ففزع يغمراسن مدافعا عن دولته « وقد أبدى شجاعة كبيرة في مواجهة المرينيّين والحفصيّين رغم الهزائم التي لحقت به، فلم يتقاعس في الدّفاع عن دولته من خطر هتين الدّولتين اللّتين حاولتا التوسّع على حساب دولته الفتيّة»[3] وكيف لقائد سياسيّ محنّك مثل يغمراسن يحظى بالخصال الحميدة وحسن السّياسة والتّدبير ألاّ يضبط الأمور ويتغلّب على كلّ الصّعاب في سبيل بناء دولة قويّة مستقلّة.

استفادت دولة الزّيانيين وعلى رأسها العاصمة تلمسان من كثير من الانجازات الحضاريّة والثقافيّة، إبّان فترة حكم الملك يغمراسن، وبالرّغم من انشغاله بدعم الاستقرار السّياسي فإنّه قد سارع للبناء والتّشييد فكان من بين المنشآت المنجزة « بناؤه للصّومعتين بالجامعين الأعظمين من أجادير وتاجرارت - وهي تلمسان الحديثة- وسُئِلَ أن يأمر بكتب اسمه فيها فأبى وقال بالزناتيّة يسنت ربّي

1- ينظر تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ج2، ص307.

2- هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، امتاز بخصال مكّنته من السّيادة على بني عبد الواد، فكان أشدّهم شجاعة وأعرفهم بمصالح القبائل وأكثرهم اضطلاعا بالتّدبير والرّئاسة، أحسن السّير في الرعيّة، وساعد المظلوم، واستمال عشيرته وقبيلته وأحلافهم من عرب زغبة ومعقل بحسن السّياسة والاصطناع، للتّفصيل أكثر ينظر تلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمّار، ص91.

3- ينظر تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدّولة الزّيانية، خالد بلعربي، دار الألمعية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص (215، 216).

أي علمه الله، عُلُوُّ همّة وحُسْنُ الظنّ بالخالق، وإعراضا عن التّفاخر الدّنيوي»[1] فهذه المعالم العمرانيّة وغيرها تعدّ انعكاسا واضحا لنيّة الزّيانيين في التوسّع بدولتهم ومدّ نفوذها، وجعلها مركزا حضارياً ذائع الصّيت يضاهي سائر الأمصار الإسلاميّة الأخرى.

امتاز يغمراسن على غرار سلاطين وأمراء بني زيان بنزعته العلميّة والثقافيّة، فقد اعتنى بالعلم والعلماء وهيّأ لهم السّبل لتعزيز انتاجاتهم الفكريّة، ودعمهم مادياً لتحفيزهم لبذل المزيد والجديد من العلوم والمعارف، فكان بذلك « أوّل من دشّن تشجيع الحركة الفكريّة والتعليميّة بتلمسان، ورغّب رجال العلم في القدوم إلى عاصمته، وأغدق عليهم الأموال والهدايا والجرايات، وأعلى منزلتهم، وشجّعهم على التّدريس والتّأليف»[2] لأنّه يعلم جيّدا أنّ هذا الفعل سيجمع حوله العلماء والأدباء من كلّ حدب وصوب؛ فيتسامعون به ويتقاطرون على دولته فيدفعون سير الحركة الثقافيّة إلى الأمام، ويختار منهم الكتبة والوزراء وموظفي الدّواوين، وتشتعل المنافسة بين مدن المغرب فيرتفع المردود العلمي، هذا فضلا عن أنّ هذا الاهتمام العظيم بالعلماء هو دعوة صريحة للحكّام من بعد يغمراسن لاقتفاء أثره والسّير بسيرته وجعل المملكة مَحجاً لأهل العلم.

ومن أمثلة اهتمام يغمراسن بالعلم مجالسته للعلماء والصّلحاء لِمَا يحظى به هؤلاء من احترام ووقار بين الحكّام والرعيّة « وله في أهل العلم رغبة عالية، يبحث عليهم أين ما كانوا، ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهله»[3] فقد عزم هذا الحاكم على حشد مجلسه بالعلماء وإعلاء شأنهم بين الرّعية؛ إكراماً لهم واعترافاً بصنيعهم وهو ما يدفعهم للسّير قُدُماً نحو الازدهار وإتمام مسيرتهم

[1]- ينظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود آغا بوعياد، موفم للنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2011م، ص 125، وبغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، أبي زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، مطبعة بيرفو نطانا الشّرفية، الجزائر، دط، 1903م، ج1، ص116.

[2]- تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص321.

[3]- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود آغا بوعياد، ص126.

العلميّة والفكريّة، فكان من مشاهير العلماء الذين عرفتهم دولة بني زيان« أبو محمد بن عبد الله بن داود بن خطّاب وهو مرسي أندلسي، وفد على يغمراسن مع جالية شرق الأندلس فاستكتبه، وصدرت عنه رسائل في مخاطبات خلفاء مراكش وتونس تنوقلت وحفظت، فأقام بتلمسان إلى أن توفّي»[1] وقد حرص يغمراسن على استقدام العلماء من مختلف المدن والبلدان الإسلاميّة، وتزيين بلاطه بهم وبخاصّة هؤلاء المهاجرين من بلاد الأندلس الذين وجدوا الجوّ مهيّئاً أمامهم للإبداع وتقديم خدماتهم الجليلة لِمَا يحفظ الدّولة ويجعلها في مصافي الدّول المتألّقة في مجال الفكر.

وإيرادنا لقصّة العالم التّنسي أكبر دليل يؤكّد هذا الاهتمام من لدن هذا الحاكم حيث يورد التّنسي ذلك فيقول:« ومن أعلم من كان في زمانه أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السّلام التّنسي، كانت الفتاوى تأتيه من إفريقية وتلمسان إلى تنس، فكان أمير المسلمين يغمراسن يكاتبه كثيرا، ويرغبه في سكنى تلمسان ويمتنع، فورد مرّة عليها فاجتمع به الأمير وقال له: ما جئتك إلاّ راغباً منك أن تنتقل إلى بلدنا تنشر فيها العلم، وعلينا جميع ما تحتاج، فتمّ ذلك وأقطع له اقطاعات من جملتها تيرشت»[2] فهذا القول يعدّ دليلا قاطعا عن احتفاء يغمراسن بالعلماء حيث كان يرغب بصحبتهم ويبحث عنهم من مختلف الأماكن، ثمّ يسعى سعياً حثيثا لإقناعهم بالكَوْنِ بحضرته فيُزْجِلُ لهم العطاء ويحظون بالتّبجيل عند الخاصّة والعامّة، ولم يزل مستمراً في هذا الفعل إلى أن أدركه الأجل المحتوم سنة 681هـ.

---

[1]- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي للنّشر، بيروت لبنان، دط، دت، ج2، ص453.

[2]- ينظر تاريخ الثّقافة الجزائريّة من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صالح بن نبيلي فركوس، ج1، ص191 /نقلا عن تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود آغا بوعياد، ص (126، 127).

اعتلى أبو سعيد عثمان بن يغمراسن[1] عرش الدّولة الزّيانية بعد وفاة والده سنة 681هـ، فشرع في استكمال بناء المملكة متّبعا نصيحة والده الذي أمره بأن يعقد السّلم مع بني مرين ثم ينتهج سياسة التوسّع من ناحية الشرق« فغزا قبيلة مغراوة العتيدة، وانتزع مازونة ثمّ تنس، كما غزا كذلك قبيلة توجين، وانتزع منها ونشريس ثم المديّة، لكنّ غزوه لبجاية كان بغير جدوى»[2]حيث انطلق عثمان بن يغمراسن في ترتيب أمور دولته وتمصيرها بمسالمة بني مرين ومبايعة الحفصيّين لتفادي خطر هتين الدّولتين، وإخضاع سائر المناطق الشرقيّة التي خرجت عن طاعة بني زيان من مختلف القبائل فدانت له جُلّ أعمال المغرب الأوسط، باستثناء تلك الحملات المتكرّرة فيما بعد من لدن بني مرين كُلّلَ بعضها بالفشل.

سار أبو سعيد عثمان بسيرة أبيه في تشجيعه للعلم وأهله؛ إلاّ أنّ ازدهار الحياة العلميّة لأيّ دولة من الدّول مَنُوطة بما يوافقها من حالة الأمن والاستقرار بالبلاد، فقد عرفت دولة بني زيان فترة عصيبة عانت خلالها من الحروب وويلات الحصار والتّضييق الذي فرضه عليها المرينيون في سبيل الحصول على العاصمة تلمسان، وهو ما انعكس بشكل سلبيّ على الحركة الثقافيّة وتسبّب في ركود العلم وانتقاصه، حيث يصف لنا العبدري هذه الحال أثناء مروره بتلمسان فيقول:« وأمّا العلم فقد درس رسمُهُ في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدُحِم على الثِّماد، فما ظنّك بها وهي رسم عفا طلَلُهُ، ومنهل جفّ وَشَلُهُ»[3] فحالة تلمسان السّياسية إبّان عهد أبي سعيد امتازت بالاضطراب والتّذبذب

---

[1]- هو أبو سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان، الهمام الأنجد ، ذو الهمم العليّة، والشّيم الرضيّة، والمآثر الحسان، دوّخ المعاقل والأمصار، انعقدت له البيعة في أوائل ذي الحجّة من السّنة المذكورة، فاقتفى في الجدّ وترك الرّكون إلى الدّعة سنن أبيه، فشمّر في غزو الأعادي ذيله، حتّى أقام من كلّ ذي زيغ ميله، للتّفصيل أكثر ينظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود آغا بوعياد، ص129.

[2]- باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2011م، ج1، ص70.

[3]- رحلة العبدري، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، تحقيق وتقديم علي إبراهيم كردي، دار سعد الدّين للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط2، 2005م، ص49.

الذي أفضى لانحسار العلم، باستثناء ما برز منه في السّنوات الأولى من هذا العهد؛ فقد اقتفى السّلطان أثر والده في رعاية العلم وأهله « فاستفاد ممّن كانوا في خدمة أبيه من العلماء والأدباء والكتّاب، غير أنّه اختصّ بشاعر المائة السّابعة الفقيه الأديب أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس الذي ولّاه كتابة الإنشاء»[1] وهو ما يثبت حكمة هذا السّلطان في اختيار العلماء والأدباء وتنصيبهم في أماكن مرموقة في الدّولة من المدرّسين والقضاة وأصحاب الأشغال، ليُكلّف ابن خميس بمهمّة كتابة الإنشاء لِمَا اجتمع فيه من عناية بالعلم ووفرة الأدب وحسن نظم الشّعر وقرضه، وقد توفّي السّلطان عثمان أثناء حصار المرينيّين لتلمسان سنة 703هـ ليتولى أبناؤه من بعده شؤون الدّولة الزّيانية.

وبُجمل القول إنّ تلمسان قد حظيت برعاية حكّامها وسلاطينها بالعلم وأهله، فقد دأب كلٌّ من المرابطين والموحّدين ثمّ الزّيانيّين على تنشيط الحياة الفكريّة والعلميّة ومزجوها بنشر الدّين وفق أُسسه القويمة، فازدهرت حركة العلم ووفد العلماء من كلّ مكان فأوكلت إليهم مهام رفيعة وخُصّوا بمراتب مرموقة والْتَفَّ حولهم الخاصّة والعامّة، وهو ما جعل تلمسان تنافس سائر جاراتها علمياً وثقافياً.

ثانيا: المؤسّسات التعليميّة وحركة التّعليم بتلمسان

أثرى حكّام تلمسان وسلاطينها نشاط الحركة الثقافيّة والعلميّة بالمدينة عبر عهودها المتعاقبة، فجمعوا حولهم أهل العلم والفكر، ودعّموا نشاطهم العلمي بتشييد معالم ومنشآت تكفل لهم نشر العلم وتلقينه للأجيال، بل وأولوا عناية خاصّة لطرق هذا التّعليم ومناهجه يقيناً منهم أنّه من أعظم الركائز التي تسهم في رفد الحركة الفكريّة والحضاريّة لأيّة أمّة من الأمم.

[1]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج1، ص182.

أ- المؤسّسات التعليميّة:

شيّد حكّام تلمسان العديد من المنشآت العمرانيّة الهامّة، فاستأثرت المعاهد والمؤسّسات التعليميّة بنصيب معتبر من هذا النّشاط فتأسّست المساجد، والكتاتيب، والزّوايا، والمدارس، والمكتبات يسيّرها علماء وفقهاء متمكّنون وقامت كلٌّ منها بوظيفتها المنوطة بها، وصارت العلوم والمعارف تلقّن بها ممّا يضمن تفتّح العقول وتوسيع المدارك.

- المساجد:

يعدّ المسجد أهمّ مركز تعليميّ إسلاميّ ارتبط وجوده بظهور الإسلام وسعي المسلمين الحثيث لنشره بين الأمم، فهو يمثّل اللّبنة الأولى وأصل كلّ المعاهد التعليميّة الأخرى« فلم يكن مخصّصا للعبادة وحدها، ولكن كانت تؤدَّى فيه أعمال مختلفة، فهو مكان للعبادة تُقام فيه الصّلاة وتُخطب الخطب وكان محكمة للتّقاضي، ومعهدا للدّراسة»[1] ففي أيّ مجتمع إسلامي نجد عددا من المساجد لأنّها رمز للإسلام ومركز إشعاع ديني وتعليمي يتعلّم فيها النّاس أمور دينهم، فيحفظون القرآن والحديث وعلوم اللّغة العربيّة وسائر العلوم المتّصلة بالدّين الحنيف.

وشهدت تلمسان منذ القِدم أزهى الفترات الثقافيّة، فقد أبدى حكّامها اهتماماً بالغاً بالحركة الفكريّة؛ فشيّدوا الكثير من المؤسّسات التعليميّة على اختلاف أنواعها وعمروها بالمدرّسين القادمين من كلّ مكان ابتداءً بالعصر المرابطي ثمّ العصور اللّاحقة به، وباعتبار المسجد من أقدم المراكز العلميّة وأنجعها فقد عمُرت أرجاء حاضرة تلمسان بالمساجد[2] نذكر منها مسجد أغادير الذي يعود إلى فترة حكم الأدارسة « فعندما غزا إدريس الأوّل تلمسان بنى مسجدها، وصنع منبراً في رأسه لوح مكتوب

[1]- ينظر ضحى الإسلام، أحمد أمين، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، دط، دت، ج2، ص52.

[2]- فالمسجد باعتباره مقرّا للعبادة هو أيضا معهد تنظّم فيه المناظرات العلميّة، والحوارات الفقهيّة، والمطارحات الأدبيّة واللّغويّة، ودروس الوعظ والإرشاد والإفتاء، وكانت تقرأ فيه البلاغات الرسميّة للدّولة، وتدبّر فيه مصالح المجتمع والعقود التجاريّة، وتؤخذ إليه الجنازة قبل الدّفن للصّلاة عليها، للتّفصيل أكثر ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1981م، ج1، ص34.

فيه هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي(رضي الله عنهم) أمّا مئذنة هذا المسجد فترجع إلى عهد يغمراسن حيث رمّمه وبنى صومعته»[1] فصار هذا المسجد ملاذاً للعلماء والطّلاب وسائر السّكان للعبادة والتعلّم والتفقّه في أمور الدّين المختلفة لحاجة المسلم الماسّة لتوضيح تعاليم الإسلام بالشّكل الصّحيح، كما يُضاف إلى هذا المسجد أيضا المسجد الأعظم بتاجرارت وقد شيّده الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، غير أنّ المصادر التاريخيّة تضاربت حول الأمر« فأرجعت جلّها تاريخ بنائه إلى عهد علي بن يوسف بن تاشفين تبعا للكتابة الموجودة به، وكذا تلك النّقوش والزّخارف التي ازدان بها ثمّ أضيفت له تعديلات أخرى على عهد الموحّدين، ليتوّج بنو عبد الواد هذه التّحفة بوضع بلاطتين على حساب مساحة الصّحن وإقامة مئذنة الجامع والقبة المركزية»[2] والمتتبع لتاريخ تلمسان سيلاحظ حتما امتزاج العديد من الحضارات والعهود بها، ففي هذا المسجد بالذّات نجد بصمات جليلة لكلّ من المرابطين والموحّدين والزّيانيّين؛ وهذا ما يدلّ على تلك المكانة الهامّة التي حظي بها المسجد لدى هؤلاء، فهو معهد إسلامي يُسهم في تثقيف الأجيال وترسيخ العقيدة الصّحيحة في عقولهم.

ارتبط بناء المساجد بتلمسان بأسماء لعلماء أجلاّء وأمراء بارزين بالدّولة، فنجد مسجد سيدي أبي الحسن الذي يقع بالقرب من المسجد الأعظم « قام بتأسيسه السّلطان الزّياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ، وهو يحمل اسم أحد مشاهير علماء تلمسان وهو أبو الحسن بن يخلف التّنسي، ويُعدّ المسجد صغير الحجم إذا قورن ببعض المساجد التّلمسانية الأخرى»[3] فإذا سُمِّيَ المسجد باسم عالم جليل كأبي الحسن فمن المنطقي إذن أن نتصوّر أنّه عاش في عهد الأمير أبي سعيد، ولتوليه

---

[1]- ينظر الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، ص27، وينظر بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، أبي زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، ج1، ص116.

[2]- ينظر العمائر الدينيّة في المغرب الأوسط، مبارك بوطارن، مؤسسة كنوز الحكمة، للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط،2011م، ص (89إلى96).

[3]- ينظر المرجع نفسه، ص(142، 143)، وينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج1، ص(146، 147).

التّدريس بهذا المسجد وذيوع اسمه بين الطّلبة والفقهاء في عصره تمّ تسمية المسجد باسمه تخليدا لذكره واعترافا بصنيعه.

وما دام المسجد يؤدّي الكثير من الوظائف التي تخدم الفرد والمجتمع، فإنّ أزقة تلمسان احتوت على العديد من المساجد باختلاف أحجامها؛ منها مسجد المشور الموجود داخل قلعة المشور « وهي تضمّ قصرا للسّلطان، وحمّامات ودورا للسّكن وحدائق، ومن ضمنها المسجد الجامع الذي يقع في الزّاوية الجنوبيّة الغربيّة، ممّا يتيح للأمراء والسّلاطين المقيمين بالقلعة الحضور لحلقات الدّروس والوعظ والاستماع للخطب بهذا المسجد»[1] فقد شارك هذا الجامع عبر عدّة عهود في مهمّة الإشعاع الفكريّ والدينيّ والثقافيّ لمدينة تلمسان، فقصده الطّلبة والعلماء وتخرّجت منه أجيال من الفقهاء والعلماء الأجلّاء، كما لا ننسى أيضا مسجد ندرومة الجامع الذي أسّسه المرابطون فراح يؤدّي« دوره الممتاز ورسالته النّبيلة في الميدان الدينيّ والتربويّ والأخلاقيّ، وشارك مشاركة فعّالة في نهضة المدينة والجهة والمنطقة، وامتدّت إشعاعاته إلى جهات كثيرة من البلاد وإلى أصقاع مغاربيّة وأندلسيّة بل وحتّى مشرقيّة، في إطار حركة عبد المؤمن ومن جاء بعده»[2] فإنّ لهذا المسجد فضل عظيم في تثقيف النّاس الذين أقبلوا عليه لحفظ القرآن وتفسيره ومدارسته وإتقان ما يتعلق به من علوم مكمّلة، فصار نبراسا ينير بعلمه مدينة ندرومة وكلّ المدن المحيطة بها.

إنّ هذه النّماذج من المساجد الموجودة بتلمسان، تكشف لنا في الحقيقة تلك الصّلة الوطيدة لسكّان الحاضرة بالدّين والعلم، ورغبتهم الحثيثة والمتّقدة في الرّفع من مستوى الثّقافة، فنجدهم شيّدوا المساجد وعمروها بالطّلبة والعلماء والفقهاء الذين رابطوا بها يعقدون حلقات الوعظ والإرشاد والدّروس العلميّة والنّوادر الفقهيّة والأدبيّة، فنبغ بتلمسان معلّمون ومدرّسون كُثُر ووفد عليها علماء

---

[1]- ينظر ماضي مدينة تلمسان وأمجادها الحضارية، يحي بوعزيز، ملتقى مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا، جمع وتعليق محمد بوزواوي، القافلة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط،2011م، ص13.

[2]- المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، يحيى بوعزيز، ص181.

آخرون امتهنوا حرفة التّدريس بكلّ احترافيّة[1] فأُعجِب بهم الحكّام وقرّبوهم منهم ونصّبوهم في مناصب هامّة بالدّولة، وهو ما تُعرف به جُلُّ المساجد بالمغرب الأوسط.

- الكتاتيب:

إنّ الكتّاب مرفق ثقافيّ مهمّ وُجد بإزاء المساجد، وقد اضطلع بدور تعليميّ رائد لا تقلّ أهميّته عن سائر المعاهد التعليميّة الأخرى، فهو عبارة عن «حجرة أو حجرتين مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه، أو غرفة في منزل وقد يُبنى الكتّاب خصّيصا لتعليم القرآن، يبنيه صاحبه احتسابا لله، وطلبا لأجر الآخرة، كما قد يبنيه المعلّم أو يكتريه على مالكه ليعلّم فيه بأجرة يتقاضاها من أولياء التّلاميذ»[2] فالكتّاب موضع يتعلّم فيه الصّبيان الصّغار لذلك وُجد مجاورا للمسجد أو بعيداً عنه حتّى يحافظ ولّاة الأمور على طهارة المسجد وهدوئه، وبالرّغم من تلك الصّلة الدينيّة الوثيقة بينهما فإنّ الوظيفة الأساسيّة التي بُني المسجد لأجلها هي الصّلاة لا التّعليم؛ فلا بُدّ من إيجاد مبنىً آخر يكفل هذه العملية دون تشويش على المصلّين أو المتعلّمين، فشُيّد الكتّاب غير بعيد جداً عن المسجد وكان في أغلب الأحيان من الأوقاف، ومهما كانت العناية شديدة بهذا المرفق في كلّ حي إلاّ أنّ شكله كان بسيطا فنجده« على هيئة البيت المربّع أو المستطيل، لم تزخرف جدرانه أو قاعاته بأدنى تنميق من زخرف البناء، ولم يكن تأثيثه بأكثر عناية من ذلك، فإنّه كان مفروشا بحصر بلديّة عاديّة، يجلس عليها الصّبيان متربّعين حول المعلّم الذي يختصّ بسرير أو كرسيّ مرتفع عليه بساط بسيط»[3] فلم يكن الكتّاب مبنىً فخما مزدانا بمختلف الزّخارف، بل بناءً بسيطا يضمّ

---

[1]- من أبرز المدرّسين الذين قصدوا تلمسان، نورد اسم أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السّلام التّنسي الذي استقرّ بتلمسان، وصار يدرّس بمسجدها الأعظم بطلب من السّلطان يغمراسن، فوفد لسماعه الفقهاء والقضاة وأكابر الدّولة بمن فيهم السّلطان، للتّفصيل ينظر تلمسان حاضرة المغرب الأوسط، عبدلي لخضر، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الرابع، ص219، وبني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود آغا بوعياد، ص(126، 127).

[2]- الكتاتيب القرآنية بندرومة، عبد الرّحمن بن أحمد التّجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983م، ص17.

[3]- ينظر كتاب آداب المعلّمين، محمد بن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، ص55.

قاعة مفروشة بحصر من نبات الحلفاء أو الدّوم، ومجموعة من المصاحف الشّريفة وبعض الكتب الفقهيّة والنحويّة والصرفيّة وغيرها.

وقد عرفت بلاد المغرب الأوسط ظهور هذا النّوع من المؤسّسات التعليميّة وبخاصّة في الحواضر الكبرى كمدينة تلمسان، فلا نكاد نجد حياً أو حارة إلاّ و بها كتّاب أو عدّة كتاتيب مستقلّة أو تابعة للمساجد« ففي عهد المرابطين نزل عبد الله بن ياسين إلى الميدان معلماً، وظلّ يُعلّم ويروي ويحدّث حتّى أشاع المعرفة ونشر التّعاليم الدينيّة، ليجد عبد المؤمن بن علي السّبيل ممهّدا أمامه فيحُثّ الموحّدين على تعميم التّعليم والاعتناء بأماكنه وترقية مناهجه»[1] فبممارسة الفقهاء والعلماء للعمليّة التعليميّة، وسعي الحكّام لتعميمها بالمعاهد، ثمّ جعلها إجباريّة ومجانيّة فإنّ شأنها قد علا وعددها تكاثر، فعكف الآباء على بعث أبنائهم إلى الكتاتيب بهدف التعلّم والتأدّب« إلاّ أنّه لم يكن هناك سنٌّ معيّنة يبدأ عندها الطّفل في تلقّي العلم، وإنّما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصّبيان، فإذا وجدوا أنّ الطّفل بدأ في التّمييز والإدراك دفعوا به إلى الكتّاب»[2] فقد كان هناك اختلاف كبير حول السنّ التي يُسمح للطّالب فيها بالالتحاق بالكتّاب؛ فمن الآباء من كان يبدأ بتعليم أولاده في الرّابعة، وبعضهم في الخامسة أو السّادسة، إلاّ أنّ السنّ المعتدلة التي اتّفق حولها المربّون هي السّابعة لقدرة الطّفل فيها على الإدراك والاستيعاب.

يقوم معلّم الكتّاب بالدّرجة الأولى على تحفيظ الصّبيان كتاب الله عزّ وجلّ لأنّه أصل التّعليم وأساسه، وهذا ما يؤكّده ابن خلدون بقوله:« فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذه أثناء المدارسة بالرّسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم؛ لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة»[3] حيث حرص أهل المغرب على تلقين الصّبيان القرآن الكريم وحده دون إرفاقه بعلوم أخرى

[1]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص(230، 231).

[2]- التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص60.

[3]- المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص740.

حتّى يكفلوا الحفظ الجيّد والرّسم السّليم له، إلاّ أنّ هذه الطّريقة كانت قاصرة بالمقارنة مع أهل المشرق والأندلس، فبتزايد الهجرة الأندلسيّة إلى حواضر المغرب الأوسط فإنّ مذهب التّعليم قد تغير فأُلْحِق به علم الحديث، وقوانين اللّغة العربيّة ورواية الشّعر وأخبار العرب وغيرها من العلوم الأخرى المكمّلة لهذه العملية التعليميّة « فإذا أتمّ الصّبي مرحلة التّعليم في الكتّاب جاز امتحاناً فيما حفظ من القرآن، وفي الكتابة واختبار حفظ القرآن كلّه يُعرف بالختمة، وعندئذ إمّا أن ينقطع عن التّعليم ويتّجه إلى الصّناعة التي يريد أن يزاولها لكسب المعاش، وإمّا أن ينصرف إلى مرحلة أخرى من التّعليم أرقى من التّعليم في الكتّاب»[1] فهو تعليم أوّلي يسهّل على الطالب الانتقال إلى معاهد تعليميّة كبرى، وهناك يمكنه التخصّص في العلم الذي يودّ مزاولة الدّراسة فيه.

- الرّبط والزّوايا:

عرف المسلمون نوعاً من المؤسّسات الدينيّة والتعليميّة أطلقوا عليه تسمية الرّباط، وهو عبارة عن« بناية مستقلّة تشبه الثّكنات العسكريّة يرابط فيها المجاهدون عن الحدود، ومع مرور الزّمن أصبحت تُطلَق على البيوتات التي يأوي إليها الصّوفية اعتكافا على العبادة ومدارسة القرآن والحديث»[2] فالأصل في الرّباط أنّه وُضع كقاعدة حربيّة يصدّ به المرابطون أعداء الإسلام، إلاّ أنّه قد اضطلع بدور هامّ فيما بعد تمثّل في ازدواج الجهاد فيه بالعبادة وتقديم الدّروس الدينيّة والعلميّة، مثلما فعل الزّعيم الدينيّ لدولة المرابطين عبد الله بن ياسين حينما« اتّخذ رباطاً على مصبّ نهر السّنغال، وانعزل فيه للعبادة وتعليم أتباعه مبادئ الإسلام الصّحيحة»[3] فأصبح الرّباط نبراساً للعلم ومنطلقاً للقضاء على البدع وخدمة الدّين، وبفضله شهد عصر المرابطين أزهى الفترات الثقافيّة، بينما ارتقت وظيفته في عصر الموحّدين فاقترن بدعوتهم للتّوحيد ونشر عقيدة المهدي؛ حيث تمكّن هذا الأخير « بمنهجه التّربوي السّديد إكمال رسالة الرُّبُط التي بدأها المرابطون، وطوّر بساطة التّعاليم الرّباطية، إذ جعل علم الكلام وعقيدة التّوحيد أساساً للثّقافة الموحّدية، وأنشأ رابطة في بداية دعوته

[1]- التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص65.

[2]- ينظر الكتاتيب القرآنية بندرومة، عبد الرّحمن بن أحمد التّجاني، ص(15، 16).

[3]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص 250.

الإصلاحيّة لتكون مقراً للعلوم»[1] فبالإضافة لمهمّة الجهاد نجد أنّ الموحّدين وجدوا في الرُّبُط[2] ذلك المجال الفسيح لتلقين أتباعهم عقيدة التّوحيد، كما جاء بها معلّمهم الأوّل ابن تومرت والاطّلاع على مؤلفاته والعملِ وِفْقَهَا.

والمتتبّع لانتشار الرّبط وازدهارها سيلحظ حتماً حاجة المرابطين إلى عدّة مرافق ومنشآت تمكّنهم من القيام بمختلف الوظائف المنوطة بهم، فضلا عن تشييد أماكن للإيواء والإطعام، فكان من الضّروري بناء زاوية تجمع كلّ المزايا؛ حيث حلّت محلّ الرّباط تدريجيّا وأصبحت بناءً يحمل طابعا دينياً واجتماعياً وثقافياً مهماً وهي على أنواع منها« البسيطة التي لم تنشأ على ضريح أحد الأولياء، وإنّما هي مجموعة من الأبنية المتلازمة منها مبيت الطّلبة على شكل غرف، والكتّاب وغرفة التّدريس والمكتبة والمسجد ثمّ المرافق اللازمة، أمّا النّوع الآخر فهو الزّوايا ذات الولي التي أُنشئت حول ضريح أحد الأولياء، في حين نجد الزّوايا الطرقيّة الخاصّة بأصحاب الطّرق الصوفيّة، وفيها يردّدون الأناشيد والأحزاب بالطّريقة إلى جانب مهمّة التّعليم»[3] فهذه الزّوايا على اختلاف أنواعها قد وُجدت لإيواء الغرباء من المحتاجين وطلبة العلم والمتصوّفة وعابري السّبيل، فيتمّ الإنفاق عليها من لَدُن بعض الجهات الرّسمية بالدّولة أو من الأوقاف والحُبس أو هبات أهل الخير والصّلاح.

وقد شهدت حضارة تلمسان ظهور هذا النّوع من المعاهد التعليميّة في سائر أرجائها، فراحت تؤدّي دورا هاماً في تقريب أفراد المجتمع من دينهم الصّحيح« فاهتمّت بتحفيظ القرآن وترتيله، وعقد جلسات الذّكر آناء اللّيل وأطراف النّهار، وتلقين الطّلبة مختلف العلوم، إلى جانب القيام ببعض أعمال البرّ والإحسان، وكلّ ما من شأنه تربية النّاس تربية علميّة وروحيّة»[4] ونظراً لكلّ ما تقوم به

1- التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص252/نقلا عن ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، ج6، ص303.

2- من بين الحواضر التي اشتهرت بظهور الرّبط فيها مدينة تلمسان، بفضل قرية العبّاد التي احتوت على قبور الأولياء التلمسانيّين، وعدد من المساجد والمدارس والخانات وأهمّها رباط العبّاد، للتّفصيل أكثر ينظر رحلة العبدري، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، تحقيق وتقديم علي إبراهيم كردي، ص48.

3- ينظر التّربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص40.

4- ينظر الكتاتيب القرآنية بندرومة، عبد الرّحمن بن أحمد التّجاني، ص16.

الزّاوية من أعمال فقد الْتَفَّ النّاس حولها من علماء وطلبة، وأسهموا في الحفاظ على كتاب الله وسنّة نبيّه من الضّياع واحتضنوا اللّغة العربيّة والثّقافة الإسلاميّة، وخلّصوا المجتمع من الجهل والتّقاليد البالية فتخرّج منها كمٌّ هائل من العلماء شاركوا في تنوير الأمّة ورفع مشعل الحضارة.

- المدارس:

تعدّ المدرسة من أبرز المعاهد التعليميّة والتّثقيفيّة، فهي عبارة عن مبنًى معيّن يضمّ مجموعة من طلّاب العلم والمعرفة يشرف على تدريسهم عدد من المدرّسين الأكفاء أو العلماء، وقد شُيّدت في مختلف الأماكن رفعاً للضّغط الكبير الحاصل على المسجد الذي كان يقوم بمهمّتي العبادة والتّعليم معاً، إضافة إلى« تشجيع الحكّام-وبخاصّة في العهد الزّياني- البناء والعمران وحاجة الدّولة لتنظيم عمليّة التّعليم، وخلق حركة ثقافيّة نشطة من شأنها تخريج علماء يُسهمون في انتشار الحركة العلميّة في المغرب الإسلامي كافّة»[1] ويبدو أنّ تفاعل مختلف الحواضر مع بعضها وانتشار العلوم وتنوّعها؛ قد حتّم على أولي الأمر بناء المدارس لتهتمّ بعملية التّعليم اقتداءً بمن سبقهم في ذلك من أهل المشرق الإسلامي، حيث تشبّعت الآراء وتضاربت حول ظهور هذا النّوع من المؤسّسات ببلاد المغرب فتذكر بعض المصادر والمراجع التّاريخية أنّ الموحّدين هم أصحاب السّبق في تأسيسها، في حين تفنّد أخرى هذا الرّأي فتُرجع ظهور المدارس بالمغرب إلى القرن السّابع الهجري من لدن الحفصيّين والمرينيّين ومن بعدهم الزّيانيين، ولكلّ فريق من هؤلاء أسانيد يذكرها ليدعّم رأيه ممّا لا يدع مجالا للجزم بصحّة أو خطأ ما جاءت به[2] .

---

[1]- ينظر تلمسان في العهد الزّياني، بسّام كامل عبد الرزّاق شقدان، رسالة ماجستير، إشراف د هشام أبو رميله، قسم التّاريخ، كلية الدّراسات العليا، جامعة النّجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م، ص240.

[2]- من بين المصادر والمراجع التّاريخية التي تضاربت فيها الآراء حول قضية أوّل ظهور للمدارس ببلاد المغرب نورد منها: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لأبي دينار، ص134، والأنيس المطرب بروض القرطاس لأبي زرع الفاسي، ص180، والتّربية الإسلاميّة في المغرب لمحمد عادل عبد العزيز، ص41، وتلمسان في العهد الزّياني لعبد العزيز فيلالي، ج1، ص141، والتّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين لصفية ديب، ص256.

والمتأمّل في وظيفة المدرسة سيجد حتماً بأنّها نتيجة تراكم خبرات التّعليم الذي سبقها؛ على اختلاف أنماطه في المساجد والكتاتيب والرّبط والزّوايا، وبذلك فقد ظهرت منذ عهد المرابطين فالموحّدين وتبلورت أكثر وأصبحت ممنهجة في العهود التي لحقت بهما، وصارت تؤدّي دوراً أساساً في نشر العلوم والمعارف، وقصدها الطّلبة من كلّ فجٍّ « يتلقّون فيها العلوم النّقليّة من فقه وحديث وقراءات وتفسير، وأصول الدّين، والعلوم الأدبيّة كالعربيّة والنّحو والبيان، إلى جانب العلوم العقليّة والكونيّة من منطق وحساب وهندسة وتنجيم وطبّ»[1] فالطّالب بهذه المدرسة زيادة على تلقّيه نصيباً من العلوم بسائر المعاهد التعليميّة السّابقة، فإنّه سيتمكّن فيها من ترسيخ عقيدته الإسلاميّة ويحافظ على قيمه الرّوحيّة، كما أنّه سيُنمِّي معارفه الأدبيّة واللّغويّة، ويُغني رصيده من العلوم الكونيّة المكمّلة للعمليّة التّعليميّة.

ويظهر أنّ النّصوص التّاريخيّة أحجمت عن الحديث عن مدارس حاضرة تلمسان قبل القرن السّابع الهجري، سوى ما أسّسه حكّام المرابطين والموحّدين من مدارس في أماكن مختلفة من بلاد المغرب مثلما فعل« عبد المؤمن بن علي حينما أسّس المدارس بمراكش منها المدرسة العامّة لتخريج الموظّفين، والمدرسة الملكيّة لتعليم أمراء الموحّدين، والمدرسة التي أسّسها بالرّباط لتعليم فنّ الملاحة، ثمّ عمد إلى تعميمها على كافّة المغرب»[2] وكذلك فعل أبناء عبد المؤمن من بعده حيث اختطّوا المدارس بالمغرب والأندلس وأرفقوها بخزائن الكتب وعمروها بالطّلبة والمدرّسين، ليحذُوَ الزّيانيون حَذْوَ من سبقهم فيعملوا على تشييد هذا الصّنف من المؤسّسات التربويّة« فبنُو زيان كانت لهم يد بيضاء على إنشاء المدارس التي تعدّ مراكز لتأصيل الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ونافذة على استقطاب الأساتذة

---

[1]- ينظر تاريخ الثّقافة الجزائريّة من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صاح بن نبيلي فركوس، ج1، ص202، وينظر المدارس العلميّة بتلمسان على عهد بني زيان إشعاع فكري وحضاري، فايزة بوسلاح، مجلّة عصور الجديدة، مختبر البحث التّاريخي تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد02، 2011م، ص181.

[2]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص(258، 259)، وينظر التّربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص(41،42).

والطّلبة ليس من الجزائر فحسب، بل من مختلف أقطار المغرب العربي»[1] فكان المقصد الأساس من إنشاء هذه المدارس[2] مضاهاة الدّول المجاورة والمتاخمة للدّولة الزّيانية، وتخريج أكبر عدد من فطاحل العلماء والأدباء الذين يمكنهم أن يكونوا أهلا لمنافسة سائر أقرانهم بحواضر المغرب الإسلامي؛ من هؤلاء نورد اسم العالم الجليل عبد العزيز بن عمر بن مخلوف التّلمساني مولدا« وقد نزل بجاية وطاب له المقام فيها فألفى عند أهلها إقبالا على دروسه، واعتناءً بدرره، فلم يضِنَّ بنثرها بينهم، بل عمل على أن يأخذ منها كلّ ناشد لها بنصيب»[3] فهو بتولّيه مهمّة التّدريس إلى جانب عدد كبير من المدرّسين، قد امتازوا بقدراتهم الفائقة على تبليغ رسالة العلم للأجيال، وتركوا بصمات واضحة في رصيد الحركة العلميّة والثقافيّة بالحاضرة تلمسان.

- المكتبات:

شكّلت المكتبات منذ القدم وسيلة فعّالة لنشر العلم والمعرفة، فهي عبارة عن دُور شُيّدت خصّيصا لتحتوي المصنّفات الفريدة، وأمّهات الكتب وسائر الكتب المؤلَّفة في شتّى أصناف العلوم، كما أنّها «كائنات حيّة انبثقت عن المجتمع الذي وُجدت فيه نتيجة لتطوّره وحاجته إليها، وهي في الوقت نفسه ساعدت كلّ المساعدة على تطوّر هذا المجتمع ودفعه في طريق الرّقي والنّجاح والفلاح»[4] فهذه المكتبات هي في الحقيقة مرآة عاكسة للمجتمع وخير دليل على مدى ازدهار الحركة الفكريّة والعلميّة به، فضلا عن أنّها تمثّل العنصر الفعّال في استقطاب الطّلبة والعلماء الذين يزورونها للنّهل من معين ثقافتها وغِنى رصيدها من الكتب وتنوّعه.

---

[1]- من أعلام الأساتذة المدرّسين بتلمسان في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، محمد مرتاض، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الخامس، ص14.

[2]- احتوت مدينة تلمسان عاصمة الزّيانيّين بعد القرن السّابع الهجري على عدد هائل من المدارس التي طارت شهرتها في الآفاق نورد منها: مدرسة ابني الإمام، والمدرسة التّاشفينيّة ومدرسة أبي مدين بالعبّاد، ومدرسة سيدي الحلوي، والمدرسة اليعقوبيّة ، للتّفصيل أكثر ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج1، ص(142، 143، 144).

[3]- ينظر من أعلام الأساتذة المدرّسين بتلمسان في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، محمد مرتاض، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الخامس، ص18.

[4]- المكتبات في الإسلام نشأتها وتطوّرها ومصائرها، محمد ماهر حمادة، ص24.

وقد عرف المغرب الأوسط باختلاف حواضره عددا هائلا من المكتبات التي انتشرت عبر ربوعه؛ فصارت تؤدّي دورا رياديا بالموازاة مع تلك المؤسّسات العلميّة المعروفة هنا وهناك، وغالبا ما كانت المكتبات مُلحقة بالمساجد والمدارس والزّوايا، وقصور الأمراء والسّلاطين الذين دأبوا على إنشائها وتزويدها بأنفس المخطوطات« وهو ما يشكّل معلماً من معالم سياسة الدّولة في الاهتمام بالعلوم وتقريبها للدّارسين، كما يؤكّد محاولة الدّولة في الظّفر بالمجال العلمي للاستعانة به في تدبير أمور الملك، وإقامة الدّولة، والظّهور بمظهر المهتمّ في مالَه علاقة بالعلم والعلماء»[1] فقد برع حكّام حاضرة تلمسان منذ عهد المرابطين فالموحّدين ومن بعدهم الزّيانيّين؛ في إقامة المكتبات وخزائن الكتب واعمارها بالكثير من المصنّفات، وترتيبها حسب نوعية العلوم التي أُلّفت فيها وبذلك يتيسّر للدّارسين الاطّلاع عليها والاستفادة منها ونسخها، وهو ما يُثري الحركة الفكريّة بالمدينة، ويُسهم في تخريج الأجيال المتعلمّة والمثقّفة التي راحت تنافس أقرانها عبر مدن المغرب والأندلس في عملية تأليف المصنّفات البديعة، فمن مظاهر تشجيع الأمراء المرابطين لحركة التّأليف« عنايتهم بظاهرة انتشار كتب الرّدود، وهي ناجمة في أغلب الأحيان عن المناظرات، والمساجلات الثقافيّة التي كانت تتمّ في قصور الأمراء بين العلماء والمصنّفِين الذين تنافسوا لوضع عصارة مخزونهم العلمي والثّقافي واللّغوي في المصنّفات»[2] ويبدو أنّ هذه الظّاهرة قد أسهمت بشكل كبير في دفع العلماء والأدباء لتقديم أفضل ما لديهم، والاستفادة من هفوات بعضهم بعضاً فينالون بذلك استحسان الحكّام ويزجلون لهم العطاء.

وكنتيجة حتميّة لازدهار الحياة الثقافيّة المرابطيّة فإنّ دولة الموحّدين التي تلَتها وجدت الأرضية مهيّأة أمامها؛ فامتلأت المدن المغربيّة بالعلماء والدّارسين ونفقت سوق التّأليف، فأقيمت المكتبات الخاصّة والعامّة وجُلبت إليها الكتب من كلّ مكان بأثمان خياليّة، ومن أمثلة هذه المكتبات نورد « خزانة كتب العالم الفقيه محمد بن عبد الحق اليفرنيّ التّلمساني الكومي الذي كان راوية للحديث، حافظا متكلّما متفنّنا في علوم جمّة، جمّاعة للكتب الجليلة مغاليا في أثمانها، احتوت خزانته

---

[1]- التّعليم بتلمسان في العهد الزّياني، عبد الجليل قريان، جسور للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص133.

[2]- ينظر التّصنيف اللّغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحّدين، فاتن كوكة، الهيئة العامّة السّورية للكتاب، دمشق، ط1، 2012م، ص73.

على ما لم يجتمع لأحد من أبناء جنسه كثرة ونفاسة»[1] فلم يَطلْ الاهتمام بجمع الكتبِ الخلفاءَ وحدهم بل تعدّى ذلك إلى العلماء وعامّة النّاس، فصار البحث عنها هواية لدى البعض منهم، وقد بلغ الأمر إلى غاية استنساخها وتصحيحها وإرسالها كهدايا ثمينة ومفيدة، وحثّ النّاس على مطالعتها والنّهج على منوالها، ونظراً لهذا الوضع الثّقافي المشعّ بأنوار العلوم فقد كان للزيانيّين نصيب معتبر من المكتبات على اختلاف أنواعها ومواضعها التي ضمّت بين أرجائها أمّهات الكتب، وبخاصّة الدينيّة والشرعيّة وكتب الآداب وسائر العلوم العقليّة، إضافة إلى المصاحف التي حظيت باهتمام بالغ حيث « قام مؤسّس دولة بني زيان السّلطان يغمراسن بشراء المصحف العثماني الكريم الذي كان بحوزة السّعيد الموحّدي من سمسار بسوق بيع الكتب في تلمسان، وأمر بصَونه والاحتياط عليه والقيام بحقّه واحتفظ به في خزانته»[2] فقد كان ليغمراسن يد طُولَى في إنشاء خزائن الكتب وتزيينها بنفائس المخطوطات، فلمّا انتهى إليه خبر نهب محلّة السّعيد الموحّدي وخزائنه ومنها المصحف العثماني الذي كان الموحّدون يتبركون به؛ فإنّه سعى لجلبه ووضعه في خزانة بني زيان قبل أن تطاله أيدي حكّام آخرين ماتوا فيما بعد متأسّفين على فقده.

ب- حركة التّعليم بتلمسان:

نالت حاضرة تلمسان مكانة هامّة بين مثيلاتها من مدن المغرب الإسلاميّ، فقد أمّها العلماء والأدباء وطلبة العلم من كلّ حدب وصوب؛ للنّهل من معين ثقافتها وعلومها عبر معاهدها التّعليمية المنتشرة في أرجائها، وهو ما أدّى لازدهار حركة التّعليم وتنوّع نظمها وأشكالها، وأسهم في انتعاش الحياة الفكريّة والعلميّة بالحاضرة.

---

[1]- ينظر المغرب الأوسط في عهد الموحّدين، علي عشّي، ص128/نقلا عن الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المرّاكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر8، ص318.

[2]- ينظر تاريخ الثّقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صالح بن نبيلي فركوس، ص207 /نقلا عن تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود أغا بوعياد، ص124.

- التّربية والتّعليم:

أدرك علماء الإسلام ما للعلم من أهميّة في النّهوض بالحضارة العربيّة الإسلاميّة، وأنّ ذلك لن يتأتّى إلاّ بتوجيه العناية الفائقة لجانبَي التّربية والتّعليم؛ لِمَا لهما من عظيم الأثر في تكوين الأجيال المسلمة وتثقيفها ضمن العقيدة الإسلاميّة، وطبعها بطابع خاصّ يتميّز عن أيّ لون آخر من ألوان التّربية؛ ذلك أنّ « التربية عبارة عن نقل الحضارة من جيل إلى جيل، حتّى يظلّ الإنسان في المستوى الرّفيع الذي وصل إليه، ويتمثّل هذا المستوى في الآداب، والعلوم، والفنون، والصّناعات التي حفظ التّدوين ثمارها، فأضحت التّربية الإسلاميّة سبيلا للمحافظة على التّراث القديم ودافعاً قوياً نحو التّقدم والتّجديد »[1] فقد دأب المربّون على تربية الأفراد وفق ما جاء به الإسلام من تعاليم تكفل لهم التّعليم الجيّد لأمور دينهم ودنياهم، وتضمن الاطّلاع على ما ورثه الإسلام من مخلّفات الحضارات قبله، فضلا عن تأهيلهم لاستقصاء كلّ صغيرة وكبيرة في مجال العلم قصد الارتقاء في السّلم الحضاري.

والمتأمّل في تاريخ مدينة تلمسان سيجد حتماً بأنّها قد تزوّدت بالعديد من المؤسّسات التّعليميّة والتّربوية التي عمل مدرّسوها على تطوير العمليّة التّعليمية وإنجاح مساعيها، بل تعدّت مُساهمتهم حدود التّدريس حيث قلب بعضهم موازين القوى السياسيّة والفكريّة ببلاد المغرب « فقد أقام الدّولة المرابطيّة رجال كانوا يمارسون التّدريس والتّعليم بشكل عامّ، مثل أبي عمران الفاسي، ووجّاج بن زلّو اللّمطي، وعبد الله بن ياسين، وكان صاحب الانقلاب السّياسي والفكريّ الذي أنشأ دولة مترامية الأطراف على أنقاض المرابطين، طالبٌ أنهى دراسته في بلاد المشرق هو المهدي بن تومرت، فجاء معلماً أدخل تنظيمات جديدة في التّعليم، واعتمد على عنصر الطلّاب والحفّاظ في التّربية والتّعليم،

[1]- ينظر التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص(19، 20).

وفي استمراريّة الدّولة»[1] فلا عجب أن تكون الحياة الفكريّة بتلمسان عبر عصورها المتعاقبة مزدهرة؛ بسبب الاهتمام المتزايد من لدن الحكّام والعلماء المدرّسين بعمليّة التّربية والتّعليم، ومحاولاتهم الدّؤوبة لتبسيطها وترسيخها في عقول الأفراد ونفوسهم.

ظلّت قضيّة التّربية والتّعليم الشّغل الشّاغل لعلماء تلمسان، إذ راحوا يرسمون الخطط والتّصوّرات من أجل تحقيق الكثير من الأهداف، والأغراض التّربويّة بمساعدة بعض المؤلّفات الخاصّة بهذا الموضوع التي ألّفها أصحابها من مفكريّ التّربية انطلاقا من تجاربهم المعاشة في ميدان التّدريس والتّعليم[2] وبما أثارته من قضايا تتّصل بأدقّ ركن من أركان العمليّة التّعليميّة، من أهمّها ما يتعلّق بالمدرّس الذي أُنيطت به مسؤوليّة تربية الصّبيان وتعليمهم، وهو في الوقت نفسه مَثَلُهم الأعلى وقُدوتهم في الأقوال والأفعال، لذلك لا بدّ له أن يتحلّى بعدّة خِلال حميدةٍ ويلتزم بأداء واجباته حتّى يؤثّر في طلبته فتستقيم أحوالهم، بل الأهمّ من ذلك « أن يتخلّى عن كلّ شيء للتّعليم، وأن لا يشتغل بغير صناعته، وأن يعمّر أوقات فراغه بالنّظر فيما يعود على تلاميذه بالنّفع والفائدة في تعليمهم، ومراقبة غدوّهم ورواحهم، وأن ينتهج المساواة التامّة في تعليم أبناء الأشراف والفقراء، فلا فرق بين الحقير والغنيّ بل هما سواسية في ذلك »[3] ولهذا كان لزاماً على المعلّم أن يتفرّغ تماما لتربية الأجيال؛ فهُم على صلة به أكثر من أهاليهم بحكم الوقت الذي يقضونه معه في التّعليم، فتنطبع شخصيّته وأخلاقه بهم، وهو ما يساعده على تلقينهم سائر المعارف وكيفيّة العمل بها من غير وضع اعتبارات لأبناء العامّة والخاصّة وإنّما يريد بعلمه ابتغاء مرضاة الله.

---

[1]- ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص343/نقلا عن مقدمة جوانب من تاريخ التّعليم في المغرب الوسيط بين القرن (7-9هـ)، الحسن إسكان، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في العلوم، كليّة الآداب، جامعة محمد الخامس، الرّباط، 1988م، ص1.

[2]- من أبرز مؤلّفات التّربية والتّعليم بالمغرب الإسلامي وأهمّها نورد: كتاب آداب المعلّمين لمحمد بن سحنون، وكتاب الرّسالة المفصلّة لأحوال المعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين للفقيه القابسي، للتّفصيل أكثر ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص(46إلى54).

[3]- ينظر كتاب آداب المعلّمين، محمد بن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، ص49.

وكما اهتمّ المجتمع بالمعلّم ومالَه من حقوق وما عليه من واجبات، فإنّه لم يُغفل جانب الصّبي أيضا حيث حرص المدرّسون على تعليم الصّبيان أمور دينهم وطبعهم على حبّ الله وحبّ الخير « فيبدؤون بحفظ القرآن عن ظهر قلب ثمّ ينتقلون لدراسة الشّريعة وسائر العلوم الأخرى التي تقوم على الفهم لا الحفظ لأهميّتها في صقل عقولهم»[1] فنجد الصّبيان يتلقّون المبادئ المختلفة عن معلّمهم فيرشدهم إن أخطئوا، ويُثني عليهم إن أصابوا ويزرع فيهم الفضائل الحسنة اقتداءً بسيّد البشريّة محمد (عليه أزكى الصّلاة والسّلام) فتتوطّد صلتهم بالخالق الواحد، ويعظم احترامهم وتقديرهم للمدرّس الذي كرّس جهده لتعليم الأجيال الصّاعدة.

مراحل التّعليم ومناهجه:

إنّ التّعليم هو الأساس المتين لكلّ نهضة ثقافيّة، بل المحرّك الدّافع لازدهار الحياة الفكريّة والعلمية، فقد انتشر عبر ربوع حاضرة تلمسان وتمّ له النّضج والتطوّر بمؤسّساتها التعليميّة المختلفة ضمن مراحل متباينة حدّدها مفكّرو التّربية والتّعليم وكذا المدرّسون، ففريق منهم يرى أنّ التّعليم يمرّ بمرحلتين أساسيتين هما المرحلة الابتدائيّة ومرحلة الدّراسات العليا، أمّا الفريق الآخر فيرى وجوب تقسيم التّعليم إلى ثلاثة مراحل يمكن أن نصطلح على تسميتها بالمرحلة الابتدائيّة ثمّ الثانويّة فالتّعليم العالي، والمهمّ في الموضوع كلّه أنّه بالرّغم من وجود الاختلاف في التّقسيم فإنّ طلّاب العلم كانوا يتدرّجون عبر هذه المراحل فيتمكّنون من اكتساب العلوم والمعارف الأوليّة ثمّ يرتقون شيئاً فشيئاً في السلّم التّعليمي.

اهتمّ الأولياء بإرسال أبنائهم إلى المساجد أو الكتاتيب والزّوايا لتلقّي المعارف الأولى اللّازمة؛ ضمن المرحلة الأولى من التّعليم التي يمكن التّعبير عنها بالمرحلة الابتدائيّة، وهي تبدأ في سنٍّ مبكّرة أي عندما يبلغ الصّبي ما بين السنّ الخامسة إلى السّابعة من العمر،كما أنّ العمليّة التعليميّة لم تقتصر على الذّكور فحسب بل « اختصّ التّعليم الابتدائي بالولدان الذّكور والإناث فكان شاملا

[1]- ينظر الرّسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين، أبي الحسن علي القابسي، تحقيق أحمد خالد، ص20.

للجنسين، لاسيما عند المياسير وذوي الحيثيات وأرباب المناصب العالية ممّن مهّدوا السّبل لتلقين بناتهم القرآن والعلم»[1] فقد شمل التّعليم كلا الجنسين وبخاصّة البنات للضّرورة الدينيّة، فلابدّ للفتاة أيضا أن تتعلّم ما يجود به الدّين الإسلامي من عبادات ومعاملات وحفظ القرآن وترتيله، حتّى وإن هي لم تلتحق بالكتاتيب أو المساجد فإنّها نالت حقّها من العلم بعد انصراف الفتية أو في بيوت العلماء وقصور الخلفاء.

يتلقّى الطّلبة في بداية مشوارهم الدّراسي حروف الهجاء والكتابة والقراءة «على أنّ أهمّ ما يدرس الصّبي هو حفظ القرآن على الطريقة الفرديّة أو الجمعيّة، إذ يبدأ المعلّم أو العريف بآية يردّدها الصّبيان من بعده، ولكلّ صبيّ لوح يكتب فيه، ويثبت ما يريد أن يحفظه، ثمّ يمحوه ليكتب شيئاً جديداً، ولم يكن من اللاّزم أن يحفظ الصّبي القرآن كله، إلّا إذا كانت تلك رغبة أبيه»[2] فالقرآن الكريم هو أساس الدّين وأصل كلّ المعارف الأخرى، لذلك استهلّ المدرّسون تعليم الصّبيان بقراءته وحفظ بعض الأجزاء منه أو حفظه كاملا، فنجد أنّ المرابطين قد دعموا الجانب التّعليمي بدولتهم كما أولوا العلوم الدينيّة مرتبة هامّة أكثر من غيرها من صنوف العلوم من ذلك «تشجيع الأمراء المرابطين على تعليم الأطفال الصّغار في الكتّاب من أبناء العامّة والخاصّة القرآن الكريم وحفظه وتجويده، وسائر مبادئ الدّين واللّغة العربيّة وقواعدها»[3] إيماناً منهم بأهميّة تعلّم كتاب الله لدى الصّبيان في هذه السنّ الصّغيرة؛ حيث يسعون لحفظه آية بعد آية ضمن حلقات تعليميّة يشهدها مدرّسون مبرزون وردوا تلمسان من مختلف الأماكن، وكذلك الحال بالنّسبة للموحّدين[4] الذين حَذَوْ حَذْوَ المرابطين في الحثّ على تلقين القرآن للطّلبة كمحور أساس في هذه المرحلة،

---

[1]- ينظر كتاب آداب المعلّمين، محمد بن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، ص38.

[2]- التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص65.

[3]- ينظر التّصنيف اللّغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحّدين، فاتن كوكة، ص67.

[4]- وضع مؤسّس دولة الموحّدين ابن تومرت منهجا متميّزا في تعليم أبناء الموحّدين، حيث أوجب عليهم حفظ القرآن وجعله المحور الرئيس الذي تدور حوله سائر أنواع العلوم، كما أسهم بنفسه في تسهيل وسائل التّعليم للمتعلّمين من أجل تلقينهم السّور القرآنية وآياتها بالعربيّة، للتّفصيل أكثر ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص (54، 55).

ومن بعدهم بنو عبد الواد أيّام ازدهار الحركة الفكريّة بتلمسان واستقطابها للعلماء والمدرسين المشهورين في البلاد العربيّة.

وبعد أن يُنهي الصّبيان تعلّم القرآن الكريم وحفظه، يُرفقه المعلّمون بعلوم أخرى ثانويّة ومكمّلة للعمليّة التعليميّة، تندرج ضمن قسمين أساسيين حددهما التّربويّون من أمثال ابن سحنون والقابسي حتى يستطيع كلُّ من المدرّس والطّالب الاطّلاع على العلوم الواجب معرفتها، فأطلقوا على أحد هذين القسمين اسم التّعليم الإجباري وهو يضمّ القرآن بالدّرجة الأولى، يليه تعلّم العبادات وكيفيّة أدائها وبعض العربيّة وعلومها لأنّ «المعرفة الصّحيحة للقرآن تستلزم العلم بالنّحو لإعراب الكلمات إعرابا صحيحا، والعلم باللّغة العربيّة لفهم معاني القرآن، والعلم بالهجاء والخطّ لكتابته والنّطق به صحيحا»[1] فلابدّ للصّبيان من معرفة دينهم والإلمام بسائر العلوم اللّسانيّة لأنّها مقوّية للعلم بالقرآن، مساعدة على فهم معانيه بالشّكل الصّحيح، يؤدّيها في ذلك حسن الخطّ وجودة رسمه ممّا يؤدّي لضبط القراءة والابتعاد عن التّحريف، وأمّا القسم الآخر فهو التّعليم الاختياري ويتمثّل في «الحساب وجميع النّحو والعربيّة، والشّعر وأيّام العرب وأخبارها وهي غير لازمة للصّبي إلّا باتّفاق بين المعلّم ووليّ المتعلّم»[2] ففي هذا النّوع من التّعليم يمكن للصّبي اختيار أحد هذه العلوم لدراستها من غير أن تكون مفروضة عليه؛ لابتعادها نوعا ما عن الصّفة الدينيّة؛ وإنّما يُراد من وراء تلقينها للأجيال تنويع التّعليم وتغذيته ببعض المفاهيم التي تساعدهم على توسيع مداركهم وإتمام عملية نضجهم العقلي.

والمتأمّل في هذه العملية التعليميّة سيلاحظ أنّ حاضرة تلمسان قد سارت على نهج المغاربة في السّماح للصّبيان بتعلّم القرآن وحده دون سواه من سائر العلوم، وهذا ما يؤكّده ابن خلدون بقوله:« وكان مذهب أهل المغرب في تلك المرحلة الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء

---

[1]- التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص171، وينظر كتاب آداب المعلّمين، محمد بن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، ص102.

[2]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص57.

المدارسة بالرّسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، ولا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر ولا من كلام العرب»[1] حيث ابتغى المغاربة من وراء هذا النّهج تلقين القرآن الكريم لأبنائهم، وما تعلّق به من مسائل صافياً خالياً من تشويش الموادّ الأخرى على حسن تعلّمه، ولكن مع تزايد هجرة الأندلسيّين إلى مدن المغرب الأوسط وبخاصّة تلمسان فإنّهم امتهنوا التّعليم، فمزجوا تعلّم القرآن بسائر العلوم المكمّلة له انطلاقا ممّا عهدوه في بلادهم؛ من إرفاق تعلّمه بالشّعر والعربيّة والخطّ وغيرها من العلوم الأخرى قاصدين من ذلك البدء بالأهمّ فالمهمّ والتدرّج من السّهل إلى المعقّد.

والغالب أنّ المعاهد التعليميّة المتعدّدة بالحاضرة، كانت تسطّر برامج محدّدة تكفل بواسطتها السّير الحسن لدروس الطّلبة وكذا أوقات راحتهم، فالدّراسة تشمل سائر أيّام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة، وتدوم طوال شهور السّنة ما عدا عطل الأعياد، فيبدأ الصّبيان في التعلّم منذ« صباح يوم السبت وينتهون في عصر يوم الخميس ويبقى يوم الجمعة عطلة، فيدرسون القرآن من أوّل النّهار في وقت مبكّر حتّى الضّحى ثمّ يتعلّمون الكتابة من الضّحى إلى الظّهر، وبعد ذلك ينصرفون إلى بيوتهم لتناول الغذاء ويعودون بعد صلاة الظّهر، ثمّ تدرّس لهم بقيّة العلوم كالنّحو والعربيّة والشّعر وأيّام العرب والحساب من بعد الظّهر إلى آخر النّهار»[2] فيفتتح المدرّس الفترة الصباحيّة بتحفيظ طلّابه القرآن الكريم عندما يكونون مكتملي النّشاط، فالكتابة ليَحِين زمن انصرافهم للغذاء ونيل قسط من الرّاحة، ثمّ يرجعون في المساء لتعلّم سائر العلوم الأخرى، وهو برنامج يسمح للطلّاب بتعلّم العديد من العلوم بشكل منظّم وممنهج لا يضرّ بالمدرّس ولا بالدّارس، كما يحدّد فترات الرّاحة المناسبة فيجعل من يوم الجمعة بأكمله راحة للصّبيان كما هي العادة عند المسلمين، فضلا عن راحة الأعياد الدينيّة حيث تتحدّد « بيوم واحد لعيد الفطر ولا بأس أن يأذن المعلّم للصّبيان بثلاثة أيّام، وعيد

[1]- التّربية الإسلاميّة في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص10/نقلا عن المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص740.

[2]- ينظر التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص(183، 184).

الأضحى ثلاثة أيّام ولا بأس أن يأذن لهم بخمسة أيّام»[1] فالمتتبّع لنظام هذه العطل سينتبه للقيمة الهامّة التي أولاها التربويّون لراحة الطّلبة، ممّا يساعدهم على استجماع قواهم والتّرويح عن أنفسهم لاكتساب المعارف من جديد.

وبعدما ينتهي الصّبيان من تعليمهم ضمن المرحلة الأولى أو الابتدائية فيُلِمُّونَ بحفظ كتاب الله العزيز وسائر العلوم اللّسانية المساعدة على فهمه ومختلف العلوم الأخرى، فإنّهم ينتقلون تدريجيّا إلى المرحلة التّالية وهي المرحلة العليا أو التّعليم العالي في مدارس متنوّعة تنتشر عبر ربوع تلمسان أو المدن الإسلاميّة المتعددة، إلّا أنّ التّعليم في هذه المؤسّسات يتميّز بمقدرة الطلّاب في اختيار المواد التي يرغبون في دراستها منفردة أو متعدّدة، وقد تمثّلت في «جملة من المواد النّقليّة والعقليّة، فتتمّ مدارسة القرآن الكريم وتفسيره، وعلم القراءات، والحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، وأصول الدّين والسّيرة، والتصوّف والتّوحيد، وإلى جانب ذلك يدرس الطّالب مجموعة من العلوم العقليّة مثل المنطق والهندسة والحساب والفلك وغيرها من العلوم المتداولة»[2] فيتخصّص الطّالب في العلوم الدينيّة بالدّرجة الأولى أو سائر العلوم الدنيويّة؛ ولكن بمزيد من الشّرح والتّفصيل في مسائلها المختلفة، إلّا أنّ هذه الحرية في الاختيار كانت في بعض الأحيان تحدّد من لدن الأولياء أو الأساتذة، مثلما هو الحال بالنسبة للمرابطين الذين حظروا تداول بعض العلوم وأجازوا الأخذ بعلوم أخرى[3] أو الموحّدين الذين اهتمّوا بالعلوم الدينيّة أكثر من غيرها وهو ما « منح الفكر الإسلامي ورجالاته

---

[1]- ينظر جامع جوامع الاختصار والتّبيان فيما يعرض للمعلّمين وآباء الصّبيان، أحمد بن أبي جمعة المغراوي، تحقيق أحمد جلولي البدوي ورابح بونار، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص53، وينظر كتاب آداب المعلّمين، محمد بن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب،ص97.

[2]- تاريخ الثّقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صالح بن نبيلي فركوس، ج1، ص(265، 266).

[3]- كانت نزعة عبد الله بن ياسين قائمة على العقيدة السّلفية والفقه المالكي أكثر ممّا هي قائمة على أيّ علم آخر، فغلب هذا الميل على الدّولة في وضع منهج تعليميّ قائم على الفروع، فتقدّم النّظر في الفقه على علم أصول الفقه واشتدّ العداء للعلوم الفلسفيّة والمسائل الكلامية، للتّفصيل أكثر ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص(74، 75).

فرصا لإبداع علوم جديدة وطيدة الصّلة بالقرآن والحديث، كما رسمت سياسة الدّولة الموحّدية في هذه المرحلة ملامح خاصّة تتماشى وعقيدتها، ففرضت مناهج ومواد على المتعلّم، وتركت المجال فسيحا لقدراته الإبداعية»[1] فهنا نستطيع أن نلاحظ تلك السّياسة الحكيمة للموحّدين في النّهوض بالتّعليم انطلاقا من ثمرة جهود المرابطين قبلهم، والاقتداء بهم في العناية بالعلوم الدينيّة إلّا أنّه يتوجّب عليهم ترك بعض الحرية لتفجّر الطّاقات الإبداعيّة للطّلبة في الأخذ بالعلم الذي يريدونه، وتمهيد السّبل لهم وتشجيعهم للوصول إلى مبتغاهم، فضلا عن السّماح باختيارهم للشّيوخ والمدرّسين أو شدّ الرّحال إلى بلدان أخرى للنّهل من معارف علمائها الأجلّاء والمشهود لهم بالصّلاح.

ويبدو أنّ طرائق التّدريس التي عرفتها حاضرة تلمسان قد تباينت لأنّها ترجع بالضّرورة للاختلاف في العلوم المدرّسة للطّلبة، وكذا الشّيوخ الملقِّنِين لها، فضلا عن ذلك التطوّر الفكري والنّضج العقلي الذي عرفته المدينة آنذاك؛ فمن بين هذه الطّرق وأقدمها نورد طريقة التّلقين والحفظ حيث« يتعلّم الصّبيان القرآن الكريم ومختلف العلوم المتّصلة به والتي تحتاج للحفظ فيتمّ التّلقين والتّحفيظ إمّا بالقراءة في المصحف أو الألواح أو التّلقين عن ظهر قلب»[2] فكان المدرّس يجمع الصّبيان حوله في حلقة، وفي يد كلّ واحد منهم لوحة يستخدمونها لكتابة أجزاء من القرآن ثمّ يردّدونها للحفظ بأصوات مرتفعة، وهكذا دواليك إلى أن يتمّ حفظ كلّ آيات القرآن،كما يُطالب المتعلّم بعد ذلك بحفظ بعض المتون واستظهارها لتقوية ذاكرته، وهناك أيضا طريقة أخرى تقوم على اختيار المعلّم لكتاب معيّن في علم من العلوم يتولّى شرحه وتبسيطه لطلبته، فتعدّ هذه الطّريقة « من أشهر طرق التّعليم في مرحلة عمريّة وعلميّة متقدّمة، حيث يمسك المعلّم كتاباً ويقرأ منه، ويقوم الطّلبة بكتابة نسخهم، أو أن يقوم طالب من المجموعة بالقراءة في حضرة شيخه الذي يتعهّد بتصحيح القراءة وتقديم النّطق السّليم للكلمات والمواضع الصّحيحة للوقف والابتداء»[3] فإذا اختصّ الطّالب في علم محدّد

[1]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص(73، 74).

[2]- ينظر التّربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص14/نقلا عن جامع جوامع الاختصار والتّبيان فيما يعرض للمعلّمين وآباء الصّبيان، أحمد بن أبي جمعة المغراوي، تحقيق أحمد جلولي ورابح بونار، ص19.

[3]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص152.

فإنّ شيخه سيختار أحد أهمّ المصنّفات في ذلك العلم ويحاول شرحها لطلبته وتقريب فحواها لإفهامهم، وقد اعتمد الموحّدون على هذه الطّريقة في التّعليم أكثر من غيرها من الطّرق، اقتداءً بمعلّمهم الأوّل ابن تومرت في محاولة لشرح أسس عقيدة التّوحيد من خلال كتاب أعزّ ما يطلب والمرشدة والإمامة والقواعد.

أمّا عن المحاورة فهي أسلوب تعليمي اتّخذه المعلّمون بالمغرب الأوسط عامّة فأدمجوه في كلّ طرق التّعليم السّائدة؛ لفائدته في دفع الطّلبة للبحث والتعمّق في المسائل المختلفة، وقد تتحوّل هذه المحاورات في كثير من الأحيان إلى مناظرات للحصول على المعرفة والوصول إلى الحقيقة، وسِجِلّ المرابطين والموحّدين حافل بمثل هذه المناظرات وأشهرها مناظرة المهدي لفقهاء المرابطين وإفحامه لهم، حيث انتهج المدرّسون سبيل المناظرة إيماناً منهم بأنّها « أسلوب فعّال في التّعليم والبحث العلمي، وهي أكثر فائدة، وأكثر توصيلا وتبليغا، فبواسطتها يظهر النّجباء والأذكياء وذوي المواهب»[1] فلا ريب أنّ الطّرق السّابقة بالذّكر تساعد الطّالب على اكتساب المعارف وترسيخها في ذهنه، إلّا أنّه لا يُعقل أن يبقى حبيس الحفظ والتّكرار فلا يستطيع التّعبير عن أفكاره وآرائه، وإنّما بهذه المحاورة والمناظرة سيتمكّن من فهم ما استغلق عليه فيُلِمُّ بالموضوع ويتفطّن لبعض الأمور التي قد تخفى عن زملائه أو شيخه؛ فتعمّ الفائدة وتحتدم المنافسة بين الطّلبة في الوصول إلى الأجوبة الصّحيحة فيزدهر التّعليم ويتطوّر.

وبالحديث عن طريقة المحاورة والمناقشة بتلمسان فإنّ الشّيوخ المدرّسين لم يُفردوا العمل بها في دروسهم، بل كانت تمارس جنباً لجنبٍ مع سائر الطّرق الأخرى بشكل عفوي من غير أن تكون أسلوبا ممنهجاً وخاصاً بعلم من العلوم، في حين أنّها « قد ظهرت كطريقة متميّزة في التّعليم بإفريقيّة ثمّ انتقلت إلى تلمسان بفضل ابني الإمام وأبي موسى عمران المشدالي، فالطّالب هو الذي يقوم بدور رئيسيّ في الوصول إلى المعرفة الصّحيحة، ولاسيما في العلوم العقليّة، أمّا دور

[1]- ينظر التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، ص157.

الأستاذ فيقتصر على الإشراف والتّوجيه وإدارة المناظرة والمناقشة»[1] فانتشرت هذه الطّريقة بدولة بني عبد الواد وصارت ترتكز على البحث والتّفكير وإطلاق الحريّة للطّلبة في حلّ المسائل والقضايا، بمساعدة شيوخهم وعدم الاكتفاء بالإنصات والحفظ، وهو ما أسهم إسهاماً فعّالاً في تقدّم الحركة التعليميّة والفكريّة بالحاضرة.

وبعد أن يُنهي الطّالب تعليمه يتحصّل على شهادة يمنحه إيّاها شيخه الذي لازمه مدّة معيّنة من الزّمن وفي علم محدّد، وقد اصطلح على تسميتها في العصر الوسيط بالإجازة « فكانت تُمنح على شكل وثيقة أو شهادة مكتوبة يقدّمها الشّيخ المدرّس للطّالب،كما قد تكون شفاهية يجيز بها العلماء كلّ طالب للقيام بالفتوى أو التّدريس بعد معاينته واختبار قدراته العلميّة»[2] فالإجازة عنصر مهمّ في العمليّة التعليميّة وضرورة للمعلّم والمتعلّم على حدٍّ سواء، لضمان انتقال العلوم والمعارف بشكل صحيح ومضبوط، كما أنّها دليل على إتمام الطّالب لمساره العلمي وامتلاكه للزّاد الفكري الكافي للرّواية أو ممارسة مهمّة التّدريس ونحوها.

ومن الأساتذة المدرّسين الذين عرفتهم حاضرة تلمسان نورد اسم « أبي يوسف يعقوب بن حمّود التّلمساني الذي يعود أصله إلى أغمات، وقد أخذ بمرسيه عن أبي علي الصدفي، ثمّ عاد إلى تلمسان وباشر التّعليم بها»[3] كما لا نغفل أيضا اسماً آخر لعالم جليلٍ وهو إسماعيل بن إبراهيم التّونسي «وهو تونسي الأصل رحل إلى مراكش، ولكنّه اختار الاستقرار بتلمسان إلى آخر عمره حيث اشتغل بتدريس العلم بها»[4] وهو دليل على أنّ تلمسان تبوّءت مكانة مرموقة فقصدها العلماء المدرّسون

---

[1]- ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص353/نقلا عن المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكار، ص545.

[2]- ينظر التّعليم بتلمسان في العهد الزّياني، عبد الجليل قريان، ص274/نقلا عن البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد الملقّب ابن مريم الشّريف الملّيتي المديوني التّلمساني، مراجعة محمد بن أبي شنب، المطبعة الثّعالبية، الجزائر، دط، 1908م، ص(19، 20).

[3]- ينظر أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج1، ص130.

[4]- ينظر المرجع نفسه، ص145.

من كلّ مكان، فأسهموا في تخريج أجيال من الطّلبة وأثْرَوْا المكتبات بمصنّفاتهم القيّمة في شتّى أصناف العلوم.

ومن بين العلماء والصّالحين الذين كانت لهم يد طولى في التّدريس وإقراء العلم بالحاضرة، أبو عبد الله الشّوذي الأشبيلي المعروف بالحلوي « وهو إمام العارفين، وتاج الأولياء المحقّقين، وسيّد الصّالحين، نزيل تلمسان من أكابر العلماء العبّاد العارفين بالله، كان يدرّس بالمسجد الذي بخندق عين الكسور من المنية التي بخارج باب القرمادين»[1] وقد تتلمذ على يديه جمع من الطّلبة، أبَى في آخر حياته إلّا أن يأوي إلى تلمسان وبها توفي وقبره مزار، كما يُضاف إلى هذه الأسماء عالم نحرير آخر وهو إبراهيم بن يخلف التّنسي الذي نال شرف التّدريس بتلمسان «بطلب من السّلطان يغمراسن حين رغّبه في القدوم إلى تلمسان، وظلّ يُراوده حتّى لبَّى طلبه بعدما كان مستنكفا متأبياً أوّل الأمر، فدرّس بها وتخرج على يده خلق كثير»[2] فهذا العالم قد أفنى عمره في التنقّل بين الحواضر والأخذ عن شيوخها فتكوّنت لديه عصارة من المعارف أهلته لتصدّي الفتوى والتّدريس، فضلا عن التّأليف ووضع الشّروح فقصده الطّلبة من كلّ مكان وانتفعوا بعلمه.

وزبدة القول إنّ تلمسان قد نالت حظوة بين مدن المغرب الإسلامي بفضل المساعي الحثيثة لحكّام الدّول التي تعاقبت في حكمها، ومن جملتها تلك المعاهد التعليميّة المنتشرة هنا وهناك من مساجد، وكتاتيب، وربط، وزوايا، ومدارس، ومكتبات التي كانت ولازالت الأساس الحقيقي لكلّ نهضة فكريّة وثقافيّة، وقد أمّها العلماء المدرّسون من داخل الحاضرة وخارجها، فأسهم كلّ واحد منهم في نشر المعرفة وتعميقها من خلال خبراتهم وتجاربهم في ميادين التّربية والتّعليم التي تطوّرت على أيديهم؛ فتنوّعت مناهجها واكتست صبغة خاصّة راحت تُسهم في تخريج أجيال

1- ينظر البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد الملقب ابن مريم الشّريف الملّيتي المديوني التّلمساني، مراجعة محمد بن أبي شنب، ص(68، 69).

2- ينظر من أعلام الأساتذة المدرّسين في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، محمد مرتاض، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الخامس، ص17، وينظر نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، أحمد بابا التّنبكتي، ص38.

من الفقهاء والعلماء الذين أبو إلّا أن يضعوا بصماتهم الجليلة في مجال النّهضة العلميّة لحاضرة تلمسان، وسائر حواضر المغرب والأندلس والمشرق.

ثالثا:تعدّد العلوم وأشهر روّادها

عمّت مدينة تلمسان نهضة ثقافيّة عظيمة بفضل ما أولاه لها حكّام المرابطين من عناية واهتمام، فتركوا بذلك إرثا حضارياً توارثته دولة الموحّدين فالزيانيّين من بعدهم، فأسهمت كلّ دولة بوضع بصماتها في تاريخ المدينة الثّقافي، حيث ازدهرت الحركة العلميّة والفكريّة ونفقت سوق العلم والمعرفة بها وأقبل العلماء والطّلبة من كلّ حدب وصوب، وهو ما أدّى لانتعاش نشاط المعاهد التعليميّة والدينيّة، يرافقه تشجيع أولي الأمر على نشر العلم وتأليف المصنّفات في شتّى المجالات، فبرز العديد من العلماء وصنّفوا في العلوم الدّينية واللّسانية والعقلية؛ فحوّلوا تلمسان إلى قطب علمي وحضاري تستهوي كلّ من سمع بها ورغب في الاغتراف من مشاربها.

أ- العلوم النقليّة:

ويطلق عليها كذلك اسم العلوم الشرعيّة أو الدينيّة، وهي تستند بالضّرورة إلى الشّرع وأساسها كتاب الله وسنّة نبيّه (عليه الصّلاة والسّلام)، حيث تشمل التّفسير، والحديث، والفقه، وأصوله، والتصوّف، وعلم الكلام، وقد عمد المسلمون لدراستها رغبة منهم في فهم دينهم وتصحيح اعتقاداتهم.

وقد كثر اهتمام علماء تلمسان منذ عهد المرابطين بالعلوم الدينيّة التي استأثرت بنصيب هائل من الدّراسات، فتطوّرت وازدهرت وشاعت بين الحكّام والرّعية وبخاصّة داخل المعاهد التعليميّة المختلفة وحلقات الذّكر والمجالس العلميّة، فكان هذا العهد عهد فقهاء أكثر منه عهد علماء، ليواصل الموحّدون مسيرة سابقيهم فيُكوّنوا دولة قويّة ترتكز على أساس توحيد الله وتقوم على طابع الدّين والتّجديد والعظمة في سائر مظاهرها، ليتأثّر الزّيانيون كغيرهم بغلبة الدّين وعلومه على الحياة

الفكرية بالحاضرة، فيسهموا أيضا في المشاركة في هذه العلوم بالتّشجيع والتّعليم والتّأليف ممّا أدّى لانتشارها وكثرة تداولها.

- علم القراءات:

اهتمّ المسلمون بالقرآن الكريم فداوموا على حفظه والعمل به في سائر مجالات الحياة اليومية، بل عكفوا على تلقينه لأبنائهم الذين تدارسوه ونبغوا في علومه وبخاصة في علم القراءات الذي « هو علم يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، ومباديه مقدّمات تواتريّة، وله أيضا استمداد من العلوم العربيّة والغرض منه تحصيل ملكة ضبط الاختلافات المتواترة، وفائدته صون كلام الله تعالى عن تطرّق التّحريف والتّغيير»[1] فعالِم القراءات يبحث عن أوجه الاختلاف الموجودة في تلك القراءات المتواترة عن النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وهو يشمل ألفاظ القرآن وكيفية نطقها؛ لغرض حماية كلام الله من التّحريف الذي يقع فيه القارئ أثناء مخالفته للنّطق الصّحيح، وبالرّغم من وجود الاختلاف حول عدد القراءات المتواترة فإنّ الرّاجح لدى عامّة المسلمين هو سبع قراءات تواتر نقلها بآدائها.

انتشرت القراءات من بلاد المشرق فعمّت مختلف بلدان العالم الإسلامي ومنها بلاد المغرب[2] والأندلس وتناقلها العلماء فيما بينهم، إلّا أنّه وبحلول القرن الخامس الهجري أضحى لهذا العلم شخصيّته المتميّزة ببلاد الأندلس على أيدي ثلّة من علمائها، وهو ما يؤكّده ابن خلدون حيث يقول:« ولم يزل القرّاء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كُتِبت العلوم ودُوّنت، فكُتبت

[1]- كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشّهير بحاجي خليفة، تصحيح وتعليق محمد شرف الدّين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليس، دار إحياء التّراث العربي، بيروت لبنان، دط، دت، مج 02، ص1317.

[2]- ألمّ المغاربة بعلوم القرآن والقراءات نتيجة الرّحلة التي كانوا يقومون بها إلى الحواضر الإسلاميّة الكبرى، مثل مكّة، والمدينة، والكوفة والبصرة، والشام، والأندلس مع التّركيز على مصر لقُربها وتوفّر طلبتهم بها، ونظراً للشّيوخ الذين ذاع صيتهم في علم القراءات على وجه الخصوص، وقراءة نافع بشكل أخصّ، للتّفصيل أكثر ينظر الاتّجاهات الثقافيّة في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرّابع الهجري، بشير رمضان التليسي، ص (436، 437).

فيما كُتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلما منفرداً، وتناقله النّاس بالمشرق والأندلس في جيل بعد جيل، إلى أن مَلك بشرق الأندلس مجاهد من موالي العامريّين وكان معتنيا بهذا الفنّ لـمّا أخذه به مولاه المنصور بن أبي العامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمّة القرّاء بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافرا فنفقت سوق القراءة»[1] حيث اعتنى الأندلسيّون بعلوم القرآن وخصوصا بعلم القراءات، فنبع منهم عدد كبير وكانت لهم مشاركات قيّمة من أمثال أبي عمرو الدّاني، وأبي القاسم بن فيرُه.

وقد عرف علم القراءات اهتماما كبيرا لدى علماء تلمسان أيضا، حرصاً منهم على معرفة كلٍّ من الخاصّة والعامّة للتّلاوة الصّحيحة لآيات القرآن الكريم، من ذلك أنّ الموحّدين لَـمّا اعتبروا القرآن دستورا لهم ونبراسا منيراً يهتدون به فقد «سنّ لهم قائدهم الأوّل وإمامهم ابن تومرت نظاما يُوجب كلّ فرد مسلم من الموحّدين قراءة حزب من المصحف الشّريف كلّ يوم عقب صلاة الصّبح والمغرب قراءة مرتّلة»[2] فلم يقفوا عند حدّ الاشتغال بفهم القرآن وتفسير آياته، بل وضعوا منهجاً يقضي بتلاوة كتاب الله يوميّا قصد المحافظة عليه والتدرّب على نطق آياته نطقاً سليماً، فعُمِّمَ الأمر على سائر البلاد التي تدين بالطّاعة للموحّدين، كما أنّ الأمير يوسف بن عبد المؤمن«كان من أحسن النّاس نطقا بالقرآن الكريم واهتماما بعلومه»[3] وهو دليل واضح على حبّ الخلفاء للقرآن وتمسّكهم به واشتغالهم بعلومه بالرّغم من انشغالهم بأمور الدّولة، الأمر الذي يشجّع أبناء الرعيّة على الأخذ بهذا العلم وتلقينه للأجيال وتأليف الكتب حول مسائله، فمن بين العلماء المشهورين في علم القراءات نورد اسم الشّيخ أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي من أهل إشبيلية نزيل تلمسان « وهو فقيه محقّق أخذ العلم عن أبي الحسن شريح وأبي العبّاس بن حرب المسيلي وأبي

1- ينظر المقدّمة، عبد الرّحمن بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكار، ص 552.

2- عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، ص99.

3- ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لأبي محمد عبد الواحد بن علي المرّاكشي بن علي التّميمي، ص 175.

بكر بن العربي فكان مجوّدا للقرآن ضابطا محدّثا نقّادا عالي الرّواية»[1] فقد استقرّ هذا العالِم بتلمسان وعمّر بها فأخذ النّاس من علمه حتّى أسنّ وتخرّج على يده العديد من علماء القراءات، بالإضافة إلى الشّيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الحجّام التّلمساني الذي« ولد بتلمسان سنة 558هـ ودرس القراءات السّبع بها على أبي العبّاس الأعرج، ورحل إلى فاس فأخذ عن كثير من علمائها، وكان زاهداً أديباً واعظاً»[2] فهذا العالِم كان من جملة المقرئين بالمغرب الأوسط بل بالمغرب الإسلامي عامّة، فقد ألّف كتاباً في الوعظ سمّاه حجّة الحافظين ومحجّة الواعظين، وتقلّد عدّة وظائف بالمغرب والأندلس ولاسيما مراكش حيث توفيّ بها سنة 614هـ.

ومن العلماء أيضا يجدر ذكر الفقيه علي بن محمد بن عبد الله الكتامي الضّرير الذي يُعرف بالخضّار من أهل تلمسان « أخذ القراءات عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الكريم بن حسان، وعن المقرئ أبي نصر فتح بن يحيى، وكان رحمه الله معتمدا في تجويد القرآن ذاكرا لخلاف الأئمّة، متصرّفا في ذلك، متقدّما فيه ناصحا في التّعليم»[3] حيث درس هذا العالم بمسقط رأسه ونبغ في علم القراءات فكانت له مشاركات هادفة في حلّ المسائل العالقة بين الأئمّة، وكذا في العمليّة التعليميّة وأصبح مقرئاً بارزاً ببلاد المغرب والأندلس قاطبة، كما لا ننسى أيضا الحسن بن عبد الله الرّاشدي « وكان إماماً محقّقا عارفا بالقصد مأمونا ثقة، ولد بتلمسان ثمّ ارتحل إلى مصر فروى الشاطبيّة على الكمال الضّرير وتخرّج عليه الشّيخ أبو بكر بن قاسم التّونسي، والشّهاب أحمد بن جبارة الحنبلي، فصار من كبار المقرئين بها»[4] فيظهر أنّ علم القراءات قد نال نصيبا معتبرا من اهتمام

[1]- ينظر إسهام العلماء الأندلسيّين في الحركة العلميّة بتلمسان خلال القرن السّابع الهجري، عبد القادر بوباية، مجلّة عصور الجديدة، العدد 02، ص166، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد الملقّب ابن مريم الشّريف الملّيتي المديوني التّلمساني، مراجعة محمد بن أبي شنب، ص 227.

[2]- الجزائر في التّاريخ العهد الإسلامي، رشيد بورويبة وآخرون، ج3، ص346.

[3]- ينظر الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر الثامن، ص558.

[4]- باقّة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص422.

علماء تلمسان، وهو ما تعكسه إسهاماتهم المتواصلة في تعلّمه وتعليمه والتّأليف فيه وتزيين مجالسهم بتلاوة حذّاق القرّاء.

- علم التّفسير:

يعدّ التّفسير من أبرز العلوم الشّرعيّة وأهمّها على الإطلاق فبواسطته تمكّن المسلمون من فهم معاني القرآن الكريم كما نزل « فهو علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطّاقة البشريّة، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربيّة، وفائدته حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعيّة على وجه الصّحة، وموضوعه كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو منبع كلّ حكمة ومعدن كلّ فضيلة »[1] فنظراً للفائدة العظيمة لهذا العلم وهي البحث عن الأمر المراد من كلام الله عزّ وجلّ وتقريبه للأفهام، فإنّ العلماء قد دأبوا على دراسة هذا العلم والإلمام بكلّ متعلّقاته، ولذلك فقد سلكوا اتّجاهين «أُطلق على أوّلهما التّفسير بالمأثور وهو الاعتماد في تفسير القرآن على ما أُثِرَ عن النّبي (عليه الصّلاة والسّلام) وكبار الصّحابة، وأُطلق على الآخر التّفسير بالرّأي وهو ما يعتمد فيه على العقل علاوة على ما صحّ من النّطق»[2] فيستند الاتّجاه الأوّل على تلك الآثار المنقولة عن النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وصحابته، ويُسمّى كذلك التّفسير بالرّواية، والاتّجاه الآخر فيعتمد على الرّأي والاجتهاد بأصوله الصّحيحة؛ بمساعدة عدد من العلوم اللّغوية الأخرى ليتمّ تحقيق الهدف المنشود من هذا التّفسير.

وعلى غرار مدن المغرب الإسلامي فقد حفلت تلمسان بعدد من العلماء المفسّرين الذين اشتغلوا بتفسير آيات القرآن على عادة السّلف الصّالح« فزاد الإقبال على دراسة القرآن الكريم باعتباره

1- ينظر كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشّهير بحاجي خليفة، تصحيح وتعليق محمد شرف الدّين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليس، مج 01، ص 427.

2- الحضارة الإسلامية وعوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد عادل عبد العزيز، ص166، والمقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص (554، 555).

مصدر التّشريع الأوّل في الدّولة المرابطيّة والموحّدية، ومن هنا أقبل عليه العلماء بالدّراسة والبحث »[1] حيث أسهم في تشجيع هذه الخطوات ولاة الأمور ورجال الفكر والمعرفة فوضعوا مجموعة من المصنّفات التي عُنيت بالتّفسير في متناول أيدي العلماء والطّلبة؛ للاستفادة منها مثل كتاب المحرّر الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، أو كتاب الهداية المسمّى أيضا تفسير القرطبي وهو في عشرة أسفار لأبي محمد مكى بن أبي طالب[2].

وقد كان لعلماء تلمسان سهم في المشاركة في تفسير كتاب الله العزيز، منهم الفقيه محمد بن أبي زيد عبد الرّحمن بن أبي العيش الخزرجي« وهو أشبيلي الأصل روى ببلده تلمسان عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرح، وأبي عبد الله بن عبد الرّحمن التّجيبي، كان مؤلّفا متقناً فسّر الكتاب العزيز، وشرح أسماء الله الحسنى، وصنّف عقائد أصوليّة في الدّين، وله مشاركات عدّة في فنون العلم»[3] فبالنّظر لشخصية هذا الفقيه وسائر العلماء مثله نجد أنّهم حذقوا أكثر من فن وعلم في آن واحد، فأولوا العلوم الدينيّة المنزلة الأولى وبخاصّة ما تعلّق بكلام الله وتفسير معانيه، وأتمّوا الفائدة بالأخذ من كلّ علم آخر بطرف، كما اشتهر في هذا العلم أيضا أبو زكريا يحيى بن محمد التّجيبي وهو تلمسانيّ المولد« ارتحل إلى المشرق فحجّ وسمع بمكّة من أبي الحسن بن البنّاء، ثمّ انتقل إلى الإسكندريّة وألقى بها دروس الوعظ، فكان مفسّرا حاذقا، خلّف مصنّفان هما تفسير القرآن

---

[1]- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص(483، 484).

[2]- عرفت بلاد المغرب على عهد دولة المرابطين بعض النّشاط المتعلّق بدراسة تفسير القرآن الكريم، حيث انتقل العديد من أهل العلم بالأندلس إلى المغرب حاملين معهم الكثير من المعارف والعلوم الدّينية منها، تلك المصنّفات التي وضعها العلماء الأندلسيّون المالكيّون في علم التّفسير، وقد حذا الموحّدون حذوهم فاستدعوا الكثير من الشّخصيات الأندلسية واستفادوا من علومها، للتّفصيل أكثر ينظر الحضارة الإسلامية وعوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد عادل عبد العزيز، ص(168، 169).

[3]- تعريف الخلف برجال السّلف، لأبي القاسم محمد الحفناوي بن الشّيخ بن أبي القاسم الدّيسي بن سيدي إبراهيم الغول، مطبعة بير فونتانة الشّرقية، الجزائر، دط، 1906م، مج02، ص (333، 334).

الكريم والرّقائق»[1] فهؤلاء العلماء لم يجدوا بُداً من أن يُكابدوا مشاقّ السّفر في سبيل طلب العلم ونيله عن الشّيوخ المبرزين الكبار، ثمّ يواصلوا نشره بين عامّة النّاس لتصحيح العبادات وتمام الفائدة.

- علم الفقه وأصوله:

ازدهر نشاط أبناء الأمّة الإسلاميّة في العناية بالقرآن الكريم وسنّة النّبي المصطفى (عليه الصّلاة والسّلام)، فكان لعلم الفقه النّصيب الأوفر من هذا الاهتمام، حيث يسمّى كذلك علم الدّراية « وهو علم باحث عن الأحكام الشرعيّة الفرعيّة العمليّة من حيث استنباطها من الأدلة التّفصيليّة، ومباديه مسائل أصول الفقه، وله استمداد من سائر العلوم الشرعيّة والعربيّة، وفائدته حصول العمل به على الوجه المشروع، والغرض منه تحصيل ملكة الاقتدار على الأعمال الشرعيّة»[2] إذن فالفقه هو معرفة الأحكام الشرعيّة المتعلّقة بسائر العبادات والمعاملات التي ترِد في القرآن الكريم، وهو مصدر التّشريع الأوّل وتليه السنّة النبويّة، أمّا إن واجهت المسلم بعض المسائل التي لم ترد في القرآن أو السنّة فإنّه يستند في تقرير الحكم إلى الإجماع من لدُن مجتهدي أمّته، أو يتّجه إلى القياس والاجتهاد بشرط عدم تعارض الأحكام مع الكتاب والسنّة، وبموجب هذه التفرّعات نبغ علماء كثر وتعدّدت مذاهبهم« منهم من يقفون عند ظاهر النّصوص وقلما يجتهدون، وعلى رأس هؤلاء الإمام مالك بن أنس، ومنهم أصحاب مدرسة الاجتهاد والرّأي وعلى رأسهم أبو حنيفة، وهناك مدرسة ثالثة احتلّت مكانا وسطاً بينهما وكان على رأسها الإمام الشّافعي، أما المذهب الرّابع فقد اعتمد على الحديث وعلى رأسه الإمام أحمد بن محمد بن حنبل»[3] وبما أنّ مذهب الإمام مالك قد عُرف بالحجاز

---

[1]- ينظر باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص421، وتلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمّار، ص95.

[2]- كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشّهير بحاجي خليفة، تصحيح وتعليق محمد شرف الدّين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليس، مج 02، ص1280.

[3]- ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص(445، 446).

فإنّه قد انتشر عبر مدن المغرب والأندلس، لتردُّدِ العلماء والحجّاج وطلبة العلم على البلد وأخذهم عن فقهائه وتداول مصنّفاتهم.

وقد نشطت الحركة الفقهيّة بتلمسان إبّان العهد المرابطي؛ إذا كانت قائمة أيضا على المذهب المالكي« الذي اتّخذه زعيمهم الدّيني عبد الله بن ياسين مصدراً للتّشريع، من خلال أحكامه التي راح يلقّنها لقبائل المرابطين الغافلة عن أمور الدّين، فبيّن لهم شرائع الإسلام وفقّههُم في دينهم حتّى صار المذهب المالكي مذهب الدّولة فواصل تقدّمه»[1] ولتأثّر الرعيّة بآراء هذا المذهب فقد كثر المشتغلون بالفقه، فظهر كمّ هائل من الفقهاء الذين شغلوا مناصب مهمّة بالدّولة وعظم نفوذهم، غير أنّ دعوتهم الإصلاحيّة فقدت طابعها التّجديدي فاتّجهوا نحو التّقليد في مجال الفكر والدّين والتحجّر في الرّأي، وهو ما دعا بالموحّدين من بعدهم لمحاربة هذا الجمود الفكريّ وتسلّط الفقهاء على أمور الدولة، فتواصل على أيّامهم العمل وفق الفقه المالكي إلى جانب المذهب الظّاهري « الذي محبوبا من لدن الخلفاء الموحّدين وبخاصّة يعقوب المنصور، حين حمل النّاس على إحراق الكتب المالكيّة والعمل شرعاً على محض الظّاهرية »[2] فيبقى اشتغال النّاس في الفقه بالظّاهر من القرآن والحديث دون سواهما، إلّا أنّ مناصري المذهب المالكي كانوا أكثر عددا من نظيره الظّاهري، وقد لازموا العمل به والتّأليف حوله فأتمّ تفرّعه وانتشاره، وإلى جانبه علم أصول الفقه بمصنّفاته القيّمة.

فبرز بالحاضرة علماء أجلّاء خدموا الدّين ودرسوا الفقه والأصول ودرّسوهما للطّلبة، بل واستبحروا في مسائلهما من أمثال أبي الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرّحمن المعروف بابن أبي قنّون التّلمساني« وقد درَس بمسقط رأسه تلمسان الفقه المالكي، وروى عن أبي علي الصّعداني، وابن أبي تليد، وأبي عبد الله الخولاني، تولّى خطّة القضاء بمراكش وتلمسان، وكان فقيهاً متبحّرا له كتاب في أصول الفقه

---

[1]- ينظر النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج1، ص(58، 59).

[2]- ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص(50، 51، 52).

سمّاه المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى»[1]حيث ظهر نشاط علماء تلمسان جلياً وبخاصّة في علم الفقه، فعمدوا لدراسة كتب الفقهاء المبرزين واختصارها والنّهج على منوالها، إضافة إلى عا لم آخر هو أبو إسحاق إبراهيم بن يحي بن محمد التّجيبي «وقد كان فقيها فاضلاً، صالحاً ورعاً، بارعاً في العلوم، درّس وأقرأ وأفتى، ونفع بعلمه كثيرا من الطّلبة، وصنّف شرح الخلاف في عدّة مجلّدات»[2] ويبدو أنّ هذا العالِم قد اشتهر بنبوغه في العلوم الفقهيّة والدينيّة عامّة، فشارك برصيده العلمي في التّدريس والإفتاء والإقراء وتوّج مسيرته بالمصنّفات الفريدة، كما لا ننسى أيضا أحد العلماء المرموقين وهو الفقيه محمد بن سليمان اليفرنّي الكومي النّدرومي « الذي كان يتردّد على أهل العلم ابتداءً من مسقط رأسه، فأخذ عنهم وأجازوه في كلّ من فاس ومراكش وسبتة وإشبيلية والمشرق، ليجلس للتّدريس؛ حيث غصّت حِلَقُه بطلبة العلم حتّى سُمّي الفقيه الأجلّ والإمام المتفنّن، فقد كان راوية للحديث، فقيهاً حافظاً، متكلّماً متفنّناً في علوم جمّة، بارع الكتابة حسن الخطّ، ألّف كثيرا من المصنّفات أهمّها مستصفى المستصفى»[3] فالمتتبّع لأحوال علماء تلمسان يجد أنّهم حرصوا على طلب العلم وبخاصّة ما تعلّق بالعلوم الدينيّة منذ نعومة أظفارهم، فارتحلوا إلى مختلف البلدان ونهلوا من معين معارفها ونالوا إجازات كثيرة من علمائها، وما الفقيه محمد اليفرنّي إلّا صورة عن جهابذة عصره وفقهاء أمّته.

ولمّا دانت المدينة بالحكم لبني عبد الواد نلحظ تردّد ذكر أحد الأسماء اللّامعة في كتب التّراجم وهو إبراهيم بن يخلف بن عبد السّلام التّنسي المطماطي « وهو عا لم مالكي من أهل تنس، انتهت إليه رئاسة التّدريس والفتوى في أقطار المغرب، وكان قد تلقّى معارف عصره من فقه وعقيدة، ومنطق وجدل، ولغة على يد علماء من مصر والحجاز، ثمّ عاد واستقرّ بتلمسان مدرّسا، وله شرح كبير

---

[1]- الحياة الفكريّة في تلمسان قبل عهد بني زيان، لخضر عبدلي، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الخامس، ص53.

[2]- سير أعلام تلمسان، عبد الحق حمّيش، دار التّوفيقية للنّشر، المسيلة، الجزائر، ط1، 2011م، ص(174، 175)، وباقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص421.

[3]- ينظر الفقيه محمد بن سليمان اليفرنّي الكومي النّدرومي صورة من واقع المشهد الثّقافي في حاضرة تلمسان، لخضر بولطيف، مجلّة عصور الجديدة، العدد 02، ص94.

على كتاب التّلقين للقاضي عبد الوهّاب بن نصر البغدادي في عشرة أسفار ضاع في أثناء حصار تلمسان»[1] فقد كان هذا الشّيخ من العلماء الأجلّاء الذين ظفر بهم المغرب الأوسط؛ حيث كانت الرّحال تُشدّ إليه شرقا وغربا للانتفاع بعلمه فضلا عن تلك الأسئلة الواردة عليه من مختلف البلدان، فما كان من السّلطان يغمراسن إلّا أن دعاه للورود على تلمسان والاستئثار بهذا الوليّ الصّالح وعمله.

- علم الحديث:

أولى علماء الإسلام القرآن الكريم أهميّة عظيمة، إلّا أنّ مدارسته وحفظه لن يتأتّى إلّا بفهم آياته ومعرفة مراميها، فجاءت سنّة النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) لتبيّن مقاصد القرآن ، وكان حديثه المصدر الثّاني للتّشريع، ولذلك يُراد بعلم الحديث «حفظ ما نُقل عن الرّسول (عليه الصّلاة والسّلام) من قول أو فعل أو تقرير، وما نُقل عن أصحابه فبِهِ تتّضح أحكام القرآن وتفسيره ، وفي مرحلة بناء المجتمع الإسلامي وتنظيمه عُرضت للرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) مسائل وظواهر، حلّها وأجاب عنها، فصارت أحكاما للمسلمين يَقِيسُون عليها»[2] وقد عُني المسلمون بجمع حديث نبيّهم الكريم صحيحا خاليا من الأحاديث الغريبة والمغلوطة؛ واشتغلوا على توضيح معانيه وأسانيده الصّحيحة الموثوقة قصد تيسير ما جاء به القرآن وشرحه شرحا مفصّلا، فبرز منهم في هذا الميدان الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، والإمام مسلم بن الحجّاج القشيري حيث وضع كلٌّ منهما مسنده الصّحيح الجامع للأحاديث.

[1]- ينظر البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد الملّقب ابن مريم الشّريف الملّيتي المديوني التّلمساني، مراجعة محمد بن أبي شنب، ص(66، 67)، ومعجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص(84، 85).

[2]- ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص 440.

وقد شهدت حاضرة تلمسان توسّع علمائها في دراسة علم الحديث، حيث نال عناية فائقة من لدن ولاة أمور المرابطين فالموحّدين[1] الذين شجّعوا على دراسة هذا العلم وخصّوا المشتغلين به منزلة رفيعة، ومن بين هؤلاء العلماء نورد أبو جعفر أحمد بن علي بن عزلون «من أهل تطيلة بالأندلس روى عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، ونبغ في الحديث، فرحل إلى المغرب واستقرّ بتلمسان يحدّث بها، وأخذ عنه كثير من العلماء»[2] فهذا المحدّث كانت له دراية بعلم الحديث وباستقراره بتلمسان الْتَفَّ حوله العلماء والطّلبة، فكان متّسع الرّواية استفاد الكثيرون من علمه، كما عُرف في الحاضرة عالِم آخر هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحق اليعفري الكومي « فهو من تلمسان رحل إلى الأندلس لإتمام علمه، تولّى خطّة القضاء ببلده مرّتين وكان حافظاً متقناً محقّقاً حسن السّيرة معظّماً عند الخاصّ والعامّ، مشاركاً في الفقه والحديث عارفاً بروايته، له تآليف كثيرة أشهرها المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار، وكتاب في غريب الموطّأ وغيرها»[3] فقد نال هذا العالِم مكانة هامّة عند الأمراء والملوك وكذلك عامّة النّاس، بفضل ما جمعه من علم في العلوم الشرعيّة والعقليّة، وتضلّعه في علم الحديث فقد صنّف عدّة كتب فيه للأجيال القادمة.

ومن بين الذين اعتنوا بعلم الحديث أيضا بتلمسان بركة بيت المرازقة؛ محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التّلمساني المكنّى بأبي عبد الله « ولد بتلمسان ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم ثمّ اللّغة العربيّة، وأخذ الفقه عن الشّيخ أبي إسحاق إبراهيم التّنسي، وعلم الحديث عن الشّيخ أبي زكريا يحي العبدري، كما جالس ثلّة من العلماء، ويُذكر أنّه كان يعتمد في روايته على المؤرّخين

---

[1]- اعتمد المرابطون في مجال علم الحديث على كتاب الموطّأ للإمام مالك، فصار مدار دراساتهم وكذلك فعل الموحّدون من بعدهم حين حاولوا ردّ النّاس عن علم الفروع لقراءة الحديث؛ فجمعوا الأحاديث وأمروا بتبويبها كأحاديث الجهاد وأحاديث الصّلاة ووزّعوها على النّاس للأخذ بها، فاشتهر في عصرهم مجموعة كبيرة من المحدّثين الذين دأبوا على التّأليف في هذا العلم، للتفصيل أكثر ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص(484، 485).

[2]- الجزائر في التّاريخ، العهد الإسلامي، رشيد بورويبة وآخرون، ج3، ص341.

[3]- باقّة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص420.

الثّقاة»[1] فقد كان هذا الفقيه المحدّث من الصّلحاء والأولياء الأعلام له كرامات ومكاشفات، فقصده النّاس من تلمسان وخارجها للاستفادة من علمه حتّى وصلت شهرته لدى السّلطان يغمراسن بن زيان، فكان يزوره في المسجد ويُصلّي معه حتّى إنّه أوصى بأن يُدفن بإزاء هذا الولي تبرّكا به.

- علم التصوّف:

التصوّف علم من علوم الشّريعة ويُقصد به الإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها والهروب إلى الله تعالى حباً وخوفاً، وقد اختلف المهتمّون بعلم التصوّف حول إيجاد مفهوم شامل لهذا العلم، حيث تعدّدت مفاهيم العلماء وتضاربت فمنهم من اجتهد في وضع اشتقاقات لغويّة للكلمة، ومنهم من عرّفها انطلاقا من تحديد مصطلح الصّوفي وهو المشتغِل بهذا العلم، وبذلك عُرِّف التصوف على أنّه « الأخذ بالحقائق، واليأس ممّا في أيدي الخلائق»[2] فالتصوّف في أصله يكمن في تلك العلاقة التي تربط الفرد بخالقه؛ فنجده يُقبل على العبادات ويُعرض عن الملذّات في سبيل نيل الرّضا من خالقه كما أنّه « أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، من قوم كرام»[3] حيث أنّ التصوّف قبل أن يكون عملاً فهو خُلق يتحلّى به الإنسان المسلم تّجاه ربّه، ثمّ سائر الخلق فيلزم الأدب ويراقب أحواله ويمشي مع الحقّ اقتداءً بخير البريّة سيّدنا محمد (عليه الصّلاة والسّلام).

وقد عرفت تلمسان ظهور عدد من روّاد علم التصوّف غداة القرن الخامس الهجري إبّان عهد المرابطين، حيث اتّخذ هؤلاء الصّالحون التصوّف منهجاً لحياتهم وباشروا أعمالهم في الوعظ والتّدريس وعقد المجالس الصّوفية فتجمّع حولهم النّاس والمريدون للانتفاع بعملهم، كما أنّهم تمتّعوا بمنزلة رفيعة

---

[1]- ينظر بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م، نصر الدّين بن داود، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التّاريخ الوسيط، إشراف د محمد بن عمر، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية قسم التّاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2010م، ص(99، 100).

[2]- الرّسالة القشيرية في علم التصوّف، أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري النّيسابوري، تحقيق معروف مصطفى زريق، ص 280.

[3]- المصدر نفسه، ص 280.

لدى الحكّام والأمراء « الأمر الذي أثار حفيظة الفقهاء فأصبح كبار المتصوّفين هدفا لهم، حيث حاولوا التّشكيك في إخلاصهم وادّعوا أنّهم يشكلون خطرا على البلاد فتراجع الاشتغال بالتصوّف وصار بعضه منكراً»[1] فقد وصف الفقهاء أصحاب النّزعات الصّوفية بالزّندقة والانحراف فمنعوا الاجتهاد والخوض في بعض المسائل المعقّدة، إلّا أنّهم لم يتمكّنوا من محو التصوّف من أذهان النّاس فقد واصل دوره بشكل عادي بفضل الْتِفَاف النّاس حوله ومناصرتهم له، بل ازدهر أكثر في عهد الموحّدين لِما أشاعوه من حرّية الفكر وتشجيع النّزعات العقليّة، فورث دولة بني عبد الواد هذا الاهتمام فبرز بتلمسان عبر مراحلها المختلفة ثلّة من الصوفيّين نورد منهم الوليّ الزّاهد أبو زكريا يحيى بن الصّقيل « وهو فقيه ومحدّث، وحافظ للحديث، يميل إلى الزّهد والورع، ومنغمس في العبادة لا يكاد يُفارق المساجد، ويُكثر من زيارة القبور، ويُفضّل العزلة عن النّاس، نُسِبت له كرامات واطلاعات صوفيّة»[2] فغالباً ما يشتهر أولياء الله من الصّوفية بعلمهم الواسع وبخاصّة في العلوم الدينيّة، وهو ما يدفعهم أكثر لتقوية إيمانهم بالإطّلاع على معجزات هذا الكون ومكنوناته، فيتشكّل لديهم نوع من المحبّة لله ممزوج بالرّهبة من عقابه.

بَيْدَ أنّ الحديث عن أعلام التصوّف بهذه المدينة لا يخلو من ذكر أبرز المؤسّسين له بالمغرب الأوسط ومدنه وهو القطب أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأشبيلي[3] الذي سلك سبيل كبار المتصوّفة في زمانه، فأخذ التصوّف عن بعضهم ودرَس كتب بعضهم الآخر ودرّسها لطلبته، فضلا عن مؤلّفاته العديدة التي طارت شهرتها في الآفاق، بالإضافة إلى عالِم آخر من تلمسان وهو محمد بن أحمد بن محمد اللّخمي أبو عبد الله بن الحجّام « وهو من أهل تلمسان تلقّى دراسته

[1]- الحضارة الإسلاميّة في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص479.

[2]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزيّاني الدّراجي، ج1، ص125.

[3]- يعدّ الشّيخ أبو مدين شعيب من كبار المتصوّفة في زمانه، فهو اشبيلي الأصل وقد تخيّر بجاية وطناً وداراً، إلّا أنّ تلمسان استقطبت اهتمامه وروحه، فقيّضها الله له ليُدفن في تُربتها الطّاهرة، فحين وصل به موكب السّلطان إلى ضواحي العبّاد، قال الشّيخ لأصحابه ما أصلحه للرّقاد، فوافته المنيّة هناك وثمّة دُفِن، وصارت تلمسان تُعرف باسم هذا الوليّ الصّالح دون غيره من الأولياء، للتّفصيل أكثر ينظر من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2004م، ص21.

على يد شيوخ أجلّاء، منهم أبو العبّاس الأعرج الذي درَس عليه علوم القرآن والقراءات السّبع، واختصّ بصحبة أبي زيد الفزازي وتتلمذ عنه، وأبو زكريا بن طفيل، وكان فاضلاً زاهداً في الحياة، أعظم أهل زمانه حظّا في الأدب، ومن أهمّ مؤلّفاته في ميدان التصوّف كتاب حجّة الحافظين ومحجّة الواعظين، اختصره بعده أبو زكريا بن طفيل وسمّاه مجالس الأذكار وإبكار عرائس الأفكار»[1] حيث عُرِف عن هذا الصّوفي في زمانه كثرة إرشاده لجموع المسلمين، فكانت تنفعل لوعظه القلوب وتفيض من كلامه الأحداق، كما نالت الحاضرة شرف نبوغ عالِم آخر وهو الصّوفي عبد الغني بن عبد الجليل « الذي كان صوفياً عارفا بالله، له دراية بالفقه الحنفي، وله من التّآليف ذريعة الوصول إلى زيارة حضرة جناب الرّسول، وشرح منازل السّائرين»[2] فهذه العيّنة من العلماء والمتصوّفة بتلمسان تنمّ في الحقيقة عن وجود جمع غفير منهم؛ من أبناء الحاضرة أو الوافدين عليها من شتّى الأماكن الذين سخّروا جهودهم لخدمة الدّين ونشر العلوم، وتأليف المصنّفات لتكون ذُخرا للأجيال القادمة.

- علم الكلام:

اهتمّ علماء الإسلام بشتّى أصناف العلوم فكان لعلم الكلام نصيب من هذا الاهتمام، فهو يُسمّى أيضا علم أصول الدّين، وعلم النّظر والاستدلال وغيرها من الأسماء، وقد عُرِّف بأنّه« علم يُقتَدر به على إثبات العقائد الدينيّة بإيراد الحجج عليها ودفع الشّبه عنها، وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدّمين، وقيل موضوعه الموجود من حيث هو موجود، وعند المتأخّرين موضوعه المعلوم من حيث يتعلّق به إثبات العقائد الدينيّة تعلّقا قريباً أو بعيداً، وأرادوا بالدينيّة المنسوبة إلى دين نبيّنا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)»[3] فهو علم يتّصل بمسائل لها علاقة بالعقيدة مثل القدر وحقائق الصّفات الإلهيّة والحياة الآخرة وغيرها، وقد كان المسلمون الأوائل

[1]- ينظر الحواضر والأمصار الإسلاميّة الجزائريّة، مختار حسّاني، ج4، ص 99.

[2]- باقّة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص423.

[3]- كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشّهير بحاجي خليفة، تصحيح وتعليق محمد شرف الدّين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي، مج 02، ص 1503.

يتحاشون الخوض فيها تجنّبا للوقوع في الخطأ، ولكن بظهور بعض الشّبه حول العقيدة وبخاصّة تلك التي أثارها أهل العقائد الأخرى، فكان لزاماً على أهل الإسلام الردّ بالخوض في هذه المسائل فبرز فيهم علماء كُثُر في مدن المشرق، أمّا في بلاد المغرب فلم ينل علم الكلام الحظّ الوافر من الذّيوع بالمقابل مع سائر العلوم الدينيّة الأخرى حيث أنّ « المرابطين كانوا يتّخذون طريق السّلف منهجاً ومسلكاً، وبالتّالي فإنّهم لم يميلوا إلى الخوض في علوم الكلام، فضلا عن تشجيع دراستها، وكانوا يتّهمون كلّ من يخوض في علم الكلام بالكفر»[1] فهو في نظرهم بدعة في الدّين وسبب من أسباب اختلال العقائد ولابدّ من تضييق الخناق على المشتغلين به وبمؤلّفاته، إلّا أنّهم لم يستطيعوا القضاء عليه فقد ظهر بعض المتكلّمين في مناطق مختلفة من بلاد المغرب، وبعد تملّك الموحّدين لزمام الحكم برزوا للعيان وتابعوا نشاطهم بفضل تشجيع ابن تومرت على دراسة علم الكلام وضرورة التخلّص من الجمود الفكري الذي فرضه فقهاء المرابطين« فاتّهمهم بالتّجسيم والكفر، وحرّم طاعتهم وأوجب على الموحّدين حربهم والخروج عن دولتهم، بل وقرّر وجوب تأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم تنزيها لله سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقات»[2] ففي نظر الموحّدين لابدّ للفرد المسلم من معرفة الله وإدراك واقع القضاء والقدر وغير ذلك من المسائل العقديّة المعقّدة، وهو ما أدّى لازدهار علم الكلام وانتشاره في هذا العصر.

ومن العلماء الذين نبغوا في علم الكلام بتلمسان نورد اسم الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري « وهو فقيه مقرئ محدّث ومتكلّم، من علماء تلمسان، كان جمّاعة للكتب الجليلة، أخذ عنه خلق كثير من رجال العلم وله مصنّفات كثيرة أجلّها الإقناع في كيفية الإسماع، ونظم العقود ورقم الحلل والبرود وغيرها من الكتب»[3] فمساهمة هذا العالِم في علم الكلام كانت قيّمة بخاصّة وأنّه أخذ العلم عن كبار العلماء بكلٍّ من تلمسان وفاس ومراكش وسبتة وأشبيلية،

---

[1]- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص 486.

[2]- عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، ص103.

[3]- ينظر الحياة الفكريّة في تلمسان قبل عهد بني زيان، لخضر عبدلي، مجلّة الفضاء المغاربي، العدد الخامس، ص(53، 54).

وهي المدن التي شجّع بها الموحّدون ازدهار العلوم وأشاعوا فيها حرّية التّفكير والإبداع، فنال بذلك حظوة لدى الحكّام وصار قاضيا يستعينون به وبعلمه على تسيير شؤون الدّولة، كما لا ننسى أيضا إسهامات الشّيخ الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي الرّاشدي « الذي اشتهر بين قومه بلقب أبركان، فكان فقيهاً إماماً عالِماً، ووليًاً صالحاً من بجاية، وقد استوطن تلمسان ودرس على أيدي أئمّتها فتلقّى عنهم علوم العربيّة واللّسان، والفقه وعلم الكلام والتّوحيد، كما جلس للتّدريس فكانت مجالسه العلميّة محلّ اهتمام معاصريه من العلماء الأفذاذ»[1] فقد كان هذا الوليّ على درجة من الزّهد والإعراض عن زخرف الدّنيا، فأبَى إلّا أن يشارك العلماء والطّلبة بما يملكه من زاد علميّ ودينيّ فانتفع به خلق كثير.

ب- العلوم اللّسانيّة والاجتماعيّة:

وهي فرع مهمّ من العلوم والدّراسات التي منحها المسلمون حيّزاً كبيراً من العناية نظرا لتلك الأهميّة البالغة التي توفّرها للأفراد، فهم يستعينون بها لفهم الدّين الإسلامي وأحكامه الشرعيّة الواردة باللّسان العربي، وهي تشمل علوم اللّغة وما يتعلّق بها من مسائل والعلوم الأدبيّة نثرا وشعراً والعلوم الاجتماعية لإثراء الرّصيد الثّقافي والمعرفي.

وقد عُرف عن علماء تلمسان عنايتهم الشّديدة بهذه العلوم، فأخذوها بالبحث والدّراسة وحرصوا على الإحاطة بجوانبها المختلفة، فضلا عن سعيهم الدّائم لتدريسها للأجيال اللّاحقة، فكَثُر الإقبال عليها وبرع فيها علماء أجلّاء وأدباء وشعراء كُثُر أتحفوا المكتبات بمصنّفاتهم الفريدة، وحوّلوا تلمسان إلى منارة علم يهتدي بنورها العلماء والطّلبة من كلّ مكان.

- علوم اللّغة:

شهدت علوم اللّغة العربيّة انتعاشاً مُلفِتاً في حاضرة تلمسان، وبخاصّة منذ تولّي المرابطين زمام الأمور، حيث عكف أهل الحاضرة على دراستها والتخصّص في فروعها لارتباطها الوثيق بالعلوم

[1]- ينظر من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، ص45.

الدينيّة، وذلك لأنّ فهم معاني القرآن الكريم وتفسيرها والإحاطة بمضمون السنّة النبويّة ومقاصدها لن يتأتّى إلّا بالتطرّق لفروع هذه اللّغة وإتقانها جيّدا، وهي متمثّلة في البلاغة والبيان والنّحو والعروض، فعرفت الحركة اللّغويّة نشاطا بارزاً وبرع فيها علماء عدّة أسهموا في خدمة هذه اللّغة بما قدّموه من إنتاجات، سواءً كانوا من أبناء الحاضرة أو الوافدين عليها من سائر المدن من هؤلاء، نذكر العالِم محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعمري النّدرومي التّلمساني « الذي كان فقيهاً حافظاً متفنّناً في علوم جمّة، وبخاصّة إسهامه في ازدهار العلوم اللّغويّة حيث ألّف كتاباً فيها سمّاه لباب الإعراب وهو يقع في جزء كبير»[1] فقد كانت علوم اللّغة آنذاك تلي علوم الدّين من حيث الدّراسة والتّأليف، لذلك نجد العالِم الواحد يختصّ بأكثر من علم من علوم الشّريعة ويُرفقه بما يكمّله من الدّراسات اللّغويّة اللّازمة لتَمام الفائدة، وكذلك الشّأن بالنّسبة للشّيخ أبي الخطّاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي « الفقيه الحافظ والنّحوي اللّغوي نزيل بجاية وتلمسان، كان من أحفظ أهل زمانه باللّغة متفنّناً في النّحو، صنّف كتباً كثيرة ومفيدة جداً منها الصّارم الهندي في الردّ على الكندي في مسألة من علم العربيّة»[2] فهذا الأديب لوفرة إتقانه لعلوم اللّغة انفرد عن غيره من الأدباء بقدرته على استعمال الحوشي منها، وقد اشتهر فيه بإيراده لرسائل ومخاطبات مغلقات مقفلات؛ لا يستطيع الإنسان غير المتمكّن من العلوم اللّغويّة فكّ رموزها وتبسيط معانيها إلّا بعد الاطّلاع على كتب اللّغة الصّحاح، وهي ميزة قلّما نجدها لدى الأدباء.

وكان ممّن اشتهر أيضا في اللّغة وعلومها النّحوي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر الشّهير بحافي رأسه « وقد تصدّر لإقراء العربيّة فتخرّج عليه طلبة كثيرون، كما يعدّ من أئمّة عصره في العربيّة إذ هو أحد النحّاة الثّلاثة المحمّدين في عصر واحد هو في الإسكندرية، وابن

---

[1]- ينظر الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المرّاكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر8، ص(317، 318).

[2]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عُرِف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص269، وينظر النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ج1، ص161.

النّحاسي في مصر، وابن مالك في دمشق»[1] ويبدو أنّ هذا الشّيخ قد تلقّى جملة من المعارف على يدي ثلّة من العلماء الكبار في مختلف الأماكن، ما مكّنه من تكريس هذه الذّخيرة اللّغويّة لخدمة الدّين والعلم بتدريسها للأجيال، فصار بحقٍّ شيخ أهل الإسكندرية في النّحو ما يجعله مدعاةً للافتخار إذ إنّه من أبناء تلمسان.

- العلوم الأدبيّة:

ازدهرت العلوم الأدبيّة[2] بالموازاة مع علوم اللّغة باعتبارها مظهرا مهماً من مظاهر النّشاط الفكري بالبلاد، حيث اهتمّ تلمسان على اختلاف العهود التي توالت على حاضرتهم بالأدب وأسهموا في تطويره حكّاما ورعيّة؛ فتجلّت فيهم جموع من الأدباء والكتّاب والشّعراء راحوا يبذلون كلّ ما جادت به قرائحهم الأدبيّة، وخُصَّ بعضٌ منهم بمراتب مرموقة في بلاط الحكّام للاستعانة بخبراتهم في تسيير شؤون الدّولة، ففي ميدان النّثر كان لابدّ من وجود كتّاب أدباء يقومون بمهمّة كتابة الرّسائل والخطب، فضلاً عن فنون نثريّة أخرى لازمة لبعث النّشاط الثّقافي والفكري للبلاد حتّى يرقى إلى مرتبة التّنافس مع حواضر أخرى؛ تطغى عليه سمة الإبداع كالمناظرات والمقامات والتّوقيعات وغيرها، وكان من بين من اشتهر في هذا المجال الأديب حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي سهل التّلمساني المعروف بابن زكّون« وهو أديب فذٌّ وكاتب بارع انتقل إلى فاس أين تولّى الكتابة لأبي موسى عيسى بن يوسف الملجوم الفاسي، إلّا أنّه لم يعثر - للأسف- على نصوص ممّا كتبه مع أنّه مشهود له بفنّ الكتابة والضّلوع في ميادين الأدب»[3] فقد أكّد المؤرّخون من خلال مؤلّفاتهم

---

[1]- باقّة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ص 471، ومعجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص119.

[2]- يُعرف الأدب باشتماله على فنّين في الكلام أحدهما المنظوم وهو الكلام الموزون المقفّى، وتندرج تحته أغراض فرعيّة كالغزل والمدح والرّثاء والهجاء وغيرها، والآخر يسمّى المنثور وهو الكلام غير الموزون ومنه السّجع والمرسل ويُستعمل في الخطب والدّعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم، للتّفصيل أكثر ينظر المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص781.

[3]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج2، ص8.

سعي الحكّام لاستقطاب مَهَرَةِ الكتّاب والأدباء من كلّ مكان للكَوْنِ بحضرتهم، وإيصال أفكارهم إلى الحكّام أو الأحباب في قالب منمّق يعتمد سلامة الأفكار والألفاظ، بالإضافة إلى كاتب آخر ذاع صيته بتلمسان وهو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطّاب المرسي نزيل تلمسان حيث « وفد مع جالية شرق الأندلس على تلمسان فاستكتبه سلطانها يغمراسن بن زيان، واستقدمه المستنصر الحفصي إلى تونس وبعث إليه بمال فردّه عليه وبقي مُقيما بتلمسان على خطّته، فكان كاتباً بارعاً صدرت عنه عدّة رسائل في مخاطبة خلفاء مراكش وتونس تنوقلت وحُفظت»[1] فهذا الأديب قد أخذ من كلّ علم بطرف على أيدي علماء أجلّاء، فلمّا نزل الحاضرة أكرمه سلطانها ونصّبه كاتبا لديه وخصّه بمنزلة رفيعة دون سواه من الكتّاب لبلاغته وبراعة كتابته.

كما عرفت الحاضرة أيضا ازدهار فنّ الخطابة وبخاصّة على عهد الموحّدين، وذلك انطلاقا من طابعهم الذي بَنَوْ عليه دولتهم فاتّبعوا سبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإطلاق العنان لحرّية التّفكير لمحاربة الجمود الفكري « ففي أسلوب خُطبهم تُحِسّ شاعريّة اللّغة، فتقوم على كلام أشبه بالمنظوم ترد فيها الحِكم المرتجلة والأمثال المرسلة من تضمين لآي الذّكر الحكيم والحديث النّبوي الشّريف، والتمثّل بما صدق من شعر العرب تزكية واستشهادا أو توكيدا على صحّة مقولتهم، وضرب الأمثلة مع الفصاحة والبلاغة والإيجاز»[2] فنجد أنّ الموحّدين قد استثمروا الخطابة طول عصرهم لتبيان الطّريق الصّحيح الذي اقتضاه قائدهم ابن تومرت، مستعينين بنصوص من كتاب الله العزيز وسيرة نبيّه الكريم، يصاحبهما إيراد الحجج والبراهين لتدعيم الأقوال.

أمّا فيما يتعلّق بالفنون الشعريّة فقد عرفت انتعاشا ملحوظا بتلمسان، ونبغ فيها شعراء عدّة مسّ نظمهم مختلف الأغراض، فسنحاول تقديم عيّنة من هؤلاء وبخاصّة ضمن الأغراض الشعريّة التي عرفت ازدهارا آنذاك، فمن أبرز الشّعراء نورد أبو علي عمر بن الأشيري الذي كان ناظما ناثرا، له مقطوعة يصف فيها ما شاهده يوماً من مجيء الشّبل والطّائر لمجلس الخليفة عبد المؤمن يقول فيها:

---

[1] - إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1وج2، ص379.

[2] - النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة، ص168.

أَنِسَ الشِّبْلُ ابْتِهَاجاً بِالأَسَدْ وَرَأَى شِبْهَ أَبِيهِ فَقَصَدْ

وَدَعَا الطَّائِرُ بِالنَّصْرِ لَكُمْ وَبِتَأْيِيدٍ فَكُلٌّ قَدْ شَهِدْ[1]

حيث صادف أن دخل الشّاعر مجلس الخليفة بالقبّة المباركة فسِيقَ إليه بطائر تكلّم بكلام عُلّمه، واتّفق ذلك نوم الشّبل عند رجلي الخليفة، فأُعجب أبو علي بما رآه فراح يصف المشهد بكلّ حذاقة وحضور ذهن فكان شعره رائقاً.

ومن شعراء تلمسان كذلك محمّد بن مروان التّلمساني وهو أديب متفنّن له مشاركة هامّة في صناعتي النّثر والنّظم، من ذلك قصيدة يمدح فيها الخليفة يعقوب المنصور الموحّدي فيقول:

أَسَيِّدَنَا يَا بْنَ الإِمَامَيْنِ أَمْرُكُمُ مَنُوطٌ بِأَمْرِ اللهِ مَا عَنْهُ مَعْدِلُ

نُصِرْتُمْ لِأَنَّ الحَقَّ آنَ ظُهُورُهُ وَنَاصِرُهُ فِي اللهِ مَا كَانَ يُخْذَلُ[2]

حيث جرت العادة أن يقوم الشّعراء بمدح أولياء نعمتهم نظرا للصّنيع الذي يحقّقونه في شتّى المجالات بالدّولة، فيختارون الألفاظ المعبّرة عن الإعجاب والامتنان فيُقابلهم الحكّام بإزجال العطاء.

كما اهتمّ شعراء الحاضرة أيضا بشعر التصوّف فنبغت فيه ثلّة، نورد منهم أبو الرّبيع عفيف الدّين سليمان بن علي التّلمساني المعروف باسم العفيف التّلمساني من كبار المتصوّفة وأبرز كتّابهم وشعرائهم، له ديوان شعر كبير نعرض منه قوله:

لَا تَلُمْ صَبْوَتِي فَمَنْ حَبَّ يَصْبُو إِنَّمَا يَرْحَمُ المُحِبَّ المُحِبُّ

---

[1]- ينظر تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمّار، ص164، وزاد المسافر وغرّة مُحيّا الأدب السّافر، أبي بحر صفوان بن إدريس التّجيبي المرسى، اعتنى بنشره وتهذيبه والتّعليق عليه عبد القادر محداد، ص(59، 60).

[2]- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1وج2، ص 289، والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق إبراهيم الإبياري، ص30.

كَيْفَ لَا يُوقِدُ النَّسِيمُ غَرَامِي وَلَهُ فِي خِيَامِ لَيْلَى مَهَبُّ[1]

فالشّاعر الصّوفي غالبا ما يركّز اهتمامه على بعض الأغراض مثلما فعل العفيف التّلمساني الذي عمد لاستعمال غرض الطّبيعة والغزل والخمريات ممزوجة بالعقائد، فيعبّر بواسطتها عن الحبّ الإلهي حيث يتجلّى له الإله الأعظم.

وفي حين اشتهر العفيف التّلمساني بتضلّعه في مجال التصوّف نظم ابنه محمد المشهور بالشابّ الظّريف ديوان شعر فيه عدّة مدائح نبويّة جاء في إحداها:

زَيْنُ النَّبِيِّينَ عَيْنُ الرُّسْلِ خَاتَمُهُمْ فِي البَعْثِ أَوَّلُهُمْ فِي رُتْبَةِ الشَّرَفِ

لَوْ لَمْ يَكُنْ نُورُهُ فِي ظَهْرِ آدَمَ لَمْ يَشْمَلْهُ مَا كَانَ مِنْ عَفْوٍ وَمِنْ لُطُفِ[2]

فقد حظي مدح سيّدنا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) لدى الشّعراء باهتمام منقطع النّظير، فراحوا ينظمون المدائح في أخلاقه وصفاته طمعا في زيارة قبره الشّريف في الدّنيا ونيل شفاعته في الآخرة.

وعلى غرار هؤلاء الشّعراء نورد اسم شاعر مفلق عُرفت به تلمسان وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحميري الحجري الرّعيني، كان يُعرف عند أهل زمانه بابن خميس التّلمساني[3] له مؤلّفات نثريّة وشعريّة في مختلف الأغراض، وقد تراوحت بين الغزل والمدح والفخر فضلا عن الوصف وشعر الزّهد والتصوّف، وفيما يلي بعض الأبيات التي يعبّر فيها ابن خميس عن حنينه لتلمسان مسقط رأسه فيقول:

---

[1]- الوحدة المطلقة في شعر العفيف التّلمساني، عمر موسى باشا، ملتقى مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، ص64، وديوان عفيف الدّين التّلمساني، دراسة وتحقيق يوسف زيدان، دار الشّروق للنّشر، الإسكندرية، دط، 2008م، ج1، ص83.

[2]- معجم أعلام شعراء المدح النّبوي، محمد أحمد درنيقة، ص361.

[3]- كان هذا الشّاعر نسيج وحده زهداً وانقباضاً، وأدباً وهمّةً، حسن الشّيبة، جميل الهيئة، سليم الصّدر، قليل التصنّع، بعيد عن الرّياء والهوادة عاملا على السّياحة والعزلة، عالماً بالمعارف القديمة، مضطلعا بتعاريف النِّحَل، طبقة الوقت في الشّعر، وفحل الأوان في النّظم المطوّل، للتّفصيل أكثر ينظر سير أعلام تلمسان، عبد الحق حمّيش، ص219.

تِلِمْسَانُ لَوْ أَنَّ الزَّمَــانَ بِهَا يَسْـخُو مُنَى النَّفْسِ لَا دَارُ السَّلَامِ وَلَا الكَرْخُ

وَدَارِي بِهَا الأُولَى التِي حِيلَ دُونَــهَا مَثَــارُ الأَسَــى لَوْ أَمْكَـنَ الحَنِقَ اللَّبْخُ

وَعَهْـدِي بِهَا وَالعُمْرُ فِي عُنْفُوَانِــهِ وَمَــاءُ شَبَـــابِي لَا أُجَيْنٌ وَلَا مَطْـــخُ[1]

فقد كان ابن خميس يشعر بالغربة تّجاه تلمسان فلم ينس أيّامه الحلوة بها، وهو ما فجّر أحاسيسه وهزّ مشاعره فنظم في حقّها أبياتا يعبّر فيها عن حنينه لها، ويمزج ذلك بوصفٍ لبعض مواطن الجمال بها أيّام تجواله بربوعها، فهو يفضّلها دون غيرها من المدن الأخرى ويتمنّى العودة إليها في زمن من الأزمنة.

- التّاريخ والتّراجم:

شهد التّاريخ اهتماما من لدن العلماء المسلمين وذلك لصلَته الوثيقة بكثير من العلوم الأخرى، أبرزها ما تعلّق بمجال التّراجم والأنساب والمناقب والطبقات وغيرها، فهو كما يراه ابن خلدون « فنّ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشدّ إليه الرّكائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيّام والدّول...وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجديرٌ بأن يعدّ في علومها وخليق»[2] فقد نبع الاعتناء بالتّاريخ من ميل المسلمين لمعرفة أخبار الأمم السّابقة وأنسابهم وما خلّفوه في شتّى ميادين حياتهم، وبخاصّة ما تعلّق بجانب النّشاط الفكري والعقلي، ما من شأنه أن يمدّهم بالخبرات والعبر التي ستساعدهم على تخطيط أفضل للمستقبل.

[1]-من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، ص66، وابن خميس شعره ونثره الطّاهر توات، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1983م، ص94.

[2]- الحضارة الإسلاميّة وعوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد عادل عبد العزيز ص 190/نقلا عن المقدّمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص13.

وقد عرفت تلمسان ظهور عدد معتبر من المصنّفات التّاريخية وكتب التّراجم والسّير التي جمعت أخبار مختلف الأمصار وترجمت حياة كبار العلماء وأحوالهم، وكذا إنتاجاتهم الفكريّة فصارت من أمّهات الكتب والمراجع التي تعود إليها الأجيال اللّاحقة للبحث والدّراسة، فقد حفل كلٌّ من عهد المرابطين والموحّدين بعدد من المؤرّخين الذين جمعوا أخبار هذه الدّول في مؤلّفات كثيرة ضاع أغلبها، فمن بين الكتب التي أرّخت للدّولة المرابطيّة آنذاك «كتاب الدّيباجة في أخبار صنهاجة لمحمد بن علي بن حمّاد القلعي، والأنوار الجليّة في أخبار الدّولة المرابطيّة لأبي بكر الصّيرفي الغرناطي، بالإضافة لعدد من المصادر التّاريخية الموجودة في شتّى الأشكال»[1] حيث تراوحت أخبار هذه الدّولة المترامية أطرفاها بين مؤلّفات في التّراجم، ومجموعات من الوثائق والرّسائل التي تحوي معلومات دفينة ترصد حيثيّات العصر وعلماءه، وكذلك الحال بالنّسبة للموحّدين حيث ازدهرت لديهم حركة التّأليف في ميدان التّاريخ والتّراجم، فكان من أبرز المصنّفات « أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحّدين لصاحبه أبي بكر بن علي الصّنهاجي المعروف بالبيذق، وكتاب المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين لعبد الملك بن محمد بن صاحب الصّلاة، وكتاب نظم الجمان لعلي بن محمد بن عبد الملك الشّهير بابن القطّان، وأهمّ كتاب في التّراجم وهو كتاب الصّلة لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال»[2] فهذه العيّنة من المؤلّفات وغيرها قد وُضعت لرصد حركة الموحّدين وتأريخ أخبارهم وأخبار حكّامهم، كالمهدي وعبد المؤمن ومن خَلَفَهم، بالإضافة إلى مجموع العلماء والأدباء الذين جُمعت سيرهم في مجلّدات كثيرة، وإلى جانب هؤلاء المؤرّخين نورد بعضا من الأسماء التي أنجبتها الحاضرة أو وفدت عليها فكان لها نصيب من الإسهام في التّاريخ، من أمثال أبي علي عمر بن الأشيري « الذي نبغ في علوم عدّة منها الأدب والتّاريخ فألّف كتابا مختصرا في التّاريخ سمّاه نظم اللّآلي في فتوح الأمر العالي»[3]

---

[1]- المغرب عبر التّاريخ، إبراهيم حركات، دار الرّشاد الحديثة، الدار البيضاء، دط، 2000م، ج1، ص228، والمصادر العربيّة لتاريخ المغرب، محمد المنّوني، ج1، ص28.

[2]- عبد المؤمن بن عليّ موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، ص(118، 119).

[3]- الجزائر في التّاريخ العهد الإسلامي، رشيد بورويبة وآخرون، ج3، ص345.

وهذا ما يدلّ على مشاركة أهل تلمسان في عمليّة التّأريخ وجمع أخبار الأمم، فضلا عن عالِم آخر وهو أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن دحيّة نزيل تلمسان « الذي أسهم هو الأخر بمجموعة من الكتب التّاريخية منها النّبراس في تاريخ خلفاء بني العبّاس، وتاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم، وأعلام النّصر المُبين في المفاضلة بين أهل صفّين»[1] فهذا العالِمُ قد نال حظّا وافراً من المشاركة في مجال التّأليف ضمن علم التّاريخ والتّراجم فقدّم مجموعة من المصنّفات التي لازالت إلى غاية اليوم مرجعاً مهماً من المراجع التّاريخية، أمّا عن الدّولة الزّيانية فهي الأخرى قد ازدهرت فيها كتابة التّاريخ والتّراجم، إلا أنّها قد عرفت الذّيوع والانتشار مع بداية القرن الثّامن لاستقرار الأحوال السياسيّة بالحاضرة؛ فظهرت ثلّة من العلماء أتحفوا النّشاط الفكري بمصنّفاتهم النيّرة.

ج- العلوم العقليّة:

ويُطلق عليها كذلك العلوم الطبيعيّة والحكميّة، وقد عرفت رواجاً وذيوعا دائبين بين علماء الإسلام لفائدتها العظمى في عمليّة تكامل التّحصيل العلمي، فبقدر ما يحتاج المسلم لعلوم دينه النقليّة فهو بحاجة أيضا لإعمال فكرة وتنمية إبداعه فيما يخصّ العلوم العقليّة، وهي تشمل علوم الطبّ والصّيدلة والمنطق والفلسفة والعلوم العدديّة والفلكية وغيرها.

وقد عرفت هذه العلوم نهضة كبيرة بتلمسان على أيدي علماء عدّة من أبناء المنطقة ومن الوافدين عليها من مختلف الأماكن، وبخاصّة بعد هجرة الأندلسيّين إليها وما حملوه معهم من خبرات؛ يدعّمهم في ذلك تشجيع الحكّام للعلم وأهله، فظهرت مصنّفات متنوّعة صارت تتناقل بين شتّى الحواضر.

- علم الطبّ والصّيدلة:

حظي الطبّ باهتمام وافر من لدن العلماء المسلمين فكانت لهم فيه قدم راسخة « وقد نبغوا فيه حتّى صار الطلّاب يأتون من جميع أنحاء العالَم إلى مدارس المسلمين لنهل العلم من الطبّ

[1]- المغرب الأوسط في عهد الموحّدين، علي عشّي، ص258.

والصيدلة، وإذا تصفّحنا قوائم الكتب والمؤلّفات فإنّنا نستطيع أن نقف على ثروة علميّة هائلة تُرجمت إلى لغات العالم المختلفة»[1] وهو ما يشهد للمسلمين بالأسبقيّة في علمي الطبّ والصّيدلة، وفضلهم الكبير على سائر البلدان الغربيّة التي صارت ترسل طلّابها ليتتلمذوا على يد العلماء المسلمين ويستفيدوا من خبراتهم وانجازاتهم العظيمة في هذا المجال.

وقد برع علماء تلمسان في هذين العلمين فبَنَوْ المستشفيات واهتمّوا بتدريس الطبّ للمبتدئين، ومن أمثال هؤلاء الأطبّاء نورد اسم الطّبيب أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن شلوط المعروف بالشبارتي « وهو من أهل بلنسية، سكن تلمسان مدّة، فكان محدّثا عدلاً خياراً محترفاً بالطبّ ماهرا فيه»[2] حيث تعوَّد العلماء بمدن المغرب الإسلامي على الجمع بين عدّة علوم، فكان الشبارتي بارعا في الطبّ إلى جانب الحديث وسائر العلوم الدينيّة، كما لا ننسى إسهام العالِم محمد بن سحنون « الذي عاش في العهد الأخير للدّولة الموحّدية، هاجر أبوه إلى الأندلس ووُلِدَ هو بقرطبة ثمّ انتقل إلى إشبيليّة، وقد سمح له تواجده بالأندلس أن يتتلمذ على يد ابن رشد وغيره، ويكون من أطبّاء الحكّام والخاصّة، وله اختصار كتاب المستصفى»[3] فهذا العالِم قد جمع بين الطبّ والفقه وكذا اللّغة العربيّة، إلّا أنّ نبوغه في ميدان الطبّ أهّله لنيل مناصب مرموقة لدى حكّام الموحّدين فكان من جملة أطبّائهم البارعين.

---

[1]- نظرات في الثّقافة الإسلاميّة، عزّ الدّين الخطيب التّميمي، دار الشّهاب للنّشر الجزائر، دط، 1988م، ص(183، 184).

[2]- ينظر إسهام العلماء الأندلسيّين في الحركة العلميّة بتلمسان خلال القرن السّابع الهجري، عبد القادر بوباية، مجلّة عصور الجديدة، العدد02، ص165، والذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المرّاكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر5، ص413.

[3]- ينظر من أعلام ندرومة، فوزي مصمودي، الملتقى الوطني الثّاني حول عبد المؤمن بن علي الكومي النّدرومي الجزائري مؤسّس الدّولة الموحّدية، ص(255، 256).

- **العلوم العدديّة:**

ويُطلق عليها أيضا العلوم الرياضيّة، وهي علوم لا يستطيع أيّ إنسان الاستغناء عنها في مختلف معاملاته اليوميّة« حيث اهتمّ المسلمون بالرياضيات وبرعوا فيها، وبفضل ما قدّموه من ابتكارات كانوا بحقّ مؤسّسي علم الرّياضيات، فهُم أوّل من حدّد تعريف هذا العلم وقالوا: إنّه علم غرضه إدراك المقادير»[1] فالعلوم العدديّة ليست حكراً فقط على التّعاملات الذهنيّة والعقليّة بل يحتاج إليها الفرد في شتّى ميادين حياته، وبخاصّة ما تعلّق بالأمور الدينيّة التي لا تخلو من الحساب لمعرفة الفرائض والمواريث وغيرها، وهي تشمل الحساب والجبر والهندسة وهي كلّها فروع نالت جانبا مهماً من الاهتمام والدّراسة.

وقد شهدت تلمسان ظهور عدد من العلماء الذين اهتمّوا بالعلوم العدديّة إلى جانب علوم أخرى، فتعلّموها ودرّسوها للأجيال، كما اطّلعوا على مؤلّفات من سبقهم إليها عبر أقطار بلاد الإسلام[2] بالإضافة إلى حاجة الحكّام المُلِحّة لهؤلاء العلماء « الذين تخصّصوا في دراسة علوم الهندسة والجبر والحساب فاستدعاهم الولّاة لسدّ النّقص الموجود بالبلاد، والشّروع في عمليّات البناء والتّعمير التي شهدتها الدّولة الموحّدية»[3] فكان مثلا للهندسة دور هامٌّ في تشييد المباني الدينيّة والمدنيّة والحربيّة، وللحساب رصيد لحاجة الدّولة للمحاسبين بخاصّة في المحاكم وأمور المواريث، كما لا ننكر حقّ علماء الأندلس الذين استعان بهم ولّاة الأمور في أعمال البناء والتّعمير بفضل اضطلاعهم الواسع بالعلوم العدديّة، فهم كانوا دائمي التّرحال بين الحواضر من أبرزهم الرّياضي أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن جرح البلنسي الذّهبي « الذي كان مشاركا في علوم جمّة منها الرياضيات، ويُقرئ

---

[1]- نظرات في الثّقافة الإسلاميّة، عزّ الدّين الخطيب التّميمي، ص291.

[2]- من أبرز المصنّفات الخاصّة بالعلوم العدديّة بمدن المغرب الإسلامي والتي ذاع صيتها بين العلماء، كتاب اللّباب في مسائل الحساب لأبي الحسن علي بن محمد بن فرحون القيسي القرطبي، والأرجوزة الشّهيرة في الجبر والمقابلة لأبي عبد الله بن محمد بن حجّاج المعروف بابن الياسمين الفاسي وغيرها من الكتب المفيدة، للتفصيل أكثر ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص(103، 104).

[3]- ينظر الحضارة الإسلاميّة في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص505.

الحساب، تُوفي بتلمسان ووقع له اتّصال هناك بطلبتها وفقهائها»[1] وهذا يدلّ على أنّ جلّ العلماء قد اعتنوا بالعلوم العقليّة والعدديّة، إلّا أنّ رصيد هذه الأخيرة كان أقلّ بالمقارنة مع العلوم الدينيّة التي أخذت الرّيادة والعلوم اللّسانية التي تلَتها في المرتبة.

- علم الفلك والجغرافيا:

اعتنى العلماء المسلمون بعلم الفلك وهناك من سمّاه علم الهيئة لاعتمادهم الكبير على النّجوم والكواكب في تسيير أمور معيشتهم اليوميّة فهو «علم يبحث في حركات الكواكب، ومن فرعه علم الأزياج أو علم التّنجيم الذي يبحث في مواضع الكواكب في أفلاكها، وكيف يمكن به معرفة الشّهور والأيّام والتواريخ السّابقة، والتنبّؤ بالحوادث المستقبليّة»[2] حيث عُني المسلمون بهذا العلم لمعرفة السّبيل الصّحيح وسط ظلمات اللّيل، وكذا اتّجاه القبلة ومواقيت الصّلاة والحجّ، ولحاجتهم الملحّة إليه حدّدوا مواقع النّجوم واتّخذوا المراصد، كما ألّفوا حوله المصنّفات الفريدة التي تشرح نظرياته وقوانينه، يرافقه في ذلك علم الجغرافيا أو علم تقويم البلدان الذي يبحث « في وصف طبيعة البلاد، برّها وجوّها، ناسها وحيوانها، نباتها ومعدنا، ويبحث في المدن ومسالكها، والأرض وهيئتها وحركتها وأفلاكها»[3] فتنبع فائدة الجغرافيا في تحديد مواقع البلدان ومسالكها سواءً الرّحلة إلى الدّيار المقدّسة بقصد الحجّ أو طلب العلم أو التّجارة أو غيرها من المقاصد المتنوّعة، تساعدهم في ذلك أيضا تلك الكتب أو الرّحلات التي صنّفها أصحابها شارحين فيها كلّ ما تعلّق بطريق ذهابهم وإيابهم، وكلّ المعلومات التي يحتاجها الرّحالة أو الجغرافي لشقّ طريقه إلى مبتغاه.

وقد اهتمّ العلماء المغاربة بعلمي الفلك والجغرافيا منتهى الاهتمام وبخاصّة على عهد الموحّدين، حيث شجّع حكّامهم حرّية التّفكير فاعتنوا بالعلوم العقليّة أكثر من غيرها من العلوم « وعلى رأسهم الخليفة يعقوب المنصور بتأسيسه لأوّل مرصد في أوربا وتاريخ الأندلس، إلى جانب ثلّة من العلماء

[1]- المغرب الأوسط في عهد الموحّدين، علي عشّي، ص268.

[2]- الحضارة الإسلاميّة وعوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد عادل عبد العزيز، ص228.

[3]- نظرات في الثّقافة الإسلامية، عزّ الدّين الخطيب التّميمي، ص301.

المغاربة الذين أسهموا بأعمال جليلة في سبيل ازدهار هذا العلم»[1] فهذه الأعمال تعدّ بحقّ مرجعاً أساساً للأجيال اللّاحقة للاستفادة منها؛ حيث تذكر المصادر التاريخيّة دائما وتنوّه بسَبقِ العلماء المسلمين في كثير من العلوم قبل علماء الغرب الذين ترجموا مؤلّفات المسلمين، وانتفعوا بها وهي اليوم أساس نهضتهم العلميّة.

- علم المنطق والفلسفة:

المنطق علم يونانيّ الأصل تداوله علماء الإسلام بالتّرجمة والدّراسة ثمّ الشّرح والتّلخيص، فنبغ فيه علماء مبرزون ألّفوا حوله المصنّفات المتنوّعة، إلّا أنّه قد لاقى معارضة كبيرة من لَدُن بعض الفقهاء الذين حظروا تعلّمه وحذّروا منه، وإلى جانبه علم الفلسفة، وبخاصّة فقهاء دولة المرابطين « الذين كانوا يلتزمون بأحكام الدّين ويتشدّدون في تنفيذ مبادئه وتعاليمه، فاتّجهت دراساتهم في معظمها وجهة دينيّة، حتّى إنّهم أمروا بحرق كتب هذه العلوم شأن كتاب الإمام الغزالي »[2] فبما أنّ المنطق والفلسفة علوم موصلة للإلحاد والكفر حسب المرابطين، فإنّ الدّولة منعت العلماء من تعاطيهما فلم يكن لهما الحظّ من الدّراسات سوى بعض العلماء الذين اشتغلوا بهما سرّا، إلى أن برزت دعوة الموحّدين المطلِقة لعنان التّفكير وحرّية إبداء الآراء فظهرت هذه العلوم ونالت حظّها من الانتشار بفضل اهتمام حكّام الموحّدين بها وعملهم بأجزائها « فشكّلت بذلك الدعوة الموحّدية منطلقا لتجديد ثقافيّ هامّ يتمثّل أساساً في التفتّح على نظريات المعتزلة والأشاعرة الاعتقاديّة، وعلى علوم الحكمة من فلسفة ومنطق وغير ذلك»[3] وهُمْ وفْقَ هذه الرّؤية الجديدة استطاعوا النّهوض بالجانب الفكريّ والعلميّ لدولتهم وتحويله من نمط التّقليد إلى الإبداع والتّجديد، إذكاء روح المناظرة والجدل حول المسائل التي يرد فيها الخلاف، فاستفادت تلمسان من إسهامات

---

[1]- ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص (109، 110).

[2]- الحضارة الإسلاميّة في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، ص506.

[3]- تطوّر الحياة الفكريّة بالجزائر في عهد الموحّدين، عبد الحميد حاجّيات، الملتقى الوطني الثّاني حول عبد المؤمن بن علي الكومي النّدرومي الجزائري مؤسّس الدّولة الموحّدية، ص152.

مختلف العلماء؛ ونشطت علوم الفلسفة والمنطق أكثر في عهد بني عبد الواد اللّاحق للموحّدين منذ بداية القرن الثّامن الهجري.

وخلاصة القول إنّ جهود علماء تلمسان في سبيل ازدهار الحياة الفكريّة والعلميّة بحاضرتهم، قد أبانت عن حبّهم للعلم وتطلّعهم لاكتسابه؛ فجعلوا العلوم النقليّة نُصب أعيُنهم وحرصوا على التضلّع فيها وتدريس علومها، بل وأتحفوا مجالسهم بتدارس علوم اللّسان وكلّ ما من شأنه إعلاء كلمة الإسلام ولغة القرآن، كما عمدوا لتوسيع مداركهم وعرض إبداعاتهم في مجال العلوم العقليّة، فسجّل لهم التّاريخ جملة إسهاماتهم بأحرف من ذهب.

وأخيرا فإنّه من خلال استعراضنا لمظاهر الحركة الثقافيّة بتلمسان في هذا الفصل ندرك أنّ هذه الحاضرة قد تبوّءت مكانة مرموقة بين مثيلاتها من حواضر المشرق والمغرب، بفضل ما قدّمه أبناؤها في سبيل بناء صرح الحضارة ويتجلّى ذلك في الآتي:

- لَقِيَ علماء تلمسان من تشجيع حكّامهم وسلاطينهم للعلم وإكرامهم لأهله، ما أذكى فيهم روح الكدّ والمثابرة، فراحوا يُسهِمون وإيّاهم في رفع مستوى العلم والثّقافة بالحاضرة بكلّ إتقان وتَفَانٍ.
- نالت المعاهد والمؤسّسات التعليميّة حُظوة لدى التّلمسانيّين، حيث دعموا نشاطها وعمروها بالمدرّسين الأكفاء والمؤلّفات المفيدة لتلقين سائر المعارف وفق مناهج متميّزة تكفل التّحصيل المتوازن للأجيال.
- نفقت سوق العلم والمعرفة بتلمسان فوفد عليها العلماء المبرزون والطّلبة الحريصون على طلب العلم، فارتقت المعارف وازدهرت أنواع العلوم وصُنّفت حولها المصنّفات الرّائقة وقد تناقلت بين مختلف الحواضر للاستفادة منها.

الفصل الثّالث: دور بجاية وتلمسان في الازدهار الثّقافي بالمغرب الإسلامي

أوّلا: بجاية وتلمسان بين التّأثر والتّأثير

ثانيا: إسهام بجاية وتلمسان بعدوة المغرب والأندلس

ثالثا: نماذج تطبيقية

عرفت بلاد المغرب الأوسط بروز عدد من المراكز الثّقافية بين أرجائها، فنالت حاضرتا بجاية وتلمسان حظوة كبرى بين مثيلاتها، وقد صارت بحقٍّ حواضر للإشعاع الفكريّ والعلميّ عبر مختلف العهود التي توالت عليها؛ وهو ما أبرزته تلك الصّلات الثقافيّة بينها وبين سائر مراكز الحضارة المنتشرة في مدن المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، حيث تواصل نشاط الرّحلات العلميّة للعلماء والطّلبة نحو المدينتين للتّحصيل والتّدريس، وعقد المجالس والمناظرات فازدهرت حركة التّأليف في شتّى أصناف العلوم والمعرفة، ونبغ فيهما علماء مبرزون أثْرَوا الحياة الثقافيّة ببلاد المغرب والأندلس حتّى المشرق.

أوّلا: بجاية وتلمسان بين التأثّر والتّأثير

حظيت كلٌّ من حاضرتي بجاية وتلمسان بموقع جغرافي ممتاز جعلها من أفضل مدن المغرب الأوسط، حيث تقعان في ملتقى الطّرق الرّابطة بين الشّرق والغرب، وكلُّ من قصد الجزائر لابدّ له من المرور عليهما، وحطّ الرّحال بهما ولو لأيّام قلائل، فضلا عن أنّ بجاية كما هو حال تلمسان من أهمّ المراكز التي شهدت حياة علميّة وثقافيّة زاخرة طالت مجالات عدّة، فنبغ فيها علماء كثر، وقد استطاعت أن تخلق نوعا من التّبادل والتّفاعل الثّقافي بينها ما أفضى لوجود بعض نقاط التّلاقي والتّواصل بين الحاضرتين .

اهتمّ العلماء المسلمون منذ القدم بالسّفر والتّرحال فانطلقوا يجوبون مختلف بقاع الأرض «فكان الحجّ ولا يزال من أهمّ العوامل التي دفعت بهم للرّحلة من كلّ فجٍّ عميق، إلى جانب السّعي في طلب العلم والاستفادة من العلماء»[1] فلم تقتصر الرّحلة على أداء فريضة الحجّ فحسب بل شملت أيضا دافع التّجارة والاستكشاف، وسائر الرّحلات التّكليفيّة ضمن المهمّات الرّسمية التي تصدر عن ولاة الأمور، إلاّ أنّ أهمّ الدّوافع وأجلّها هو طلب العلم؛ وحرص العلماء الرّحالة على التزوّد به في كلّ مكان يمرّون به، فيَلْتَقُون بالشّيوخ والفقهاء وينهلون منهم ما قدّر لهم المولى عزّ وجلّ.

[1]- ينظر أدب الرّحلات، حسين محمد فهيم، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، الكويت، دط، 1989م، ص80.

وقد اعتاد أبناء تلمسان من علماء وطلبة على شدّ الرّحال نحو بلاد زواوة والعاصمة بجاية، كما وفد على تلمسان كمٌّ هائل من أهل العلم البجائيّين، ممّا أتاح لأبناء الحاضرتين فرصة ثمينة للالتقاء بالمشايخ والأخذ عنهم فغالبا «ما كانت الرّحلة من إحدى الحاضرتين إلى الأخرى مرتبطة بطلب العلم من شيخ بعينه، لِمَا يَشِيع من أخبار تبحّره في علم من العلوم، أو لِمَا تضمّه بعض المجالس العلميّة من أكابر العلماء التي تكون الجوامع والمدارس أو مجالس السّلطان محلّها»[1] حيث كان طلاّب العلم ينتقلون بين هذه المدن بكلِّ حريّة بالرّغم من وجود بعض التّصادمات بين حكّام هذه الحواضر في بعض الأحيان؛ ولم يُثْنِهِمْ في الوصول إلى هدفهم أيّ عائق، بل وجدوا حفاوة الاستقبال فالتحقوا بمختلف المعاهد التّعليميّة من مساجد ومدارس وغيرها، وجلسوا عند أفضل الشّيوخ الذين اختاروهم وأَتَوْا من أجل التّتلمذ على أيديهم، وذلك لأنّ «الطّالب إن لم يجلس إلى شيخه ويسمع منه علمه بشكل مباشر، ويكتفي فقط بما قرأه من مصنّفاته أو سمعه ممّن أخذوا عنه فإنّه لن يُحصِّل إلاّ النّزر اليسير و لا يُوثق فيما بعدُ بقوله»[2] فقد كانت تلك الرّحلات العلميّة بمثابة معيار أساس لمعرفة درجة تحصيل الطّلبة والعلماء ومستواهم الفكري، فبمجرّد وصول الرّحالة إلى حواضر أخرى سيتعرّف حتماً عليها وعلى ثقافة شعوبها، وينغمس في وسطها العلميّ فيستفيد من خبرات علمائها، كما يزوّدهم بمعارف بلده في جوٍّ من التّبادل العلميّ والثقافيّ، فلم تنحصر هذه الحركة على الطّلبة فقط بل «انخرط فيها كثير من أعيان علماء ومشايخ الحاضرتين، طلبا للعلم والبرَكة، بالاجتماع بمن عُرِف واشتهر من العلماء والصّلحاء والأولياء ضمن رحلات

---

[1]- المشهد العلمي والثّقافي في زواوة وتلمسان في القرنين السّابع والثّامن للهجرة، محمد فلاّق، ملتقى العلاقات العلميّة والحضاريّة بين زواوة وتلمسان، منشورات الشّؤون الدينيّة والأوقاف، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، تيزي وزو، الجزائر، دط، 2011م، ص 71.

[2]- ينظر البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقّب بابن مريم الشّريف المليتي المديوني التّلمساني، اعتنى بطبعه محمد بن أبي شنب، ص (216، 217).

علميّة خاصّة، أو خلال رحلات الحجّ إذا كان للمشيخة عندهم قدرها واعتبارها العلميّ الرّاقي»[1] حيث لم تتوقف هذه الصّلات العلميّة على التّتلمذ فقط بل تعدّته إلى الزّيارة وتبادل الرّسائل والمصنّفات، فضلا عن تلك الاستشارات العلميّة والفتاوى وفق المذهب المالكي[2] حيث حدث هناك نوع من التّفاعل الفكريّ بين أجلّ العلماء وأقرانهم عبّر في كلّ شكل من أشكاله عن حسن العلاقات بينهم، وسعيهم الدّائم لخدمة الدّين وازدهار العلوم والمعارف، فغالباً ما كان أهل العلم بالحاضرتين يحرصون على اتّخاذ المجالس العلميّة الحافلة بجموع عفيرة من العلماء والطّلبة الرّاغبين في الاستزادة، فيتدارسون في موضوع معيّن ويتناقشون حوله، ويُدلي كلُّ طرف بعلمه بُغيَة الوصول إلى الحقيقة وتنشيط الأبحاث والدّراسات، فتتعمّم الفائدة ويحظى الشّيوخ بالشّهرة ما يجعل وفود الطّلاب تتقاطر عليهم من كلّ حدب وصوب للأخذ عنهم وتحصيل الإجازات العلميّة؛ ومن أمثلتها إجازة الفقيه العالِم أبو عبد الله محمد بن عبد الحق اليعفري التّلمساني للفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن الحسين الخشني البجائي فكتب إليه بما نصّه «أجبتك بأحسن تحيّة، وامتثالاً لِمَا جاء به خير البريّة، نعم وأجبتك إلى ما سألته وطلبته، إجابة من يعلم أنّك أهل له، وإذن من تحقّق أنّك قائم به لشواهد طلبك، وبوارع أدبك، إجابة عامّة بشرطها فتلقّها تلقّي أمثالك، وأعمل بحسابها عمل نظرائك، والعمل جمال العلم وخادم له ومرتبط به لِمَن أراد السّعادة وسعى لها، قال الله تعالى: M ¸ ¹ º » ¼ ½ ¾ L[3] مع شروط الإجازة عند أهلها القائلين بإجازتها، جعلنا الله وإيّاكم ممّن استمع القول واتّبع أجمله، وممّن ختم بالحُسنى عمله آمين،

---

[1]- المشهد العلمي والثّقافي في زواوة وتلمسان في القرنين السّابع والثّامن للهجرة، محمد فلاق، ملتقى العلاقات العلميّة والحضاريّة بين زواوة وتلمسان، ص (71، 72).

[2]- يعدّ المذهب المالكي المذهب الرّائج ببلاد المغرب الإسلامي؛ فبالرّغم من تلك الحملات الشرسة لاستبداله بمذاهب أخرى، فإنّه استطاع الصّمود وازداد في الذّيوع والانتشار بفضل معتنقيه من الفقهاء الذين جلبوه من الحجاز ونقلوه إلى بلادهم، وبخاصّة مدينتي بجاية وتلمسان ما أهّله ليكون عاملاً أساساً في التّواصل بينهما، للتّفصيل أكثر ينظر المقدّمة، عبد الرّحمن بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكّار، ص 568 وما بعدها.

[3]- سورة فاطر، الآية 10.

قال وكتبه حامداً ومُصلياً على نبيّه، محمد بن عبد الحقّ بن سليمان في ذي حجّة عام ثلاثة وستمائة»[1] حيث عُدّت الإجازات ضرورة حتميّة للطّلبة والعلماء وبها يُعرف المستوى العلميّ لصاحبها، فعكف علماء الحاضرتين على التنقّل بين سائر مراكز الثّقافة، ونيل الإجازات عن كبار علمائها ما سيؤهّلهم لمزاولة التّدريس وبلوغ مرتبة العلماء والفقهاء الكبار، وكلّما زاد عدد الشّيوخ والإجازات زاد قدر العالِم.

وقد احتفظت المدينتان بمكانتهما العلميّة والثقافيّة على مرِّ العهود التي مرّت بهما، وازدانتا بثلّة من العلماء الأصلاء والوافدين من مختلف الأماكن، حيث أدّوا دوراً هاماً في رفد الحضارة العربيّة والإسلاميّة، ولاسيما ما تعلّق بالارتحال بين الحاضرتين ومحاولة خلق جسر للتّواصل الثّقافي بين علمائهما، فمن أمثال هؤلاء نورد اسم «عبد المؤمن بن علي الذي شدّ الرّحال من مسقط رأسه تلمسان نحو بجاية، وهناك الْتَقَى بابن تومرت وعُقِدَت جلسة مطوّلة بين الرّجُلين اكتشف خلالها الأستاذ حدّة ذكاء التّلميذ وقوّة شخصيّته فعاد معه إلى تلمسان»[2] فبالرّغم من اختلاف المؤرّخين حول السّبب الرّئيس لرحلة عبد المؤمن إمّا أنّه كان قاصداً المشرق العربي لطلب العلم وبجاية كانت مجرّد نقطة عبور، أو أنّه تنقّل إليها خصّيصا لإقناع ابن تومرت بالقدوم إلى تلمسان والتّدريس بمسجدها، فإنّ العالِمَين قد الْتَقَيَا وعرف كلُّ منهما قدر الآخر فاتّفقا على محاربة البدع وتأسيس كيان جديد يوحّد كلّ المغرب الإسلامي، كما لا ننسى أيضا سيّدنا أبا مدين شعيب نزيل بجاية ودفين تلمسان الذي عاش «حياة مليئة بالعطاء العلميّ والرّوحي في مدينة بجاية، وهي حاضرة تعجّ بالعلماء والأدباء والشّعراء والصّلحاء، وكان أبو مدين فيها النّجم، إلى مجلسه تُشَدُّ الرّحال من كلِّ

---

[1]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، لأبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 253.

[2]- العلاقات التّاريخية بين الزّواوة وتلمسان، محمد أرزقي فراد، ملتقى العلاقات العلميّة والحضارية بين زواوة وتلمسان، ص (25، 26).

مكان، ومن مَعِينِه العذب النّقي عميق الأغوار، ينهل الورّاد القادمون من مختلف الأمصار»[1] فهذا الشّيخ يعدّ رمزاً من الرّموز التي تشكّل الذّاكرة الحضاريّة، وترسم المرجعيّة الفكريّة للأمّة الإسلاميّة، وهو أندلسي الأصل ولكنّه أبَى إلاّ أن يتّخذ بجاية موطنا له بحكم ازدهارها الفكريّ آنذاك أكثر ممّا كانت عليه تلمسان التي كانت مركزاً للعلم أيضا إلاّ أنها لم تحتلّ الصّدارة الفكريّة والسّياسية إلاّ بعدما أصبحت عاصمة للزيّانيّين، فعكف هذا القُطب بفضل مالَهُ من واسع العلم والتّقوى على تعليم الأجيال وتربيتهم، فكثر زّواره وتلامذته «فأثار ذلك حقد بعض علماء الظّاهر ومنهم الشّيخ أبو عمر الحبّاك الذي وشى به للسّلطان يعقوب المنصور الموحّدي، فقرّر أن يحقّق مع أبي مدين وطلب أن يُحمَل إليه وما إن وصل موكبه إلى ضواحي العبّاد قال الشّيخ ما أصلحه للرّقاد، وهناك اشتدّ عليه المرض وتوفيّ فدُفن، ومن يومئذ اشتهرت تلمسان به وأصبح اسمه مقروناً بها كلّما ذُكِر على أيّ لسان، وفي أيّ عصر حتّى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»[2] فقد قضى أبو مدين جُلَّ حياته في طلب العلم كما انكبّ على التّعليم والوعظ فتخرّج على يديه عدد من العلماء ورّثهم طريقته الصّوفية القادرية، وما وفاته بتلمسان إلاّ تخليدٌ لذكرها ورفعة لشأنها، لتواصل مسيرة العلم رفقة مثيلتها بجاية فتثبت حتمية التّفاعل الثّقافي الحاصل بينهما.

ومن علماء تلمسان الذين قصدوا بجاية أيضا نورد الشّيخ الجليل أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف التّلمساني وقد استقرّ ببلاد زواوة «وله عكوف على التّدريس دؤوب عليه، أُسند إليه قضاء الأنكحة ببجاية عن بعض قضاتها، وكان مشاوَراً وعلى فتواه العمل، درس عليه العلمَ خلقٌ كثير وانتفعوا به، فكان أكثر النّاس أصحاباً، وألينهم جناباً، وكان سليم الصّدر، لا يعرف شيئاً

[1]- القطب سيدي أبو بومدين شعيب بين حاضرتي بجاية وتلمسان، بوعلام جوهري، ملتقى العلاقات العلميّة والحضارية بين زواوة وتلمسان، ص 114.

[2]- ينظر مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، يحي بوعزيز، دار البصائر للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2009م، ص (68، 69) .

من الشرّ»[1] فهذا الشّيخ هو تلمسانيّ الأصل ارتحل إلى بجاية زمن كانت تزخر بالعلماء وهناك وضع بصماته الجليلة بفضل دروسه المشهورة؛ فأخذ عنه طلاّب وعلماء عديدون؛ منهم أبو العباس الغبريني صاحب كتاب عنوان الدّراية.

وخلاصة القول إنّ مدينتي بجاية وتلسمان قد عُدّتا من أبرز الحواضر العلميّة بالمغرب الأوسط، بل بالمغرب الإسلاميّ ككلٍّ، فاستطاعت كلّ واحدة أن تحتفظ برصيدها الفكريّ ومكانتها العلميّة المرموقة على مرِّ العصور، وهو ما خلق جسرا من التّواصل الثّقافي بينهما صنعه أبناء الحاضرتين من علماء أجلاّء، وطلبة حريصين على العلم، فتركوا بصمات جليلة في تاريخ المغرب الإسلامي وحضارته.

ثانيا: إسهام بجاية وتلمسان بعدوة المغرب والأندلس

تعدّ حاضرتي بجاية وتلمسان من أبرز المراكز الثّقافيّة الكبرى ببلاد المغرب الإسلامي وأهمّها على الإطلاق، فقد اتّسمت بخلقها حركة فكريّة وعلميّة رائدة لم يُشهد لها نظير، جعلتها مثاراً للاهتمام ومحطاً للرّحال من لَدُنِ خِيرة العلماء، فلم تكن إسهاماتها العلمية وليدة الصّدفة، بل تضافرت عوامل جمّة في تحقيقها فكان لها عميق الأثر في ازدهار الجوانب الثقافيّة والحضاريّة لعدوة المغرب والأندلس، كما أنّ كتب التّاريخ والتّراجم قدّمت صورة واضحة المعالم تثبت أنّ أيّ إنجاز أصيل برز للوجود بإحدى مدن المغرب الإسلاميّ إلاّ وكان لبجاية وتلمسان مشاركة فيه من قريب أو من بعيد، وهو ما عزّز روابط التّواصل والتّفاعل بين مختلف هذه الحواضر.

فقد حظيت المدينتان بتراث علميّ تليد مثّل تلك الحصيلة المعتبرة من جهود الحكّام والرعيّة في سبيل رفع مشعل العلم والحضارة عبر العهود المختلفة التي توالت في حكم الحاضرتين « على يدي ثلّة من العلماء الذين خاضوا في ميادين معرفيّة شتّى، فلم تبق شهرتهم حبيسة الدّار، بل طارت شرقاً

---

[1]- ينظر عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، لأبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (63، 64).

وغرباً وهذا ما جادت به مؤلّفات بعض المؤرّخين الذين ترجموا لهم وأرّخوا لتراثهم الثّقافي»[1] فقد أثبت أبناء هذه الحواضر من علماء وأدباء وفقهاء جدارتهم في مجالات فكريّة عديدة؛ عكست درايتهم الواسعة بأصناف العلوم والمعارف وعلى رأسها العلوم الدّينية، كما لم يغفلوا عن الخوض في العلوم اللّسانية والعقليّة، وهو ما أهّلهم لتقلّد أعلى المناصب الرّسمية وكذا الدينيّة والأدبيّة، فضلا عن ترأّسهم مجالس الفتوى والإقراء، وتصنيفهم لمؤلّفات كثيرة ومتنوّعة فلمعت أسماؤهم في سماء المغرب الأوسط والمغرب الإسلاميّ ككلٍّ، إلاّ أنّه وبالرّغم من توفّر الظّروف العلميّة الملائمة بالمدينتين فإنّ العلماء لم يشفوا غليلهم في النّهل من المشارب العلميّة المختلفة فراحوا يبحثون عن ينابيع أخرى للاكتراع منها، فانطلقت رحلاتهم إلى كلّ حدب وصوب من البلدان الإسلامية[2] بينما كانت مدن المغرب الإسلاميّ والأندلس من أبرزها مقصداً وذلك لعدّة اعتبارات من أهمّها « إدراك أبناء هذه المدن تلك الصّلة الوثيقة بين أقطارهم، فمظاهرها الجغرافيّة متشابهة، ونظراً لسهولة الاتّصال بين مدن المغرب والأندلس ارتبط القطران منذ عدّة عهود بعلاقات متينة وفي شتّى المجالات»[3] فقد أدّى العامل الجغرافي دوراً مميّزاً في تسهيل عمليّة انتقال العلماء عبر هذه الأقطار من دون أيّ عناء أو حواجز سياسيّة، بالرّغم من تأزّم الأوضاع في بعض الأحيان فإنّ ذلك قد ضاعف من رصيد رغبتهم في المرور بكلّ شبر من الأراضي المتواجدة بطريقهم إلى غاية الوصول إلى البلد المنشود من وراء هذه الرّحلة، بالإضافة إلى عامل آخر أضفى لمسة الارتياح إلى قلوب العلماء فاطمأنّوا لشدّ الرّحال خارج مُدنهم ألاَ وهو ذلك التّوافق المذهبي «بسيادة المذهب المالكي الموحّد فكان أهل المغرب والأندلس يفضّلونه

---

[1]- ينظر الشّريف التّلمساني وإسهاماته الثّقافية، محمد بوشريط، مجلّة عصور الجديدة، العدد 02، ص 125.

[2]- فضلاً عن توجّه علماء بجاية وتلمسان إلى مدن المغرب الإسلامي والأندلس فإنّهم قصدوا أيضا الحجاز وبلدان المشرق؛ يحذوهم أمل أداء فريضة الحجّ وزيارة الأماكن المقدّسة، ثم تنفيذ ما تضمنه القرآن الكريم والحديث النبوّي الشّريف من دعوة لطلب العلم وتحصيله، ومجالسة الفقهاء والمحدّثين وأهل العلم عامّة فحصّلوا معارف جمّة، للتّفصيل أكثر ينظر قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6هـ - 9 هـ / 12م – 15م) دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، ص (420 إلى 422).

[3]- ينظر العلاقات الثّقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزّياني (633-962هـ / 1235م-1554م) عبد القادر بوحسّون، مذكّرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف د لخضر عبدلي، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2008م، ص (105، 106).

دون غيره من المذاهب الأخرى المعروفة آنذاك، وبخاصة بعدما وجدوا أنّه يتماشى مع عقليتهم وطبيعتهم، وكونه مذهبا علمياً أكثر ممّا هو نظري وفقهه واضح بسيط بعيد عن التعقيد»[1] فالملاحظ أنّ المذهب المالكي قد تمكّن من الرّسوخ بعقلية أهل المغرب حكّاما ورعيّة فزاد الإقبال عليه وانكبّ الفقهاء والطّلبة على تداول أشهر مصنّفاته، وبالرّغم من المحاولات الكثيرة لاستبداله ولاسيما زمن الموحّدين، فإنّه ظلّ المذهب المعمول به وهو ما شجّع العلماء على تمتين علاقاتهم بجيرانهم ودفعها للازدهار، فقد كعف علماء بجاية وتلمسان وطلبتهما على «شدّ الرّحال إلى مختلف الحواضر المغربيّة والأندلسيّة وكذا المشرقيّة، تدفعهم الرّغبة في الاستزادة من العلم على كبار شيوخ هذه الحواضر، ومواصلة عملية الدّرس والتحصيل والتعمّق في المعارف»[2] كما أغرت العلماء كثرة المعارف وتنوّعها خارج مُدنهم وجذَب انتباههم ذيوع صيت بعض المشايخ الأجلاّء هناك فأَبَوْ إلاّ أن ينالوا منهم ما جهلوه، ويتبادلوا بينهم الآراء حول مختلف المسائل فيُسهموا بنصيب معتبر في إثراء الحياة الثقافيّة، ويضعوا بصماتهم المميّزة في مختلف الآثار ولاسيما إذا علمنا أنّ أغلب الحكّام كانوا دائماً يشجّعون على ارتحال العلماء والطّلبة إلى بلدانهم فيستقبلونهم بحفاوة ويحظون لديهم بالاهتمام والاحترام، وليس ذلك تخليدا لأسمائهم فحسب وإنّما لأنّهم الأساس المتين إلى جانب أقرانهم في دفع عجلة النموّ الثّقافي للحواضر، وما ينتج عنه من ازدهار في سائر الميادين الأخرى، فنجد أنّ جُلّ علماء المغرب الأوسط قد التحقوا بمجالس الفكر بالمغرب الأدنى أو المغرب الأقصى أو الأندلس على حدٍّ سواء فصار كلّ واحد منهم يُدلي برأيه بكلّ حرية من ذلك «ارتباط فقهاء المالكيّة في الأندلس والمغرب بعلاقة وثيقة عمادها التّواصل العلميّ، حيث راسل فقهاء الأندلس فقهاء المغرب

[1] - ينظر العلاقات الثّقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزّياني (633-962هـ/1235-1554م)، عبد القادر بوحسّون، ص 117.

[2] - ينظر تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص 329.

ليأخذوا منهم مادّة تغذّي مؤلّفاتهم، ثمّ طلب المشورة الفقهية وتبليغ الأحكام القضائية من خلالها»[1] وهو ما يعكس تلك المشاركة الفعّالة والنّشيطة من لدن المغاربة في نشر المذهب المالكي وتلقينه وإثراء عملية التّأليف حوله، فتكوّنت لديهم علاقات تعاون مكثّف عكست بروز جيل من الفقهاء المتمكّنين، كما عُقِدت أيضا المجالس للمناقشة والمناظرة فانبرى فيها الأدباء والعلماء إلى حلّ المسائل الصّعبة واختبار سعة ثقافتهم بحضور خيرة الشّيوخ وولاة الأمور، فضلاً عن التحاق بعضهم بالمدارس المتنوّعة «فتحلّق حولهم طلبة العلم للاستفادة من علمهم والحصول على الإجازة العلميّة، وكلّما نزل شيخ جديد على الحلقة إلاّ وسارعوا للأخذ عنه والتّدارس معه في المسائل المختلفة في العلوم النّقلية والعقليّة»[2] فيُلقي المدرّس على الحاضرين ما يجود به فكره من معلومات جديدة ومفيدة، كما يقوم بشرح ما وُجد بأمّهات الكتب، فيكون للطّلبة فرصة للسّؤال والمناقشة، وحريّة تّامة في البحث والإطّلاع لينال الأكفاء منهم في الأخير إجازات تؤهّلهم للرّواية أو التّدريس أو الخوض في العلوم التي يتقنها المُجِيز، وفيها أيضا إثبات لمكانة العلماء في هذه الحاضرة أو تلك في المشيخة العلميّة، وإشادة بما أبدعته عقولهم وأناملهم من مصنّفات رائقة أتحفت المكتبات بكثرتها وتنوّع أصنافها، فمن هؤلاء من طاب له المقام بغير حاضرته ومنهم من عاد من حيث أتى ليُسهِم بما استفاد منه في أثناء رحلته في ازدهار الحياة الثقافيّة والفكريّة لمدينته والسّعي لجعلها منارة علميّة مشعّة تستقطب كلَّ من سمع بها.

وفعلا، فقد عرفت كلٌّ من بجاية وتلمسان حركة علميّة نشيطة بفضل ما حقّقه أهلها من حكّام ومحكومين في مختلف ميادين الحياة، ولاسيما في الجانب العلميّ والثقافيّ « فقد صارت

1- ينظر فقهاء المالكيّة دراسة في علاقاتهم العلميّة في الأندلس والمغرب حتّى منتصف القرن السّادس للهجرة / الثّاني عشر للميلاد، علياء هاشم ذنون المشهداني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف د مزاحم علاوي الشّاهري، مجلس كليّة التّربية، جامعة الموصل، 1424هـ/2003م، ص 183.

2- ينظر دور علماء المغرب الأوسط في ازدهار الحركة العلميّة في المغرب الأقصى خلال القرنين 7و8هـ/12و14م، رشيد خالدي، مذكّرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، إشراف د لخضر عبدلي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2011م، ص (78، 79).

بجاية المركز العلميّ الرّئيسي لدولة بني حمّاد ثمّ سائر الدّول المتعاقبة عليها، فانتقل جُلّ علماء القلعة إليها، وقصدها طلاّب العلم والعلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وهذا ما جعلها تزخر بكمٍّ هائل من العلماء على اختلاف تخصّصاتهم»[1] فبعد انتقال عاصمة الحمّاديين من القلعة إلى بجاية فإنّهم سارعوا لاعمارها وجعلها في مصافي المراكز الثقافيّة المزدهرة عبر تراب المغرب الإسلاميّ وهو ما واصله من بعدهم الموحّدون ثمّ بنو حفص، وكذلك الحال بالنّسبة لتلمسان « حيث شهدت هي أيضا ازدهاراً حضارياً في شتّى المجالات بخاصّة في المجال الثّقافي لاحتوائها على العديد من المؤسّسات التّعليمية، وتنافس طلبتها وعلمائها في طلب العلم وإنعاش الحياة الثقافيّة بها»[2] فقد تحوّلت تلمسان ومنذ أقدم العصور إلى قبلة علميّة يقصدها الطلاّب والعلماء من مختلف الأماكن وذلك يرجع بالدّرجة الأولى لِمَا أولاه لها الحكّام من اهتمام ورعاية، إذن فمدينتا بجاية وتلمسان بفضل ما آلتا إليه من رقيّ وازدهار قد صارتا قبلة لاستقطاب العلماء والطّلبة من كلّ مكان وبخاصة من المغرب الأدنى والأقصى، في حين مثّل الأندلسيّون النّسبة الأعلى من الهجرة ولاسيما في عهد بني عبد الواد حاملين معهم ثقافتهم الغنيّة وخبراتهم الحياتية دفعتهم لذلك ظروف صعبة حتّمت عليهم الورود إلى العدوة[3] فوجدوا الجوّ الملائم للمقام بها إلى جانب إخوانهم المغاربة، ومن بين أبرز مظاهر الاهتمام بالمهاجرين الأندلسيّين نورد ما أصدره السّلطان يغمراسن من أوامر لأهل مملكته القاضية « بالعناية بهم وإكرام نُبهائِهم وأعيانهم غاية الإكرام، وتبيان حقّهم في السّكن والتّملّك للأراضي الزّراعية المناسبة لنشاطهم في أرضهم المفقودة بالأندلس، كما فضّل أن يسكنوا بمدينة

---

[1]- ينظر إسهام العلماء الأندلسيّين في الحركة العلميّة ببجاية من خلال كتاب عنوان الدّراية، عبد القادر بوباية، مجلّة عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد 18، 2015م، ص 206.

[2]- ينظر العلاقات الثّقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزيّاني (633-952هـ/ 1235-1254م)، عبد القادر بوحسّون، ص 98.

[3]- تدهورت أوضاع المسلمين في العدوة الأندلسيّة فمنذ سقوط طليطلة تعرّضوا إلى هجمات النّصارى التي أتت فيما بعد على ما بقي بأيديهم من حواضر مثل سرقسطة والمرية وأشبونة وطرطوشة وشنترين، ثمّ قرطبة وبلنسية وإشبيلية وغيرها فبادروا بالجواز إلى العدوة، للتّفصيل أكثر ينظر إسهام العلماء الأندلسيّين في الحركة العلميّة بتلمسان خلال القرن السّابع الهجري (13م)، عبد القادر بوباية، مجلّة عصور الجديدة، العدد 02، ص 162.

تلمسان عن جميع المدن الأخرى»[1] فالملاحظ أنّ يغمراسن بهذه الأفعال أراد أن يشعر المهاجرون بالأمن والاستقرار في موطنهم الجديد، فتهدأ نفوسهم ممّا أصابهم ويطمئنّوا على ما سيجري بالمستقبل، فكان هذا الأمر بمثابة تشجيع كبير لسائر الأندلسيّين الذين تقاطروا على تلمسان وبجاية وغيرها من مدن المغرب الإسلاميّ؛ حيث تنوّعت توجّهاتهم فمنهم العلماء والأدباء والفقهاء الذين جلبوا معهم مصنّفاتهم وذخائرهم النّفيسة، ومنهم الأطبّاء وأصحاب الصّناعات، فضلا عن المهندسين والفلاّحين الذين اندمجوا ضمن المجتمع الجديد فوظّفوا جهودهم وخبراتهم لصالحه وبخاصة ما تعلّق بحبّ العلم والسّعي في طلبه في مختلف الأشكال، وهو ما أثرى الحياة العلميّة بالمغرب الأوسط وجعله قبلة للعلماء بحقّ.

لقد كان للعامل البشريّ دور هامّ في الإسهام العلميّ بعدوة المغرب والأندلس، والعامل الأساس في تمتين العلاقات الثقافيّة بين الحواضر التي امتازت في كلّ مرحلة من مراحلها بالتّفاعل والتّلاقح الحضاريّين، فمن بين أبرز علماء مدينتي بجاية وتلمسان الذين بادروا بالارتحال بين حواضر المغرب والأندلس نورد العالم الجليل أبو عبد الله محمد بن علي بن حمّاد بن عيسى بن أبي بكر الصّنهاجي « من أهل قلعة بني حمّاد قرأ ببجاية فأخذ عن علمائها، وهو أديب برع في النّظم والنّثر متقنٌ لكثير من العلوم، كما انتقل إلى مراكش، واستقضى بالجزيرة الخضراء وبسلا وبأزمّور، ومرسية وقد دخل الأندلس فروى عن شيوخها وأجازوه»[2] فهذا العالِم لم تُطِقْ نفسه البقاء ببجاية بالرّغم من سعة علمه، بل انطلق سعيا لاكتساب المزيد فرحل إلى بعض مدن المغرب الأقصى والأندلس وأخذ عن علمائها فخلّف مصنّفات كثيرة ومتنوّعة، فضلاً عن النّحوي البارع يحي بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي «الذي كان أحد أئمّة عصره في النّحو واللّغة، وقد رحل إلى المشرق

1- سير أعلام تلمسان، عبد الحق حمّيش، ص (126، 127) .

2- ينظر الإسهام العلمي للبربر في الأندلس على عهد الموحّدين (ق6-7هـ/12-13م)، الحبيب حاكمي، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د عبد القادر بوباية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2010م، ص 131/ نقلا عن الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر الثّامن، ص (323، 324).

حيث موطن إنتاجه العلميّ فألّف أشهر المنظومات النّحوية الدّرة الألفيّة في علم العربيّة؛ وعُدّ الرّائد الحقيقيّ لهذا النّوع من المنظومات التي تأثّر بها كثير من العلماء وعلى رأسهم ابن مالك النّحوي الأندلسي، حيث نسج ألفيته على منوالها»[1] فابن المعطي وإن لم يرتحل إلى مدن المغرب والأندلس إلاّ أنّ صيته قد ذاع إلى مختلف الأصقاع بفضل ما أنتجه من مصنّفات رائقة ولاسيما الدرّة الألفيّة التي نالت شهرة كبيرة شرقاً وغرباً فما كان من ابن مالك الأندلسي إلاّ أن نظم ألفيّته على نسجها وفي ذلك اعتراف لعلماء بجاية بغِنَى الإسهام العلميّ في حوض البحر المتوسّط، هذا إلى جانب شيخنا الفاضل أحمد بن أحمد بن عبد الله أبي العبّاس الغبريني «صاحب كتاب عنوان الدّراية من كبار فقهاء المالكية ببجاية، أخذ العلم ببجاية ثمّ بتونس فبلغ عدد الشّيوخ الذين سمع منهم وأخذ عنهم نحو السّبعين شيخاً من أعلام المغرب الأوسط وإفريقيّة والأندلس، وليّ قضاء بجاية، وسفر للسّلطان أبي البقاء خالد بن يحي الحفصي»[2] فقد دفع الغبريني سعيه للعلم أن قصد مدن العدوة والأندلس للاستزادة والمشاركة النّبيلة في الحركة العلميّة من مصادر مختلفة آخرها سفارته للسّلطان أبي البقاء بتونس وحسن آدائه لمهمّته، فضلا عن تأريخه لعدّة علماء قصدوا بجاية وبخاصّة الأندلسيّين منهم وتبيان أعمالهم الجليلة محفوظة في مصنّفه الفريد لتستفيد منه الأجيال إلى يومنا هذا.

وكما هو شأن بجاية؛ فإنّ لعلماء تلمسان نصيباً في إثراء الحركة العلميّة بالمغرب الإسلامي ككلٍّ، حيث حرص أبناؤها على التّجوال بين المدن من أجل التعلّم والتّعليم مثلما حصل مع «هجرة أخوين تلمسانيّين عالمين ضريرين نزلا سبتة وأقرآ بها، وعاشا فيها ردحاً من الزّمن وقد أقبر بها أحدهما، بينما كُتب للآخر أن يُتوفى بالأندلس، وفي أحوال هذين الأخوين غرائب ونوادر تُثير العجب والإعجاب؛ وهما علي بن محمد الخضّار وأخوه محمد بن محمد بن الخضّار»[3] فهذان العالِمان قصدا

---

[1]- الدرّة الألفيّة ألفيّة ابن معطي في النّحو والصّرف والخط والكتابة، يحي بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي المغربي، ضبط وتقديم سليمان إبراهيم البلكيمي، ص 11، وينظر إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدّرس النّحوي، جميلة راجاح، أطروحة دكتوراه، إشراف د صالح بلعيد، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة مولود معمري تيزي وزّو، 2015م، ص 250.

[2]- معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص (248، 249).

[3]- ينظر تلمسانيّان في سبتة، رشيد العفاقي، مجلّة عصور الجديدة، العدد 02، ص (48، 49).

سبتة لصداها العلمي رغبة في الاستزادة من العلم، وبالرّغم من فقدانهما نعمة البصر؛ فإنّ الله قد أنعم عليهما بالبصيرة النيّرة فأنجزا ما لم يُنجزه الإنسان السّليم بجلوسهما للإقراء والتّحديث وتخريج عدد من الأجيال، بالإضافة إلى عالِم آخر وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن الدّراج التّلمساني « وهو قاض من أعيان فقهاء المالكيّة نشأ بسبتة فكفله أميرها وأعانه على طلب العلم ثمّ انتقل إلى فاس فأتمّ دراسته على أعلام مشيختها، ثمّ درّس وتولّى قضاءها، ومن آثاره شرح الجمل سمّاه جمع الأمل لِمُتأمّل الجمل، والإمتاع والانتفاع وغيرها»[1] فهو يعدّ واحداً من أفراد أسرة بني الدرّاج التي عُرِفت بخدمتها للعلم ومن أبرز فقهاء تلمسان آنذاك، وقد أسهم بفضل سعة درايته وتنوّع مصنّفاته في إثراء الحركة العلميّة والثقافيّة بسبتة وسلا والمغرب الأقصى عامّة.

وبقدر ما أسهم علماء بجاية وتلمسان في ازدهار ثقافة مدن المغرب والأندلس فإنّهم أيضا قد استفادوا من خبرات سائر العلماء بمختلف الحواضر ولاسيما الأندلسيّين من أمثال أبي محمد عبد الحق بن عبد الرّحمن الأزدي الإشبيلي «حيث أرست سفينته ببجاية ولم تُقلِع، فاستوطن هذه المدينة، وتفرّغ لنشر العلم معتكفاً على التّدريس بطريقة السّلف الصّالح، فاستطاع أن يأخذ عن كبار العلماء الذين كانوا يمرّون ببحاية، وأن يُفيدهم، وله تآليف قيّمة منها العاقبة والحاوي والأحكام الكبرى والصّغرى وغيرها»[2] فقد نعم هذا العالِم بالاستقرار ببجاية فتخيّرها وطناً وسخّر كلَّ ما أخذه عن مشيخته بالأندلس لخدمة الدّين والعلم، وما تنوّعُ مؤلّفاته إلاّ دليل قاطع على سعة تحصيليه وعبقريّته الفذّة إلى جانب أقرانه من العلماء المجتمعين ببجاية آنذاك، هذا إلى جانب عالِم آخر من أهل مرسية وهو أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطّاب الغافقي «نزل تلمسان -إثر فتنة وقعت بمرسية- فجعله سلطانها يغمراسن كاتبا له، وقد كان كاتباً بارعاً، وشاعراً مجيداً له مشاركة

[1]- معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 75، والذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السِّفر الثّامن، ص 522.

[2]- ينظر الرّوابط الثقافيّة بين الجزائر والخارج، محمد الطمّار، ص(168، 169) وعبد الحق الإشبيلي البحائي محدّث القرن السّادس الهجري، رابح بونار، مجلّة الأصالة، العدد19، مج07، ص (260 إلى 263).

في أصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك، مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقّل وحسن سمت»[1] فهذا العالِم كان قد استُعمِل في الكتابة السّلطانية مدّة من الزّمن بغرناطة فأبدع، وهو ما أهّله لتوليّ الكتابة بديوان السّلطان يغمراسن بتلمسان حيث شارك في تسيير دفّة الحكم من خلال مهمّته، كما أفاد المدينة رفقة سائر المهاجرين بالثّقافة الأندلسيّة والمواهب النيّرة في العلوم والآداب والفنون.

فالمتأمّل لواقع الحركة الثقافية بالمغرب الإسلامي والأندلس وطبيعة ازدهارها سيصادف حتماً اسم بجاية أو تلمسان يتكرّر عبر التّاريخ، وذلك نظرا لإسهاماتهما القيّمة في بناء صرح الحضارة إلاّ أنّه لا مجال للقول بأنّ مشاركتهما كانت الأفضل؛ بل نجد أنّ هناك تفاعلاً كبيراً قد حصل بين المدينتين وعلمائهما نتج عنه تأثّرهما بثقافات الغير وتأثيرهما فيها، لتزداد حدّة هذا التّأثير حسب طبيعة المكان وسعة ثقافة علمائه، يؤازره في ذلك حسن التّلاقح بين المحليّ والوافد « فبجاية حملت مشعل النّور لمدّة أربعة قرون، وأصبحت موئل حركة علميّة ونهضة فكريّة يقوم بها أفذاذ من العلماء والأدباء والكتّاب، ومدارسها تُخرِّج أعظم الكفاءات لشغل أسمى المناصب العلميّة والإداريّة، ولم يزل مشعل نورها يُضيء الآفاق إلى أن سقطت في يد أعداء العلم والحضارة»[2] فكلّ العوامل الملائمة لتطوّر الحركة الثقافيّة قد اجتمعت في بجاية آنذاك فمكّنتها بفضل ما تجود به من أعلام من وضع بصمتها في الحضارة وتلقين ما اكتنزته من خبرات لسائر مدن المغرب والأندلس، والأكيد أنّ حاضرة تلمسان هي أيضا لم تشذّ عن هذه القاعدة «فإسهامها في نشر الحضارة الإسلاميّة عظيم وواسع بحيث يعجز المرء عن استيعابه، والإحاطة به من قبيل المحال، فقد كانت في مختلف العصور مركز إشعاع للحضارة ولذويها الذين كانوا مثال التّضحية في سبيل نشر العلم بالسّيف والقلم، والتّثقيف

---

[1]- إسهام العلماء الأندلسيّين في الحركة العلميّة بتلمسان خلال القرن السّابع الهجري (13م) عبد القادر بوباية، مجلة عصور الجديدة، العدد 02، ص (163، 164)، والإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنّان، مج2، ص (426، 427).

[2]- ينظر عباقرة من رجالنا تزهى بهم عواصمنا الصّنهاجية، أحمد حمّاني، مجلة الأصالة، العدد 19، مج 07، ص (248، 249).

والبحث»[1] فلتلمسان مشاركة قيّمة في تاريخ الحضارة والفكر الإسلاميّين وما تنشطها للعلم وأهله إلاّ محاولة دائبة للمحافظة على رصيد الأمّة الإسلاميّة في جناحها المغربي، وإضفاء لمسة خاصّة جعلها تضاهي سائر المراكز الحضارية الكبرى .

ومجمل القول إنّ إسهام بجاية وتلمسان في الازدهار الثّقافي لمدن المغرب والأندلس بيّنٌ ولا يُنكِره إلاّ جاحد أو جاهل، فقد قدّمتا بفضل علمائهما خدمات جليلة مسّت شتّى أصناف العلوم والمعرفة وبخاصّة ما تعلّق بوضع المصنّفات الرّائقة وتلقين المعارف للأجيال، فكانوا خير سفراء يعملون على تمتين الصّلات بين تلك الأقطار.

ثالثا: نماذج تطبيقيّة

بلغت عناية العلماء المغاربة بالأدب وفنونه درجة كثيرة من الاهتمام، إيماناً منهم بقدرته على معايشة الظّروف المختلفة ورصدها، ثمّ التّعبير عنها بكلّ دقّة ومصداقيّة؛ ومن هنا تتّضح لنا تلك المشاركة القيّمة لأدباء مدينتي بجاية وتلمسان بنصيب هائل من النّصوص النّثرية والشّعرية في سبيل دفع ازدهار الحركة الثقافيّة والفكريّة بالمغرب الإسلاميّ ككلّ، فقد جادت قرائحهم وأقلامهم بانتاجات أدبيّة رائقة في شتّى الفنون والأغراض منها ما هو تقليديّ، ومنها ما اتّسم بصبغة جديدة وخاصّة، حيث لازالت هذه الأعمال المتميّزة تدرّس إلى اليوم في أرقى المدارس والجامعات، وتشهد لعلماء الحاضرتين بالإجادة في فنّي المنظوم والمنثور.

أ-الفنون النّثرية:

وهي شكل من الأشكال الفنيّة التي اتّخذها الأدباء حكّاماً ورعيّةً للتّعبير عن قضاياهم الحياتيّة المتنوّعة، في قالب أدبيّ متميّز يعبّر في كلِّ جوانبه عن رُقِيّ حواضر المغرب الأوسط الفكريّ والحضاري، ويكشف درجة الوعي والنّضج الأدبيّ الذي آلت إليه منذ عهد الحمّاديّين والمرابطين، وصولاً إلى عهد الموحّدين ومَنْ تلاهم، تآزره في ذلك عدّة عوامل أدّت لاتّساع الرّقعة الجغرافيّة

---

[1]- ينظر حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، سليمان داود بن يوسف، ص105.

وانفتاح العلماء والأدباء على أمم أخرى؛ بما تحمله معها من علوم وآداب وفنون فأفادوها واستفادوا منها وهو ما خلق نوعاً من المنافسة حول استحداث أساليب جديدة، حيث تراوحت هذه الفنون النّثريّة المنتشرة بحواضر المغرب الأوسط بين الرّسائل والخطب وفنّ التّوقيعات وكذا الوصايا والمناظرات وغيرها من الفنون المعروفة إلى يوم النّاس هذا.

-الرّسائل:

تربّعت الرّسالة على عرش الأجناس المختلفة للخطاب النّثري بفضل ما تنطوي عليه من أهمّيّة بالغة في شتّى ميادين الحياة « فهي لون من ألوان النّثر الفنّي الجميل، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالاً، يُقصد بها الرّسالة النّثريّة الفنيّة أو القطعة النثريّة التي يدبّجها الكاتب في نسق فنّي جميل، في غرض من الأغراض ويبعث بها الشّخص إلى شخص آخر»[1] فالرّسالة قطعة نثريّة قد تطول أو تقصر، يصوغها كاتبها بأسلوب بليغ هادفاً من خلالها لتصوير جوانب متنوّعة من الواقع المعاش، كما تُكتب على حسب الحاجة إليها وهو ما يجعلها تتفرّع إلى أنواع عديدة[2] توظّفها مختلف المجتمعات لتسيير أمورها السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، فعلى غرار سائر الدّول والحواضر فقد عرفت كلٌّ من بجاية وتلمسان هذا النّوع من النّثر وقد نبغ فيه أدباء وكتّاب مبرزون شأن أبي عبد الله محمد الكاتب المعروف بابن دفرير أحد الكتّاب المتصرّفين في الكتابة السّلطانية بالدّولة الحمّادية ببجاية، وقد أوردت له المصادر رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمّادي يقول فيها «كتابنا ونحن

---

[1]- ينظر أدب الرّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز عبد النّبي القيسي، دار البشير للنّشر والتّوزيع، عمّان الأردن، ط1، 1989م، ص 83.

[2]- للرّسائل أنواع عديدة إلاّ أن بعض النقّاد قسّموها إلى قسمين كبيرين أحدهما خاصّ والآخر رسميّ، فالقسم الخاصّ يشمل الرّسائل الإخوانيّة التي تدور بين الإخوان والأصدقاء، والرسائل الأدبيّة المصوّرة لحال المجتمع بما فيها من حلول لإصلاحه، أمّا القسم الرّسمي فيحتوي على الرّسائل الديوانيّة أو السّلطانيّة التي تصدر عن الحكّام والسّلاطين أو عن دواوين إنشائهم فتُعنى بشؤون الدّولة وتثبيت نظامها العام، كما تشمل العهود والمنشورات والمبايعات لولاة الأقاليم، للتّفصيل ينظر الأشكال النثريّة في الأدب المغربي القديم العهد الموحدي نموذجاً، حكيمة إملولي، مذكّرة ماجستير في الأدب المغربي القديم، إشراف د علي عالية، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009م، ص (78، 79، 80).

نحمد الله على ما شاء وسرّ، رضاً بالقسم وتسليماً للقدر وتعويلاً على جزائه الذي يجزي به من شكر، ونصلّي على النّبي محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر، وبعد: فإنّه لـمّا أراد الله أن يقع ما وقع، لقبّح آثار من خان[1] في دولتنا وضبع[2]، استفزّ أهل موالاتنا الشنآن[3] وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران...وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النّجدة»[4] فقد فرّ السّلطان يحيى بن العزيز أمام جيوش الموحّدين باعثاً رسالة يستنجد فيها ببعض أمراء العرب معترفاً بانهزامه ومعتذراً عن خيانة وزيره للثّقة الممنوحة له، فجاء أسلوب الرّسالة بليغاً انتقى الكاتب ألفاظها بدقّة، ونسّق بين أفكارها لتصير واضحة المعنى معبّرة عن هول الفاجعة، محلاّة بحسن التّشبيه والألفاظ المسجوعة وهو ما جعلها واضحة سهلة الفهم على المتلقّي.

وبما أنّ دولة الموحّدين الفتيّة قامت على أنقاض المرابطين، وسارعت لتوحيد المغرب كلّه والأندلس فقد كان لزاماً عليها إنشاء دواوين للكتابة الرّسمية يُديرها كتّاب بارعون تبعاً للحالة السياسيّة للدّولة وعلاقاتها الدّاخليّة والخارجية، فكانت رسائل المهدي بن تومرت من أوائل الرّسائل المبعوثة إلى مختلف الأقاليم؛ يدعوا فيها النّاس ولاسيما المرابطين لإصلاح المجتمع والرّجوع إلى تعاليم الدّين الحنيف، ليتّبع عبد المؤمن بن علي سبيل أستاذه ثمّ بَنُوهُ من بعده، فقرّب المهرة من الأدباء لحضرته ونالوا المكانة الرّفيعة لكتاباتهم الرائقة، ومن بين هؤلاء الكاتب أبو الفضل بن محشرة البجائي الذي أورد رسائل كثيرة لحكّام الموحّدين من بينها تلك الرّسالة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة إشبيلية يخبرهم بغزوة الموحّدين على علي بن غانية وفتح مدينة بجاية فيقول في بعضها: « ولمّا عَنَتْ للفاسق الفرصة، اغتنم بزعمه انتهازها، ولَـمّا مكّنته الغرّة حاول برأيه البائس

---

[1]- المتّهم بالخيانة هو ميمون بن حمدون وزير يحيى بن العزيز.

[2]- ضبع: جار وظلم.

[3]- الشنآن: البغض.

[4]- ينظر الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمد أبو رزّاق، ص181، وخريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدّار التونسيّة للنّشر، تونس، ط3، 1986م، ج1، ص 180.

اقتناصها واحتيازها، وتطلّب من أمانيه الكاذبة، وأراحيه الخائبة تأتّيها وانتجازها ... وكنّا - وفّقكم الله ويسّركم لِمَا يرضاه- عندما أُنهي إلينا أمره وتقرّر لدينا خدعتُه ببجاية وغدره، نظرنا في إغاثة المسلمين الذي تحكّم فيهم جوره واستطال عليهم قهره وقسره»[1] فهذا مثال يسير عن تلك الرّسائل التي أبدع في كتابتها ابن محشرة وهي تمثّل الرّسالة التّاسعة والعشرين من مجموع الرّسائل الموحّديّة التي كتبها العديد من الأدباء في ديوان الحكم، وقد قام بجمعها (لافي بروفانصال) في مجموع رسائل وصلت إلى سبع وثلاثين رسالة متبادلة بين الخلفاء، وسائر الولاة والقادة والحكّام، فاتّسمت بطابع خاصّ وألفاظ مخصوصة فظهر التمسّك بالعقيدة واضحاً في كلّ جزء من أجزائها باعتباره نظام عيش وسياسة رعيّة.

وفي ميدان الرّسائل الإخوانيّة نجد أنّ هناك مراسلات عدّة جرت بين مختلف شرائح المجتمع كالإخوة والأصدقاء من العلماء والأدباء وحتى الخلفاء، يعبّر كاتبها في ثناياها عن أغراض كثيرة تشمل شتّى مناحي الحياة، حيث تكمن فائدتها في تمتين أواصل المحبّة والأخوّة بين الأشخاص وكذا البلدان، فضلاً عن تغذية الجانب الثّقافي والمستوى الأدبيّ بما تحتويه من براعة في الصّياغة، ومن نماذج الرّسائل الإخوانيّة تلك الرّسالة التي بعث بها سيّدنا أبي مدين شعيب إلى تلميذه أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر رداً على رسالته فيقول فيها: «أمّا بعد فإنّه من اتّقى الله سبحانه وقاه، ومن توكّل عليه حقّ التوكّل كفاه، ومن استعاذ به نجّاه، ومن شكره والاه، ومن أقرضه جازاه، واجعل التّقوى عماد قلبك وجلاء بصرك، فإنّه لا عمل لمن لا نيّة له ولا أجر لِمَن لا خشية له»[2] حيث اشتملت هذه الرّسالة على عديد الأغراض من شوق ونصح وعتاب من لَدُنِ الشّيخ لتلميذه

---

[1]- مجموع رسائل موحديّة من إنشاء كتّاب الدّولة المؤمنيّة، اعتنى بإصدارها لافي بروفانصال، المطبعة الاقتصادية برباط الفتح، الرباط، دط، 1941م، ص (172، 173).

[2]- الحياة العقليّة في بجاية، عمّار طالبي، مجلّة الأصالة، العدد 19، مج07، ص 165 /نقلاً عن أنس الفقير وعزّ الحقير، لأبي العبّاس أحمد الخطيب الشّهير بابن قنفذ القسنطيني، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعة أكدال، الرباط، دط، 1965م، ص 99.

الذي أطال الفراق عنه، فجاءت رسالته مشحونة بعواطف المحبّة بينهما بأسلوب نثريّ مسجوع واضح الألفاظ والمعاني وبعيد عن التكلّف والتّعقيد.

والمتأمّل في هذا النّوع من الرّسائل يلحظ حتماً أنّها غالبا ما ترد في حلّة أبهى بعدما يضمّنها كاتبها بالأبيات الشّعريّة رفقة رسالته النثريّة لتأكيد المعاني ودغدغة المشاعر، فأسلوب النّثر يعدّ الأقدر على الشّرح والإقناع في حال أنّ الشّعر يُضفي متانة التّركيب وحُسن السّبك على الرّسالة فيتجانس اللّفظ والمعنى، حيث لم يحظ بهذه السّمة المبدعة إلاّ الكتّاب المبرزون حال الكاتب أبي المطرّف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي نزيل بجاية الذي تفنّن في رسالة تهنئة بعث بها إلى صديقه أبي عبد الله محمد بن الأبّار يقول في مقطع منها:

عَلَى قَدْرِ حُبِّي قَدْ أَتَتْـكَ بِشَـارَتِي   وَحَسْبُــكَ مَـا أَجْمَلْتهُ مِنْ إِشَـارَتِي

هَنِيئاً هَنِيئاً قَدْ رَفَلـتَ مِنَ المُـنَى   بِأَفْـخَرِ مَـلْبُوسٍ وَأَجْمَــلِ شَـارَةِ

أنعمت الخلافة العليا المنصورة أيّد الله أوامرها، وأخلد مفاخرها بقدومكم على حضرتها السعيدة المباركة... فاعزموا بحول الله على الحركة، وبادِروا إليها على الخيرة والبركة، فقد تعيّن لكم الزّاد الكريم، واستقبلكم من خير النّظر ما به يبرأ السّقيم، ويسعد الظّاعن والمقيم[1] فهو في هذه الرّسالة يُبَشّر صديقه ابن الأبّار باستدعاء المستنصر بالله له لمنصب الكتابة لديه ويهنّئه بذلك، فزاوج بين النّثر والشّعر في كلامه ما يُظهر تفوّقه في هذين الفنّين ولاسيما في الكتابة بين أقرانه وأدباء عصره، كما نجده في رسالة أخرى من نوع الرّسائل الأدبيّة قد راسل ابن الأبّار واصفاً له ما حلّ بالجزيرة من دمار، ومتوجّها بالرّثاء لتلك المدن المتهاوية على يد النّصارى، حيث قدّم لها بمقطوعة شعريّة قبل أن ينتقل للغرض من الكتابة فيقول: «...قصّت الأجنحة وقيل طيروا وإنّما هو القتل أو الأسر أو تسيروا...داء خامر بلادنا حين أتاها، ومازال بها حتّى سجّى على موتاها، وشجا ليومها الأطول

---

[1]- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، ج1وج2، ص (357، 358)/نقلاً عن عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 299.

كهلها وفتاها...وبعد ذلك أخذ من الأمّ بالمخنّق، وهي بلنسية ذات الحسن والبهجة والرّونق، وما لبث أن أخرس من مسجدها الأذان، وأخرج من جسدها روح الإيمان، فبَرِحَ الخفاء، وقيل: "على آثار من ذهب العفاء"...فأين تلك الخمائل ونضرتها، والجداول وخضرتها، والأندية وأرَجُها»[1] ويبدو أنّ أبا المطرّف في هذه الرّسالة الطّويلة قد مهّد كلامه عن أهوال الدّمار بالتّحية الأخويّة لابن الأبّار، وذكر منزلته الأدبية ومدى شوقه للقائه، ليعمد لوصف ما حلّ بالجزيرة من بلاء العدوّ وبخاصّة مدينة بلنسية التي حاول طمس كلّ معالم الحضارة الإسلاميّة بها وكلّ ما يمتّ للإسلام بِصِلَةٍ؛ فلم يسلم من شرّه لا الإنسان ولا الحيوان ولا الجماد، فبرع الكاتب حقاً في تصوير هذه الفاجعة بالأسلوب النّثري الممزوج بالأشعار المنظومة بدقّة ما يجعل القارئ لإنتاجه الأدبيّ يتخيّل الأحداث فيستشعرها وكأنّه قد شهدها ولم يسمع عنها فقط.

وقد حفلت رسائل معظم الكتّاب بتضمينها موضوعات دينيّة ذات لمسة إيمانيّة تعبّر في مجملها عن تمسّكهم على غرار كلّ المغاربة بالشّريعة الإسلاميّة، وهو ما جسّدوه في رسائلهم الدينيّة[2] فبدا جلياً أكثر من خلال تشوّقهم لزيارة البقاع المقدّسة والوقوف عند قبر نبيّ الرّحمة (صلّى الله عليه وسلّم) مثلما فعل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الجنان الذي كتب رسالة إلى سيّدنا محمد (عليه الصّلاة والسّلام) يقول فيها:« السّلام عليك يا محمد، السّلام عليك يا أحمد، السّلام عليك يا أبا القاسم، سلام على من يمدّ إليك يد الغريق ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق، ويتقطّع أسفاً ويتنفّس صُعُداً كلّما ازدلف إليك فريق وعمرت نحوك طريق،

---

[1]- الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج، محمد الطمّار، ص190/ نقلا عن نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرّي التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، ج4، ص (491، 492، 493).

[2]- اتخذت الرّسائل الدّينية عدّة أشكال فتراوحت بين رسائل التّحميدات والتّسبيحات تلك التي تعظّم الذّات الإلهية وتنزّهها فتبرز جوانب كثيرة من قدرة الله، ورسائل الشّوق والوجد الدّيني لزيارة الأماكن المقدّسة وبخاصّة هؤلاء الكتّاب الذين لم تسعفهم الظّروف للوصول لقبر خير الأنام، فنجدهم يبعثون له رسائل الشّوق والمدح والرّجاء، كما نجد رسائل الزّهد والوعظ التي تدعو للتفكّر وسلوك طريق الرّشاد والتمسّك بأهداب الدّين والابتعاد عن مناهيه، للتّفصيل أكثر ينظر أدب الرّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز عبد النّبي القيسي، ص (193 إلى 198).

ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجفّ ريق»[1] فقد أثار الشّوق لزيارة الحرم وقبر الرّسول الحبيب عواطف ابن الجنان الذي لم يستطع الوصول إلى الرّوضة الشّريفة، فراح يُبدع في كتابة رسالته إلى النّبيّ يبلّغه فيها سلامه ويتحسّر لتعذّر انضمامه لتلك الجموع التي شدّت الرّحال نحو قبره، وكان ذلك لها شرفاً، فاعتمد الكاتب أسلوباً سهلاً وألفاظاً مألوفة ومعبّرة عمّا يختلج نفسه من مشاعر تزيّنها بعض العبارات المسجوعة فأضفت عليها رونقاً لفظياً جميلاً.

- التّوقيعات:

ترتبط التّوقيعات ارتباطا وثيقاً بالكتابة فهي فنّ أدبيّ متميّز من جملة فنون النّثر العربي تأتي على شكل « عبارات فصيحة بليغة ترتبط بالواقع المعيش، ولها من المكانة بين فنون الأدب حقّ التفرّد والامتياز، وهذا راجع إلى أصالتها، واعتمادها على الإيجاز الذي هو أساس البلاغة العربيّة»[2] فقد قصد الموقّعون من أمراء وحكّام من وراءها الردّ على سائر الرّسائل والشّكاوى التي ترد إليهم بألفاظ تعتمد على الفصاحة والبلاغة فتؤدّي المعنى الصّحيح بشكل مختصر وموجز بعيد عن التّعقيد والحشو، ونظراً لأهميّة هذا الفنّ في حسن تسيير شؤون الدّول والحكومات فقد عرفته الكثير منها، واستعمله حكّامها وعلى رأسهم الموحّدون الذين عملوا على توسيع رقعة دولتهم وتوحيد العديد من الدّول ضمن سياستهم؛ فكانت التّوقيعات وسيلة فعّالة في إيصال فحوى أوامرهم بأسلوب منمّق بليغ ودون زيادة أو نقصان.

ومن أمثلة التّوقيعات ما أورده السّيد أبو الرّبيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الذي كان والياً على ولاية تلمسان، بشأن عامل من عمّاله فيقول:« قد كثُرت فيك الأقوال، وإغضائي عنك رجاء أن تتقيّظ فتصلح الحال، وفي مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شرّ الاختيار

[1]- الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج، محمد الطمّار، ص204.

[2]- النّثر الفنيّ في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبه، ص(182، 183).

وعدم الاختبار، فاحذر فإنّك على شفا جرف هار»[1] فجاء هذا التّوقيع ملائماً للقضيّة التي وقع فيها مرتبطاً بمحاولة ابن الرّبيع توجيه عمّاله للسّياسة الحسنة تّجاه الأقاليم والرعيّة؛ بعدما وصلته بعض الشكاوى بشأن أحد العمّال فما كان منه إلاّ أن نبّهه في توقيعه هذا حتّى يعود إلى طريق الاستقامة، وغالبا ما تأتي هذه التّوقيعات متضمّنة لبعض الآيات من القرآن الكريم مثلما هو حال يعقوب المنصور حينما« طلب يوماً من قاضيه أن يختار له رجُلين لتعليم ولده، فعرّفه برجُلين قال في أحدهما: وهو بحر في علمه، وقال في الآخر:وهو برّ في دينه، ولمّا أحضرهما المنصور واختبرهما قصّرا بين يديه، وأكذبا الدّعوى، فوقّع على رقعة القاضي قوله تعالى:M Đ Ñ Ò Ó Ô L [2]»[3]

ويبدو أنّ الأمير يعقوب قد أبان عن رأيه في هذين الرّجلين بعد اختبارهما بآية من القرآن كفَت ما يُقال عنهما في توقيع أكبر، وهذا ما يدلّ على سعة علمه وثقافته الدينيّة، إضافة إلى أنّه قد وظّف القرآن والشّعر معاً في توقيع آخر إلى ملك الفرنجة الذي كان يتوعّده ويهدّده؛ فما كان من الأمير إلاّ أن مزّق الكتاب الذي وصله وكتب على ظهر قطعة منه قوله تعالى:M 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > L [4] ثم كتب:الجواب ما ترى لا ما تسمع، وأنشد متمثّلا:

وَلَا كُتْــبَ إِلاَّ الـمَــشْــرَفِيَّــةُ وَالقَــنَا وَلاَ رُسُــلَ إِلاَّ الخَــمِيسُ العَــرَمْــرَمُ[5]

---

[1]- باقة السّوسان في التّعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان، محمد بن رمضان شاوش، ص467، وإرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1 وج2، ص 270.

[2]- سورة الرّوم، الآية 41.

[3]- ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنوني، ص (203، 204)، ونفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقري التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، ج3، ص 104.

[4]- سورة النّمل، الآية 37.

[5]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج2، ص 420.

فالمتتبّع لجملة هذه التّوقيعات ستتبيّن له تلك القدرة الفائقة من لَدُنِ حكّام الموحّدين في الجمع بين الحنكة السياسيّة والثّقافة الواسعة والتأثّر بالدّين[1] فكانت الألفاظ بليغة موجزة ذات معانٍ واسعة تجعل المتلقّي يتمعّن في التّفكير حول دلالاتها العميقة.

-الخطب:

تعدّ الخطابة من الفنون الأدبيّة الأصيلة التي رافقت المجتمعات عبر العصور، فاتّخذتها أداة لإيصال أفكارها ونشر قوانينها وعقائدها، فكانت مكانة الخطيب لا تقلّ أهميّة عن مكانة الشّاعر بين قومه، بل أصبحت الخطابة «سلاحاً حاداً يبري العربي من أشجار تأثيرها نبالاً يرمي بها من يشاء وما يشاء، وعلى الرّغم من أنّها لم تكن لتطمع في نيل الحظوة التي استأثر بها الشّعر، فإنّها كانت صالحة لمواقف معيّنة كالخطبة، أو التّعظيم، أو التّزهيد، أو الافتخار، وقد اشتهر من الخطباء كثيرون حتّى أفرد للخطابة بعض الدّارسين مؤلّفات خاصّة»[2] فبقدر ما اهتمّ الأوائل بالشّعر والشّعراء فإنّهم لم يُهملوا الخوض في فنّ الخطابة، فنجدهم قد تناولوها في عديد المناسبات الدينيّة والاجتماعية والسياسيّة والفكريّة فَعلاَ شأنها وارتفع ونبغ فيها خطباء بلغاء ذاع صيتهم في كلّ حدب وصوب.

أمّا عن المحيط المغربي بحواضره العلميّة المزدهرة فإنّه هو أيضا عَرف بروز هذا الفنّ النّثري عبر العهود المتعاقبة على دُوَلِه، وحاجتها الملحّة للخطابة بغية تسيير شؤونها المختلفة ولاسيما ما تعلّق بموضوعي الدّين وسياسة الدّولة الدّاخلية والخارجية، فكرّست من خلالها «الدّعوة إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والتقيّد بالفرائض والحدود والاحتكام إلى الشّرع، والتأمّل والتفكّر والعلم والعمل، إضافة إلى محاربة الظّلم والاستبداد، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة»[3] فارتباط الخطابة بشؤون الدّول

---

[1]- تضاربت المصادر والمراجع حول مصدر هذا التّوقيع؛ فمنها من أرّخت نسبته ليعقوب المنصور الموحّدي، في حين انصرفت أخرى لنسبته إلى يوسف بن تاشفين المرابطي إلاّ أنّ أغلبها رجّحت الكفّة للخليفة الموحّدي، للتّفصيل أكثر ينظر الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة، لذي الوزارتين محمد لسان الدّين بن الخطيب، ص27، والنّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج2، ص 420.

[2]- قراءة جديدة للنّثر العربي القديم، محمد مرتاض، ص23.

[3]- ينظر النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبه، ص167.

والحكومات أمر لابدّ منه لقدرة الخطيب على عرض مشكلات مجتمعه واتّخاذ الحلول النّاجعة لها ما يضمن صلاح الحاكم والرعيّة وفق الدّين الإسلامي الذي هو دستور المسلمين في حياتهم الدّينيّة والدنيويّة، وقد أوضحت جلّ الخطب التزام هؤلاء المغاربة بالدّين الإسلامي، حيث اتّخذوا من المساجد والمجالس وحلقات العلم منابر تصدح فيها حناجر الخطباء الدّاعية إلى ترك ملذّات الدّنيا والإقبال على العمل لضمان الآخرة، من ذلك ما خطب به أبو مدين شعيب مبيّنا سعة رحمة الله تعالى فيقول: «عباد الله ! لئن كانت ذنوبنا كثيرة ومساوينا خطيرة، وسيّئاتنا أربت عن الحصى وموبقاتنا جلّت عن العدّ والإحصاء، ولئن قلّت في الصّالحات أعمالنا وطالت في الخبائث آمالنا، واتّبعنا هوانا ظهرت منّا القبائح وملك حبّ الدّنيا منّا القلوب والجوارح...فرحمة ربّي تَسَعُ الجميع وفضل مولانا وافر يعمّ العاصي من خلقه والمطيع، فليس جوده مخصوصاً بمن أطاع، ولا كرمه مختصاً بمن أتى في عبادته بالمستطاع، بل هو مبذول بالسّبق لمن شاء من خلقه وإن عصى وأساء وأذنب وخالف ومن شقّ العصا»[1] حيث أبى أبو مدين من خلال خطبته هذه إلاّ أن يُذكّر عباد الله بأنّ أبواب توبة العبد إلى ربّه وإنابته إليه تظلّ مفتوحة بالرغم من تلك السيّئات الكثيرة التي يقترفها؛ لذلك لابدّ عليه ألاّ ينساق وراء أهوائه ويُسارع في التّوبة، فهذه الخطبة التي اقتطعنا منها جزءً هي في الأصل مدبّجة من لَدُنِ صاحبها بإشارات كثيرة من القرآن الكريم والحديث النبويّ الشّريف، وكذا الأمثال التي تدعّم أقواله وتثبتها، فيستشعر القارئ فحواها ويستيقظ من غفلته مدركا رحمة الله التي وسعت كل شيء.

وعلى غرار ما عُرف من الخطب الدّينية بالمغرب الأوسط فإنّ الخطب السياسيّة نالت الحظّ الأوفر بين كافة الأنواع[2] تبعاً للظّروف السياسيّة التي شهدتها كلّ من بجاية وتلمسان إبّان القرن

---

[1]- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، ج1وج2، ص253، وباقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان، محمد بن رمضان شاوش، ص465.

[2]- للخطابة أنواع كثيرة أشهرها الخطب الدينيّة الدّاعية للتّحلّي بالفضائل وذم الرّذائل، فتستمدّ ألفاظها من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال السّلف الصّالح لتثبيت الحجّة، ومنها الخطب الاجتماعية التي تعدّ من ضروريات المجتمع باعتبارها عاملاً هاماً في تحسين ظروف المعيشة إلاّ أنّ الخطب السياسيّة قد طغت على سائر الأنواع بحسب طبيعة البلاد وما آلت إليه فكان=

الخامس الهجري إلى غاية القرن السّابع من تعاقب الحكومات على هذه الحواضر والحروب التي دارت بينها من أجل التوسّع فكان لابدّ من اختيار الخطباء الأكفاء للقيام بمهمّة الخطابة وتنظيم المجتمع، فتصدّر الخلفاء وسائر الحكّام قائمة الخطباء، ومن بينهم عبد الله بن ياسين مؤسّس دولة المرابطين الذي خطب في شيوخ المرابطين وقد طُعن في حروبه حيث يقول: «يا معشر المرابطين إنّكم في بلاد أعدائكم، وإنّي ميّتٌ في يومي هذا لا محالة، فإيّاكم أن تجبُنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا أُلْفَة وأعواناً على الحقّ وإخواناً في ذات الله تعالى، وإيّاكم والمخالفة والتّحاسد على طلب الرّياسة فإن الله يوتِي مُلكَه من يشاء ويَسْتَخْلِفُ في أرضه من أحبّ من عباده، ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تقدّمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم، ويغزو عدوّكم ويقسم بينكم فيْئَكُم ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»[1] فهذه الخطبة وجّهها عبد الله بن ياسين إلى أتباعه من المرابطين يستنهض فيهم الهمم ويحضّهم على مواصلة الكفاح للتغلّب على العدوّ، آمراً إيّاهم بالتّعاون والتّآزر ونبذ الفرقة والخصام، كما يؤكّد لهم إحساسه باقتراب أجَلِهِ محاولاً إقناعهم باختيار الأصلح منهم ليكون خليفة له على الملك، فكان كلامُه خطاباً لعقولهم المفكّرة ما جعله متّزِنا متسلسل الأفكار ينفذ إلى الخواطر فيُذكي روح العمل والجهاد.

كما يضاف إلى جملة الخطب السياسيّة ما أُثِر عن الموحّدين وعلى وجه الخصوص خطيبهم المفوّه ابن تومرت، فبالرّغم من أنّه بربري فإنّه كان يجيد اللّغة العربيّة بشكل مُلفِت فاشتهر بفصاحته وبلاغته النّادرة، لذلك لا نستطيع أن نعرّج إلى أنواع أخرى من الخطب دون الإطّلاع على نموذج من خطبه الرنّانة، حيث يقول في إحداها مخاطبا شيوخ المصامدة «إنّ الله سبحانه -وله الحمد- منَّ عليكم أيّتها الطّائفة بتأييده، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيّض لكم من ألْفَاكم ضُلاَّلاً لا تهتدون، وعُمياً لا تُبصرون، لا تعرفون معروفاً، ولا تُنكرون منكراً،

=لابدّ من تنظيم الجماعات وإقامة الحكم بما يتجاوب والشّعور العام والحس المشترك، للتّفصيل ينظر الأشكال النثريّة في الأدب المغربي القديم العهد الموحّدي نموذجاً، حكيمة إملولي، ص (48، 49).

[1]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج2، ص350.

قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل، وزيّن لكم الشّيطان أضاليل وترّهات...فهداكم الله به بعد الضّلالة وبصّركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفُرقة...فكونوا يداً واحدة على عدوّكم... وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربّه»[1] فقد صرّح ابن تومرت عن الموضوع الذي يودّ إيصاله إلى الشّيوخ وهو تذكيرهم بنعم الله عليهم، ونُصحهم لإتّباع طريق الرّشاد ليختمه بإلزامهم تنصيب تلميذه ومرافقه عبد المؤمن بن علي خليفة له على حكم الموحّدين ومساعدته في ذلك، فجاءت خطبته فصيحة وألفاظها مقنعة بما فيها من أسلوب التّرغيب والتّرهيب، مدعّماً ذلك كلّه بتقديم مجموعة من النّصائح التي من شأنها -إن هم اتّبعوها- توطيد علاقاتهم مع خالقهم، ومع بعضهم البعض فتتوحّد كلمتهم، ويُسرع النّاس إلى طاعتهم فيكثر أتباعهم.

-الوصايا:

تعدّ الوصيّة نوعاً من الأنواع الأدبيّة التي عرفها الأدب العربيّ عبر الحقب المختلفة التي مرّ بها، إلاّ أن مفهومها قد يلتبس في بعض الأحيان بالنّصيحة والوعظ والإرشاد، وفي أحيان أخرى تجتمع هذه الموضوعات في وصيّة واحدة لتحقيق غرض معيّن، فالوصيّة إذن هي« نقل أمين للتّجارب السّابقة، والخبرات المكتسبة والمعارف، يقدّمها الموصي من أجل تحقيق الفائدة للمتلقّين، وقد عرف الأدب العربي عدداً كبيراً من الوصايا التي صدرت عن عدد كبير من الأشخاص من ذوي الخبرات المتعدّدة، والرّؤى المختلفة»[2] فبما أنّ الإنسان اجتماعي بطبعه فإنّه يسعى دائما لتوطيد علاقاته بغيره، ما يدفعه لمساعدته ووضع تجاربه بعصارتها بين يديه حتّى يستفيد منها سائر النّاس ويبتعدوا عن الوقوع في الزّلل، وقد احتفظت أمّهات الكتب بعدد وافر من الوصايا فتناقلها الأدباء بغية توضيح مضامينها

---

[1]- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص (206، 207)، والنّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج2 ، ص 352.

[2]- الوصايا في الأدب الأندلسي، حذيفة عبد الله عزام، مذكّرة ماجستير في اللّغة وآدابها، إشراف د صلاح جرار، كليّة الدّراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2007م، ص 09.

الدينيّة والتّعليميّة والسياسيّة، وكذا الاجتماعيّة والثقافيّة التي ترشد الفرد إلى طريق الصّواب وترغبه في التحلّي بالأخلاق الفاضلة.

ومن الواضح أنّ هذه الوصايا بقيمها المعتبرة تصدر في مجملها عن العلماء والمثقّفين من كتّاب وأدباء، وكبار الحكّام الواعين بما بأيديهم من مسؤوليّة تّجاه الرعيّة والدّولة ككلٍّ، فجاءت وصاياهم منثورة ومنظومة على اختلاف مستوياتهم، ولَمّا كان المغاربة حريصين على تنظيم العلاقات الإنسانيّة العامّة والخاصّة فإنّهم أنتجوا الكثير في هذا الفنّ من أمثال يوسف بن تاشفين الذي ترك وصيّة لوليّ عهده الأمير علي في أصول الحكم مفادها «ألاّ يهيج أهل جبال درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة، والثّانية أن يُهادن بني هود وأن يتركهم حائلا بنيه وبين الرّوم، والثّالثة أن يقبل من أحسن من قرطبة ويجاوز عن مسيئهم»[1] فلمّا أحسن يوسف بدُنُوِّ أجله فإنّه أوصى ابنه علي بثلاث وصايا تعدّ البرنامج الأساس والمنهاج السياسيّ المثالي الذي يجب عليه إتّباعه في إدارته لدولة المرابطين من بعده، حيث تقوم وصاياه هذه على وجوب استعمال أسلوب اللّين مع الأقران والوافدين عليه من أهل الأندلس، وتجنّب معاداة الكثير من الأعداء في آن واحد حتّى لا يجتمعوا لقتاله من كلّ حدب وصوب فيميلوا ميلة رجل واحد، ويبدو يوسف بن تاشفين حريصاً في وصيّته على مصلحة رعيّته فمستقبلها مرهون بما سيقدّمه ابنه من انجازات، فكان أعظم ما يتركه وهو على فراش الموت جملةٌ من الوصايا القيّمة والإرشادات السّديدة.

وإذا كانت الوصايا تصدر من والد لأبنائه، أو حاكم لرعيّته فإنّ هناك أنواعاً أخرى من الوصايا التي كان يكتبها النّساك وأهل الصّلاح لربّهم أن يرعى ذريّتهم وأهليهم وأموالهم؛ فيستودعونه إيّاها صيانة لها، من ذلك وصيّة يوسف بن محمد بن يوسف التّوزري الأصل، التّلمساني، أبو الفضل المعروف بابن النّحوي فيقول فيها: «هذا ما أودع العبد يوسف الرّب الذي خلق الأشياء، ورزق

---

[1]- ينظر تاريخ المغرب العربي- المرابطون صنهاجة الصّحراء الملثّمون في المغرب والسّودان والأندلس- سعد زغلول عبد الحميد، منشأة المعارف جلال حزّي وشركاه، الإسكندرية، ط1، 1995م، ج4، ص (378، 379)/ نقلاً عن الحلل الموشّية في ذكر الأخبار المراكشيّة، لذي الوزارتين محمد لسان الدّين بن الخطيب، ص 60.

الأحياء، وملك العالمين، وحفظ السّموات والأرضين، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه، وجميع ما خوّلهما من نعمه...ظاهراً وباطناً، وصيّر ذلك إلى أمانته، وأسلمه إلى رعايته، واستحفظه في ذلك كلّه، وتبرّأ إليه من حوله وقوّته، ولم يرج سوى فضله وطَوْله هو الحفيظ الذي لا يهمل، الوكيل الذي لا يغفل...الجواد الذي لا يبخل، الأوّل الذي ينعم ويتطول، هو الأخير الذي لا يزال ولا يتحوّل»[1] فابن النّحوي في وصيته هذه يظهر واثقاً تمام الثّقة بأنّ المولى عزّ وجلّ أعظم من يُستودع على الأهل والولد والمال؛ لذلك كتب الوصيّة وانتقى ألفاظها المعبّرة عن قدرة الله وجلال سلطانه وكلّه رجاء بأنّه سيحفظ أمانته ويصونها فهو في عينه الربّ المودع وحده لا شاهد بعده.

كما تُبين الوصيّة في مواضع أخرى عن إتّباعها للمنهج الدّيني في محاولة من لَدُنِ الموصي أن يحثّ النّاس على المحافظة على روح الدّين الإسلاميّ، والابتعاد عن نواهيه، ومثال ذلك ما ورد عن عبد الحقّ بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المرسي في وصاياه لتلاميذه وأتباعه فيقول:«حفظكم الله، حافظوا على الصّلوات، وجاهدوا النّفس في اجتناب الشّهوات، وكونوا أوّابين، توّابين واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدّرجات السنيّة، ولا تَغْفلوا عن الأعمال السُنيّة... ولازموا المودّة في الله بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطّريقة، وقدّموا فرض الشّريعة على الحقيقة، ولا تفرّقوا بينهما...واعلموا أنّ القريب إليّ منكم، من لا يخاف سنّة أهل السُنّة ويوافق طاعة ربّ العزّة والمنّة»[2] فالمتتبّع لهذه الوصية سيلحظ حتماً توظيف ابن سبعين للمعاني الدّينيّة بأن صار يوصي تلامذته بالحفاظ على صلاتهم التي هي عماد الدّين، وإقامة سائر الشّعائر الدّينيّة فما الدّنيا إلاّ متاع الغرور، وفي ذلك كلّه وجوب الحفاظ على الصّلة المتينة بين كلّ فرد وخالقه، فاكتست الوصيّة أهميّة

[1]- وردت وصيّة ابن النّحوي رفقة قصيدته المنفرجة، فرواها الغبريني عن الشّيخين أبي عبد الله بن رحيمة الباني، وأبي العبّاس بن خضر الصّدفي رحمها الله، للتّفصيل ينظر عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 332.

[2]- النّثر الفنيّ في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبه، ص 136، والإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنّان، مج4، ص 36.

بالغة لمضمونها الوعظيّ وحُلّتها الفنيّة حيث صيغت بأسلوب سهل بسيط بعيد عن التكلّف، مقنع لذوي القلوب الخاشعة، فبالرّغم من قصرها فإنّ مضمونها قيّم ومعانيها سامية نبيلة.

-الحكم والمواعظ:

وهما شكل من أشكال التّعبير المتميّز في الأدب العربي الذي يعبّر عن ثمرة التّجارب الحياتية، والثّقافة المكتسبة عبر مراحل العمر المختلفة، فمن سِماته أنّه «يصدر عن طبقة خاصّة لها إدراكها وتجاربها وثقافتها، فيمتاز بالإيجاز والدّقة وسلامة الفكرة، إضافة إلى جمال الصّياغة، فزيادة على اتّفاق مضمونه مع حكومة العقل فإنّه أيضا يتماشى وفق نظرة المجتمع لِمَا يجري حوله من أحداث ومشاهدات تهدف لتوجيه السّلوك الإنساني النّبيل الذي يستهدف الخير»[1] فقد ازدان الأدب العربي بهذا اللّون من التّعبير الذي يتوخّى في كلّ أشكاله دقة العبارة، وحسن صياغتها بأقصر عدد ممكن من الألفاظ يبتغي قائلوه من ورائه استظهار التّجارب والعبر الماضية واستخدامها كوسيلة مساعدة لهم لإرشاد الأجيال وتنبيهها، وبما أنّه يمتاز بالقصر فإنّ ذلك يسهّل حفظه وتناقله بين النّاس.

وقد تنوّعت الحكم والمواعظ ضمن الجناح المغربي وتباينت أغراضها فمنها ما يُستعمل لذمّ النّقائص ومدح الفضائل، ومنها ما يتوّقف على التّحذير والإغراء أو إعزاز العلوم وإكبار أهلها وبخاصّة ما تعلّق بالدّين الإسلامي ومناهجه القويمة، ومن بين الحِكَم المشهورة آنذاك ما نطق به شيخنا أبو مدين شعيب حين قال:«من رُزِق حلاوة المناجاة زال عنه النّوم، ومن اشتغل بطلب الدّنيا ابتُلي فيها بالذلّ، وقال:اجعل الصّبر زادك، والرّضا مَطيّتك، والحقّ مقصدك ووجهتك، وتوكّل على الله حتّى يكون الغالب على ذكرك، فإنّ الخلق لم يُغنوا عنك شيئاً»[2] حيث جاءت نصائحه للأجيال في شكل حِكَم تتقاطر جواهراً؛ وجّهَها لكلّ فرد مسلم يودّ نيل الجنّة ونعيمها مقابل ذلّ الدّنيا وخرابها بالرّغم من بريقها الزائف، فظلّت حِكَمه تُخاطب الرّوح المشتاقة لوجه ربّها والمنكبّة

---

[1]- ينظر النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبه، ص (179، 180).

[2]- ينظر من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، ص (32، 33)/ نقلاً عن تعريف الخلف برجال السّلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، ج2، ص 178.

على ذكره وشكره، كما يواصل قائلا:«من رأيته يدّعي مع الله حالا لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره، وقال:من عرف نفسه لم يغترّ بثناء النّاس، وقال:علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق»[1] حيث عكست هذه الحِكَم مدى دراية الشّيخ بأحوال المقرّبين من الله عزّ وجلّ وسعيه الدّائب لمحاولة إرشاد الأفراد إلى السّبل القويمة التي تضبط العلاقات بينهم وبين خالقهم، ما كشف عن درايته الواسعة بعلم الشّريعة، وقدرته الأدبيّة الفائقة المتجليّة في حسن اختيار الألفاظ المعبّر بها، واستيفائها للمعاني المقصودة دون حشو أو زيادة.

أمّا في مجال المواعظ الواجب على الإنسان الأخذ بها والاتّعاظ بما تحمله في طيّاتها من فوائد عظيمة تعود بالنّفع عليه وعلى مجتمعه؛ نورد إحدى مواعظ أبي المطرّف بن عميرة المخزومي الموجودة في كتابه "فصول وعظية" يقول فيها:«يا هذا مداد الذّنوب إنّما يمحوه ماء الدّمع أفلا تعدّ له عيناً باكية، وخطر العقل يقتل غلام الهوى وأنت تقول أقتلت نفسا زاكية، اعترضتك شبهة الغيّ فهذا دليل الرّشد قد تبيّن، وإن خرجتَ خائفاً من مَصْرِ المعصية فأجهد نفسك على أن ترد ماء مدين، عزم الكرام وكيل أمين الغيب، وهمّة الرّجال ما التّأنيث لاسمها بعيب، قالت أسماء لولدها وقد خشي المثلة: الشّاة الميّتة لا تألم السّلخ»[2] فابن المطرّف يدفع القارئ لموعظته إلى التفاؤل ويبيّن له أنّ ذنوب ابن آدم مهما تفاقمت وكثرت فإنّه سيتمكن من محوها بدموع توبته، وكلّما أعمَل العقل المميّز به دون سائر المخلوقات للتّفكّر سيهتدي حتماً لطريق الهدى ويتجنّب طريق الغيّ، حيث اعتمد أسلوب النّداء والاستفهام لتقوية المعنى وإبرازه؛ متّخذا في ذلك ما أُثِرَ من حديث أسماء لولدها حينما آزرته بكلمات رفعت من معنوياته وهو في طريقه ليُعدم، فامتازت الموعظة برقّة العبارة وحُسن الصّياغة وقوّة التّمثيل ما جعلها تنفذ إلى الخواطر وتقنع السّامعين.

---

[1]- ينظر باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان، محمد بن ومضان شاوش، ص (464، 465)/ نقلاً عن عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (30، 31، 32).

[2]- الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المرّاكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر الأوّل، ص 172.

-السّير والتّراجم:

عمد المغاربة للاهتمام بكتابة السّير والتّراجم اقتداءً بمن سبقهم حتّى يتمكّنوا من الوقوف على آثار العظماء من أنبياء وحكّام وعلماء في شتّى مجالات الحياة المختلفة، قاصدين في ذلك «وجه الله تعالى، وعموم نفع أهل العلم في جميع الآفاق، حتّى يبلّغه السّلف إلى الخلف، وامتثالا لسنّة المصطفى محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) الذي أشاد بفضل التعلّم والتّعليم»[1] فعناية الكتّاب بمثل هذه المصنّفات من شأنه دفع ازدهار العلوم ومعرفة أخبار الأمم ومنجزات أبنائها ولاسيما ما اتّصل منها بالجانب الفكري والعلمي، وقد شارك علماء بجاية وتلمسان في إثراء هذا النّوع من الكتابة بما دوّنوه من مؤلّفات قيّمة، فعلى غرار ما ألّف أبو بكر بن علي الصّنهاجي المكنّا البيذق من سيرة ابن تومرت[2] وما جادت به أنامل الغبريني في كتابته لتراجم علماء بجاية[3] نجد مؤلّفات أخرى متفرّقة حول سير العلماء وتراجمهم برع في إنشائها مَهَرَةُ الكتّاب من الحاضرتين أو ممّن وفدوا عليهما فصارتا موطناً لهم، من هؤلاء أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي المعروف بابن الجميّل نزيل تلمسان وبجاية الذي أسهم في إثراء رصيد المكتبة العربيّة في مجال كتابة السّير حيث «كان من أعيان العلماء، مشتغلا بطلب الحديث في أكثر البلدان الإسلاميّة، فقدم مدينة إربل في سنة أربع وستمائة، وهو متوجّه إلى خراسان، فرأى صاحبها الملك المعظّم مظفر الدّين بن زين الدّين - رحمه الله تعالى- مُولَعا بعمل مولد النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) عظيم الاحتفال به، فعمل له كتابا سمّاه "كتاب التّنوير

[1]- ينظر النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبه، ص137.

[2]- دوّن البيذق سيرة المهدي بن تومرت وأخباره منذ بداية دولة الموحّدين، وهو عبارة عن مذكّرات تجمع كلّ ما يتعلّق بهذه الشّخصية وسياستها وتحرّكاتها في مواجهة الأعداء بغية توحيد المغرب ككلّ، للتّفصيل ينظر المصادر العربية لتاريخ المغرب، محمد المنّوني، ج1، ص (42، 43).

[3]- دأب الغبريني على ترجمة حياة أهمّ العلماء ببجاية إبّان القرن السّابع الهجري، فصنّفهم بالنّظر إلى اختلاف علومهم وزمنهم ومن ذلك مشيخته التي هي السّبب الأساس لتأليف هذا السِّفر القيّم، للتّفصيل ينظر من التّراث الأدبي للمغرب العربي، عبده عبد العزيز قلقيلة، عالم الكتب للنّشر، القاهرة، دط، 1979م، ص 73.

في مولد السّراج المنير" وقرأه عليه بنفسه، وقد ختمه بقصيدة طويلة»[1] فقد صنّف ابن دحية العديد من المصنّفات التّاريخية حول الأمّة العربيّة وأخبارها، كما خصّ النبيّ المصطفى بحيّز كبير من الاهتمام بتأليفه سلسلة من الكتب حول سيرته من أبرزها كتاب التّنوير؛ حيث دفعه شغفه الدّائم لدراسة الحديث، وتتبّعه عبر الأقطار أن تشبّع بالقيم الفاضلة والأخلاق السويّة التي امتاز بها خير البريّة فما كان منه إلاّ أن جمع معلوماته المتنوّعة عنه في كتاب قيّم تعريفاً بالحبيب المصطفى للأجيال اللاّحقة.

والمتأمّل في هذا الفنّ النّثري سيلحظ لا محالة أنّ العلماء سارعوا لتدوين سيَر شيوخهم، وكذا الأدباء والشّعراء المعروفين آنذاك، أو ممّن جمعتهم بهم صلة تعزيزاً لطلب العلم وإشادة بأهله، من ذلك ما صنّفه ابن الأبّار القضاعي عن السّيرة النبويّة ومدح آل البيت في كتابه "دُرَرُ السّمط في خبر البسط" فيقول فيه:«رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، فروع النّبوة والرّسالة، وينابيع السّماحة والبسالة، صفوة آل بيت أبي طالب، وسرارة لؤى بن غالب الذي جاءهم الرّوح الأمين، وحلاّهم الكتاب المبين فَقُلْ في قوم شرعوا الدّين القيّم، ومنعوا اليتيم أن يقهر والأيمّ، فإن تميّزوا فبشريعتهم البيضاء، أو تحيّزوا فلعشيرتهم الحمراء، من كلّ يعسوب الكتيبة، منسوب لنجيب ونجيبة، نجاره الكرم وداره الحرم»[2] فهذا الكتاب هو في الحقيقة رسالة تحدّث فيها الكاتب عمّا حدث لآل بيت النبوّة من النّكبات التي مرّوا بها، وهو في مؤلّفه هذا يُشيد بخالصهم ومكانتهم الرّفيعة، كما يصف ما آل إليه حالهم بعدما أُبيحت الحرمات، بأسلوب فنيّ ضمّنه بعض الآيات من القرآن الكريم ورافقه بمقطوعات شعريّة أبانت عن ثقافته الواسعة وعاطفته الصّادقة تجّاه النبيّ وآل بيته.

وممّا يسجّل أيضا في رصيد ابن الأبّار من كتب التّراجم ما دوّنه مستدركا به كتاب "الصّلة" لابن بشكوال حيث أسماه "التّكملة لكتاب الصّلة" حيث واصل فيه ترجمة حياة من أغفل ابن

---

[1]- ينظر العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص 65، ووفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، تحقيق إحسان عبّاس، مج 03، ص (449، 450).

[2]- ينظر النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبه، ص (138، 139).

بشكوال ذكرهم راميا إلى «الإحاطة بمختلف ضروب العلم والتّأليف والنّقل والرّواية، ما جعله لا يتخيّر في نوعية تراجمه؛ إذ إنّه أراد أن ينقل صورة عن مختلف أوجه الحياة الثقافيّة في الأندلس»[1] فابن الأبّار على غرار من سبقه من كتّاب التّراجم أبى إلاّ أن يُخلّد ذكر الأندلس ومآثر علمائها الكبار وبخاصّة بعدما شارفت على التّشتّت والخراب، فانكبّ يُترجم للمحدّثين والعلماء والأدباء والشّعراء والصّالحين وغيرهم من الأعلام ليَخرج كتابه إلى النّور في أبهى حُلّة، ويضاف إلى جملة ما كتب هذا الأديب من سير وتراجم إبداعه في مجال المعاجم التي يعكف أصحابها على ذكر شيوخهم وأساتذتهم وأسانيد الكتب التي سمعوها عنهم فضلاً عن مؤلّفاتهم وكلّ ما يتعلّق بالجانب الفكري والعلمي لديهم وهو ما يحقّق فائدة عظيمة لكتّاب هذه المعاجم بأن تتعزّز الثّقة بهم وبمؤلّفاتهم، كما تتوسّع معرفة القرّاء بهؤلاء الشّيوخ ومناقبهم بشكل منظّم ومرتّب يسهّل عليهم عملية البحث والمطالعة، وقد تمكّن ابن الأبّار من «جمع سبعة معاجم لخيرة أهل الرّواية من القرّاء والحفاظ والمحدّثين الأندلسيّين، وهي المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصّدفي، ومعجم أصحاب أبي عمرو المقري، ومعجم أصحاب أبي عمر بن عبد البرّ، ومعجم أصحاب أبي داود الهشامي، ومعجم أصحاب أبي علي الغسّاني، ومعجم أصحاب أبي بكر بن العربي، ومعجم شيوخ أبي الحسين أحمد بن محمد السرّاج، إضافة إلى معجم شيوخه وبرنامج روايته»[2] حيث ضمّت هذه المعاجم ثلّة من أهل العلم والدّين دبّج بهم ابن الأبّار ما جاء به من معلومات ثريّة؛ حملت في ثناياها تجارب هؤلاء العلماء وأخبارهم وما صنّفوه في مختلف نشاطات التّأليف الإسلامي، بل عكست موسوعية هذا الأديب وإصراره الدّائم على إبراز شأن الأندلس وأهلها.

---

[1]- ينظر ابن الأبّار الأندلسي الأديب، ماهر زهير جرّار، إشراف د إحسان عبّاس، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1983م، ص 179.

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص (148 إلى 162).

-المناظرات:

وهي نوع أدبي يرتكز على ضرورة تبيان المتناظرين لقدراتهم الأدبيّة واللّغوية لإظهار المسائل العلميّة والعمل على حلّ مغلقاتها، كما يُقصد بها «النّظر بالبصيرة من الجانبين في النّسبة بين الشّيئين إظهاراً للصّواب»[1] فالمناظرة نوع متميّز من الفنون النثريّة تقوم بين الأدباء والشّعراء والعلماء فيتبارى كلّ منهم في إظهار ما يملكه من زاد معرفيّ حول المسألة الموضوعة للمناظرة؛ بأسلوب فنّي رائق بغية إعلاء كلمة الحقّ، والاستزادة من العلم لا لإبراز الغلبة بين المتناظرين، وقد كانت المناظرات في العموم تُقام بالمجالس العلميّة العامّة والخاصّة وكذا القصور والمساجد، بالإضافة إلى ورودها أحياناً في شكل رسائل بين العلماء يدور فيها الحوار والنّقاش حول موضوع معيّن.

وقد حفل الأدب المغربي بمناظرات عدّة أورد كتّاب السّير والتّراجم ذكرها في مصنّفاتهم، حفّزت انتشارها عوامل جمّة أبرزها محاولة الشّيوخ المدرّسين تلقين معارفهم للطّلبة عن طريقها، فضلاً عن سعي بعض الحكومات للتوسّع عبر مدن المغرب الإسلامي والحرص على توحيده وفق سياسة معيّنة، فما كان منهم إلاّ استعمال أسلوب المناظرة لقهر الأعداء وتأكيد الرّأي بالحجج والبراهين المنتقاة من الدّين الإسلامي والمنهج العلمي؛ كما فعل المهدي بن تومرت حينما ناظر علماء مراكش بحضرة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين فقال في مناظراته: « إنّ ما نُقل عنّي قد قُلته حقاً ولي من ورائه أقوالٌ أخرى، أمّا قولك إنّ مَلِكَكم عادل منقاد للحقّ مؤثر طاعة الله على هواه؛ فهذه الأقوال تقولونها وتنصرونه بها مع علمكم بأنّ الحجّة متوجّهة عليه، فهل بلغك يا قاضي أنّ الخمر تباع في هذه الدّيار جِهاراً، وأنّ الخنازير تمشي بين المسلمين، وأنّ أموال اليتامى تُؤكل ظلماً وعدواناً؟»[2] فالقارئ لتاريخ الموحّدين سيلاحظ أنّ قائدهم ابن تومرت جاهر مُعلنا دعوته إبّان حكم المرابطين، بل وصلت به الجرأة لوعظ حكّامهم في عقر دارهم مثلما فعل مع الأمير علي، وتبيينه للمنكرات المنتشرة بينهم والعادات التي لا تمتّ للإسلام بِصِلَةٍ، فأبانت ألفاظ مناظراته وأساليبها

---

[1]- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص 119.

[2]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج2، ص (390، 391).

عن مدى تمسّكه بأصول الدّين، ما جعل حديثه مُقنِعا ينفذ إلى قلب المستمع وبخاصّة من يتولّى مسؤوليّة ما يجري، حيث شعر الأمير علي بالحسرة والندّم من جرّاء أقوال ابن تومرت الصّائبة، وتمكّن هذا الأخير من إفحام خصومه وإثبات جهلهم وانغماسهم في حياة اللّهو، كما تفوّق عليهم بفصاحته ورجاحة عقله.

ويبدو أنّ المناظرة قد تتحوّل في بعض الأحيان إلى جدال أو صراع فكريّ مثلما حدث بتلمسان بين فقهاء السّنة وفقهاء التصوّف، ولاسيما زمن الأديب المتفلسف محمد بن خميس حينما كفّره بعض فقهاء تلمسان وبخاصّة القاضي ابن هدية القرشي، فهو حسب رأيهم زنديق كافر[1] وقد عمدوا لتحضير مناظرة معه على شكل محكمة فقهيّة، حيث راح ابن خميس «يهاجمهم ويتّهمهم بالجهل، لأنّهم استصغروا الكبائر، وأباحوا الصّغائر، وأضرّوا بكلّ مفكّر حكيم أو فيلسوف فأساؤوا للفكر والمفكّرين»[2] فحسبه أنّ هؤلاء الفقهاء قد احتكروا حريّة التفكير والتّعبير عن الرّأي فخاطبهم بكلّ جرأة واصفا إيّاهم بالجمود الفكريّ، ومبيّنا أنّ ما جاء به من أفكار هي قبيل للإصلاح الدّيني ومحاولة للانفتاح على ما هو جديد في مجال العلوم، في حين أنّ هؤلاء الفقهاء قابلوا هذا الطّرح بالرّفض فأعلنوا الحرب عليه وعلى معتقداته التي اعتبروها ضالّة ومضلّة فيقول ابن هدية القرشي أثناء شرحه لرسالة ابن خميس مخاطبا إيّاه:«ولولا أنّ الأليق إيثار الأعراض من استتار مقاصدك السيّئة، لأومأت من ذلك إلى ما بوجعك منّي الثقاف ويرميك بثالة الأقافي، فإنّك من تناولك هذا السّجال،

---

[1]- امتاز ابن خميس بثقافة علميّة واسعة تمثّلت في إطّلاعه المكثّف على تاريخ رجالات العرب، وكذلك الفلسفة وأهلها من اليونان كفيثاغورس وسقراط، ومن اتّبع طريقهم من فلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي، فكان منهجه يجمع بين الفلسفة والتصوّف وهو ما لم يتقبّله فقهاء السّلف فعدوّه خروجا عن الملّة، للتّفصيل أكثر ينظر شخصيات تلمسانية أندلسية ومظاهر من الثّقافة الإسلامية، الطّاهر توات، دار الهدى للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 2011م، ص 33.

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص (35، 36).

وتجوالك في ذلك المجال، بين جهل فاضح أو كفر واضح فاختر وما فيهما»[1] حيث سلك الفقهاء سبيل المناظرة وتفنّنوا في الكلام لاستدراج ابن خميس لعلم الكلام وتبيانا لمذهبه الخسيس -على حدّ تعبيرهم- فقلبوا المناظرة إلى جدال مفاده تكفير ابن خميس، فحكموا ضدّه حكماً بالإعدام بالرّغم من إفحامه لهم وإظهاره لآرائه بالحجّة الدّامغة، فيتّضح لنا من خلال هذه المناظرة مدى تذبذب الوضع الفقهي آنذاك بتلمسان بين أهل السنّة والتصوف الذي جرّ كِلا الطّرفين لمحاولة فرض وجودهما على السّاحة الثقافيّة والدينيّة، ما اضطرّ الكثيرَ من الأدباء والفقهاء إلى النّزوح عن تلمسان والتوجُّه إلى حواضر أخرى بعيدا عن تلك المناقشات والسجالات بحثا عن الأمان والاستقرار.

-أدب الرّحلة:

يعدّ أدب الرّحلة من الأجناس الأدبيّة الأصيلة في الأدب العربي حيث تتداخل عناصره ومضامينه مع الكثير من العلوم والفنون وسائر الحضارات التي ضمّتها، لهذا فهو «الشّكل النصّي المفتوح المنبثق من مجموع مكوّنات ثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة متداخلة تتفاعل فيما بينها لتشكّل حقولاً تعبيريّة شتّى في أبهى حلّة فنيّة، لها بصماتها المميّزة وطابعها المعرفي الممتدّ»[2] فالرّحالة يحكي ما عايشه من أحداث أثناء سفره، فيصف بدقّة كلّ ما صادفه بأسلوب جميل وبسيط وقدرة فائقة على التّعبير بغية إفادة القارئ وإمتاعه، بَيْدَ أنّ طريقة صياغة هذا النّوع الأدبي قد تختلف من أديب إلى آخر، وبحسب نوع الرّحلة ودوافعها الأساس التي أدّت للقيام بها، والمتأمّل لتاريخ المغرب الإسلامي سيلحظ لا محالة أنّ الكثير من المغاربة قد عُرفوا بكثرة رحلاتهم وتنقّلاتهم ليس بين حواضرهم المزدهرة فحسب بل شمل سفرهم سائر البلدان العربيّة والغربيّة؛ غير مُتَنَاسِين تسجيل جميع مشاهداتهم

---

[1]- تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، ج2، ص 408/ نقلاً عن أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني، المهدي البوعبدلي، مجلّة الأصالة، وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية والأوقاف، الجزائر، العدد (49، 50)، أكتوبر 1977م، ص 04.

[2]- ينظر أدب الرّحلة في المغرب العربي، جميلة روباش، رسالة دكتوراه في الأدب الجزائري القديم، إشراف د محمد بن لخضر فورار، كلّية الآداب واللّغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015م، ص 22.

هناك في شكل مصنّفات رائقة خلّدت أسماءهم في سجّل الحضارة العربيّة والإسلامية من أمثال الإدريسي وابن جبير وأبي حامد الغرناطي وغيرهم.

ولَمَّا كانت الرّحلة من الأعمال الجليلة التي يقوم بها الفرد المغربي فإنّ علماء بجاية وتلمسان لم يشذّوا عن هذه القاعدة، فتقاطروا على مختلف البلدان وشدّوا الرّحال إلى مختلف الأصقاع يحذوهم أمل تحقيق عدّة أمور من وراء رحلاتهم؛ أبرزها أداء فريضة الحجّ والاستزادة في العلم بشتّى الطّرق الممكنة، إلاّ أنّ تسجيل حيثيات الرّحلة ومواردها ظلّ عملاً محدوداً فلم يعرف الازدهار حتّى القرن السّابع الهجري[1] حيث يُرجَّح العدول عن هذا الفعل لاعتباره غير نافع مثلما عبّر عن ذلك الحميري في مقدّمة كتابه حين قال:« ومع هذا فقد لُمْتُ نفسي على التّشاغل بهذا الوضع الصّاد عن الاشتغال بما لا يُغني عن أمر الآخرة، والمهمّ من العلم المزلف عند الله تعالى، وقلت هذا من شغل البطّالين وشعل من لا يهمّه وقته»[2] فالمتمعّن اليوم فيما تمدّه الرّحلات من معلومات مهمّة تخدم شتّى مجالات الحياة، سيُدرك حتماً بأنّ الحميري ومن كان يحذو حذوه في الظنّ بأنّ أدب الرّحلات ما هو إلاّ مضيعة للوقت ومن قبيل العلم غير النّافع كانوا على خطأ تامّ، وبالتّالي نجدهم قد أخّروا تدوين ما كان يجري آنذاك من مشاهدات وعلوم نافعة كانت لِتُلْحَقَ بما هو موجود بسجلّ الحضارة من معارف نافعة.

لقد اكتفى علماء الحاضرتين بالارتحال بين الأقطار والجلوس إلى العلماء والمشايخ لتبادل الآراء والمصنّفات ثمّ نيل الإجازات، من دون أن ينتبهوا لتسجيل حيثيات رحلاتهم إلى جانب ما كتبوه

---

[1]- لم يعرف الرّحالة آنذاك تدوين رحلاتهم سوى بعض المذكّرات اليوميّة التي تتفاوت في الدقّة من يوم لآخر، فيرى كراتشكوفسكي أنّ أوّل من وضع الأساس لهذا الفنّ، وذلك قبل نصف قرن من ابن جبير هو الفقيه أبو بكر محمد العربي (468-543هـ) حينما طاف الشّام والعراق والحجاز ومصر، ثمّ عاد إلى الأندلس واصفاً مشاهدات رحلته التي تحمل عنوان الرحلة أو ترتيب الرّحلة ليؤصّل هذا الاتّجاه من بعده ابن جبير وآخرون، فتشهد كتابة الرّحلات صياغة أدبيّة عالية، للتّفصيل أكثر ينظر أدب الرّحلة عند العرب، حسني محمود حسين، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، لبنان، ط2، 1983م، ص 13.

[2]- ينظر المغرب الأوسط في عهد الموحّدين، علي عشّي، ص 134/ نقلاً عن الرّوض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان للنّشر، بيروت، ط2، 1984م، ص (01، 02).

من مذكّرات وما ادّخروه من مسوّدات تحمل مختلف المعارف المكتسبة، بل كانت مجرّد كتابات عارضة بأسلوب أدبيّ بعيد عن التّعقيد لا تنضمّ في مسار ما يُسمّى أدب الرّحلة بالمفهوم المتعارف عليه، فلو كان هؤلاء العلماء يَدْرُون ما لتدوين تلك الرّحلات من أهميّة بالغة للأجيال اللّاحقة لأبدعوا في صناعتها ووضع المصنّفات الرائقة وإجادتها.

ب- الفنون الشعريّة:

وهي الوجه الأخر من العملة نفسها المتمثّلة في الأدب العربي، فعلى غرار اهتمام الأدباء بسائر الأشكال النثريّة فإنّهم اتّخذوا الشّعر بأغراضه المتنوّعة ملاذاً لإبراز ملامح ثقافتهم العربيّة والإسلاميّة، فقد ازدهرت كلٌّ من بجاية وتلمسان وأصبحت تضاهي مثيلاتها من الحواضر العلميّة ما جعلها فضاءً رحباً تلتقي فيه الثّقافات المختلفة والإبداعات الأدبيّة المتميّزة، بل وتتقاطع فيه تجارب الشّعراء على اختلاف مشاربهم من فقهاء وكتّاب وصوفيّة وغيرهم الذين سعوا لوضع بصماتهم الجليلة في ميدان ازدهار الشّعر في المغرب الإسلامي ككلّ، فضلاً عن المشاركة في استحداث بعض الأغراض التي لم يعرفها الشّعر التّقليدي من قبل، فتفتّقت قرائحهم الشّعرية ونمت مواهبهم الفنيّة في إنتاج شعريّ ضمّ عدّة أغراض منها شعر التصوّف والزّهد، والمدائح النبويّة وكذا الوصف والمدح، إضافة إلى الغزل والرّثاء وغيرها.

-شعر الزّهد والتصوّف:

يصنّف شعر الزّهد والتصوّف ضمن الشّعر الدّيني الذي ازدهر بالمغرب الإسلامي وتعدّدت أصنافه، فكثر ناظموه يحذوهم في ذلك هدف التجرّد لله من ترف الحياة وزخرفها والاعتكاف بين يديه في خلوة منقطعة النّظير؛ وعلى رأسهم ثلّة الفقهاء الذين وجدوا فيه ما يتماشى مع طبائعهم « فالزّهد خلاصة لعمر حافل بالتّقلّبات، مليء بالممارسات الصّحيحة والخاطئة جميعا، وفي وقت من الأوقات وحالة من الحالات، لا يُلفي المرء إزاءه إلاّ خالقاً رحيماً يستعطفه ويلتمسه، ولا يرى إلاّ

نفساً لوّامة تحثّه على الإنابة إلى هذا الخالق العليم الخبير »[1] فنزعة الزّهد نزعة إيمانيّة خالصة يلجأ فيها الإنسان إلى ربّه قصد النّجاة، فيُعرض عن الدّنيا طلباً للآخرة مقنعاً نفسه وغيره أنّ الدّنيا زائلة فلابدّ من النيّة الخالصة والتّوبة النّصوح لله عزّ وجلّ قبل فوات الأوان، ولِعظَم هذه المعاني الوعظيّة والحكميّة فقد وجد الزهّاد مكاناً لهم بين الشّعراء، فانبروا يذكّرون العباد بالموت والآخرة ويدعون للقناعة والزّهد في الدّنيا، فحفلت أبرز حواضر المغرب الإسلاميّ بأسماء هؤلاء وبإبداعاتهم المميّزة من أمثال أبي عبد الله محمد بن أحمد اللّخمي المعروف بابن اللّحام التّلمساني الذي كان واعظ أهل زمانه ذو حظّ وافر في الأدب والشّعر له مصنّف حجّة الحافظين، من شعره قوله:

غَرِيبُ الوَصْــفِ ذُو عِلْــمٍ غَرِيبِ ... عَلِيلُ القَلْــبِ مِــنْ حُــبِّ الحَبِيبِ

إِذَا مَا اللَّيْــلُ أَظْلَــمَ قَــــامَ يَبْكِي ... وَيَشْــكُــو مَــنْ يَجِنِ مِنَ النَّحِيبِ

يُقَــطِّعُ لَيْــلَــهُ فِــكْــــراً وَذِكْــــراً ... وَيَنْـطِقُ فِيــهِ بِالعَجَبِ العَــجِيبِ

بِهِ مِنْ حُــــبِّ سَيِّــــــدِهِ غَـــــرَام ... يَجْـــلُ عَنِ التَــطَبُّبِ وَالطَّبِيـــبِ

وَمَــنْ يَــكُ هَكَــــــذَا عَبْداً مُحِبـاً ... يَطِيــبُ تُرَابُـــهُ مِنْ غَـيْرِ طِيبِ[2]

فالشّاعر الزّاهد يدبّج نظمه بمجموعة من الحكم والمواعظ التي ترشد العباد إلى طريق الصّواب، وتبيّن طرق معالجة سطوة الملذّات وكيفيّة التخلّص منها، ومن ذلك تدريب النّفس على الصّيام والقيام وكذا التفكّر في ملكوت الله بالإنابة إليه وذكره في كلّ الأوقات بُغية نيل قُربه فتنشغل القلوب بحبّ الله وحده دون سواه.

---

[1]- شعر الفقهاء في المغرب العربي في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، محمد مرتاض، رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدّولة، إشراف د عبد الله ابن حلي، معهد اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة تلمسان، 1994م، ص 69.

[2]- باقّة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان، محمد بن رمضان شاوش، ص 470/نقلا عن بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، ج1، ص (27، 28).

ويُضاف إلى ثلّة هؤلاء الزّهاد اسم شخصيّة بارزة في سماء حاضرة بجاية وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن التميمي القلعي البجائي بمنظوماته الرّائقة في الزّهد حيث يقول في إحداها:

الخُبْرُ أَصْـدَقُ فِي المَرْأَى مِنَ الخَبَرِ ... فَمَهِّدِ العُذرَ لَيْـسَ العَـيْنُ كَالأَثَرِ

وَاعْمَـلْ لِأُخْرَى وَلاَ تَبْخَـلْ بِمَكْرُمَةٍ ... فَكُلُّ شَيءٍ عَـلَى حَـدٍّ إِلَى قَدرِ

وَخَلِّ عَنْ زَمَنٍ تَخْشَـى عَوَاقِبَـهُ ... إِنَّ الزَّمَـانَ إِذَا فَكَّـرْتَ ذُو غُيَرِ

وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَـتْ سَلاَمَتُـهُ ... يَغْتَالُهُ المَـوْتُ بَيْنَ الوِرْدِ وَالصَّدْرِ

هُوَ الحِمَـامُ فَـلاَ تُبْعِـدْ زِيَـارَتَهُ ... وَلاَ تَقُلْ لَيْتَنِي مِنْـهُ عَلَى حَـذَرِ[1]

فهذا الشّاعر يهدف في أبياته لتذكير العباد بالحلول المفاجئ للموت، فيدعوهم للاستعداد له بالعمل الصّالح وذمّ الدّنيا ونعيمها الزّائف فكلنا راحلون عنها لا محالة، وهو في أثناء نظمه للأبيات المتمّمة لهذه المقطوعة يذكر هؤلاء الأقوام الذين عَلو في الأرض وتجبّروا فكان مصيرهم الفناء فبادوا واندثرت أخبارهم إلاّ لِمَن يتّعظ من أولي الألباب.

ففي أشعار الزهّاد نلحظ أنّه بمثل ما يرتبط الزّهد بالقناعة والإعراض عن زخرف الدّنيا فإنّ التصوّف هو الآخر يمثّل اعتكاف أهله على العبادات والزّهد واتّخاذ المحبّة الإلهيّة سبيلاً لنيل رضا المولى عزّ وجلّ، وهو ما يبعث فيهم طاقة إيمانيّة تسمو بهم إلى مراتب الجمال فتتفجّر فيهم الأحاسيس إلى إبداعات وجدانيّة وذوقيّة من رحم بيئتهم المغربيّة، فتتراكم تجاربهم الرّوحية الذاتيّة في شكل قصائد تعبّر عن مقاماتهم وأحوالهم بطريقة خاصّة لا يفهمها العوامّ؛ بل هي لغة الخواصّ التي ترتكز في أغلب الأحيان على الرّمز الصوفيّ[2] ومن أبرز شعراء التصوّف نورد اسم صوفيّ مبرز اتّخذ

[1]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 71.

[2]- تتشكل القصائد الصوفيّة في الغالب من وحدات موضوعاتيّة منها ما هو غير شائع ينفرد به شاعر صوفيّ دون غيره، ومنها ما هو جماعيّ متداول بين أغلب الشّعراء المتصوّفة كموضوعات الطّلل والغزل، والرّحلة والحنين والخمر،حيث يُطلق عليها بعض=

بجاية موطناً وتلمسان مرقداً فعُرفت كلا الحاضرتين به وهو أبو مدين شعيب الأشبيلي، حيث يقول في إحدى قصائده:

مَتَى يَا عُرَيْبَ الحَـــيِّ عَيْنِي تَرَاكُـــمُ وَأَسْمَـعُ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ نِدَاكُـــمُ

وَيَجْمَعُنَا الدَّهْـــرُ الذِي حَالَ بَيْنَنَـــا وَيَحْظَى بِكُمْ قَلْبِي وَعَيْنِي تَرَاكُـمُ

أَمُرُّ عَلَى الأَبْـوَابِ مِنْ غير حَاجَـــةٍ لَعَلِّي أَرَاكُـمْ أَوْ أَرَى مَنْ يَرَاكُـــمُ

سَقَانِي الهَوَى كَأْساً مِنَ الحُبِّ صَافِياً فَيَا لَيْتَهُ لَـــمَّا سَقَانِي سَقَـــاكُمُ

فَيَا لَيْتَ قَاضِي الحُبِّ يَحْكُـــمُ بَيْنَنَا وَدَاعِي الهَوَى لَمَّا دَعَانِي دَعَـاكُمُ[1]

حيث تبدو افتتاحية القصيدة غزليّة يتشوّق فيها الشّاعر إبّان وقوفه على الأطلال لرؤية الحبيبة وسماع صوتها الشديّ، كما يتمنّى أن يجمعه الوصال بها، ولكنّ المعاني الحقيقيّة لهذا النّوع من الأبيات تحتاج بالضّرورة لإعمال الفكر والتّأويل لمعرفة المغزى من هذه الرّموز والمعاني، فنجد أبي مدين قد مزج الشّعور الدّيني بالذّوق الجمالي قاصداً بذلك التّعبير عن الحبّ الأسمى وهو الحبّ الإلهي، وما توظيفه لمعاجم الطّلل أو الغزل أو الخمر إلاّ للاستعانة بها لإظهار تجاربه الذّوقية في طريقه للوصول إلى الحقّ وعشق الذّات الإلهيّة.

كما انبرى الشّعراء الوافدون على حواضر المغرب الأوسط في النّظم ضمن ميدان التصوّف شأن أبي العيش محمد بن أبي زيد عبد الرّحيم الخزرجي التّلمساني الذي ترك أشعاراً في الوعظ والزّهد ومن قوله في التصوّف:

اللهَ قُـــلْ وَدَعِ الوُجُودَ وَمَـــا حَـوَى إِنْ كُنْـــتَ مُرْتَـاداً بُلُوغَ كَمَـــــالِ

فَالـــكُـــــلُّ دُونَ اللهِ إِنْ حَقَّقْتَـــهُ عَدَمٌ عَلَـــى التَّفْـصِيلِ وَالإِجْمَـــالِ

=السيميائيين لغة الأيقونات وهي القرائن الأساس التي تميّز القصيدة الصوفيّة في دلالتها عن غيرها من القصائد، للتّفصيل أكثر ينظر شعر أبي مدين التّلمساني الرؤيا والتّشكيل، مختار حبّار، ص 60.

[1]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدرّاجي، ج2، ص(108، 109)، وإرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1و2، ص 262.

فَالعَـــارِفُونَ فَنُوا وَلَمَّــا يَشْهَـدُوا   شَيْئـــاً سِوَى المُتَكَبِّرِ المُتَــعَالِ

وَرَأَوا سِــوَاهُ عَلَى الحَقِيقَةِ هَــالِكـاً   فِي الحَــالِ وَالمَــاضِي وَالاسْتِقْبَالِ

مَنْ لَا وُجُـــــودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِـــهِ   فَوُجُـــودُهُ لَـــوْلَاهُ عَـيْنُ مُحَـــالِ[1]

فأبي العيش يذكّر العباد في هذه الأبيات بوحدانيّة الخالق الذي خلق الأكوان وصورها في أحسن صورة، لذلك نجد العارفين من المتصوّفة يَفْنَوْنَ في ذاته ويتقرّبون إليه إدراكاً منهم بأنّه ليس في الوجود سواه، فهو الكامل والمحيي المميت، وهو وحده باقٍ في الوجود عندما تفنَى الكائنات، حيث انعكست ثقافة الشّاعر الدينيّة في شِعره فأحسن توظيفها في سُبل الخير وتعظيم الخالق فكان شاعراً بارعاً.

فمن خلال ما سبق ذكره من نماذج لشعر الزّهد والتصوّف يتّضح لنا أنّ شعراء الحاضرتين قد شاركوا مشاركة متميّزة في ازدهار هذا النّوع من الشّعر؛ فانطبع أكثره بما هو موجود بالمغرب الإسلامي من نتاجات، في حين امتاز بعضه بصبغة خاصّة نبعت عن تلك العاطفة الدينيّة الصّادقة في نفس كلّ شاعر تآزرها في ذلك طبيعة الحياة الفكريّة آنذاك، فنلحظ البساطة في التّعبير عن المعاني بأسلوب يميل إلى التديّن حتّى يسهل على المتلقّي فهم المقصود من الأبيات، حتّى وإن استعمِلت بعض الإشارات الصوفيّة أو الرّموز فإنّ تحديد فحواها ومعالمها الأساس سيُدرك بالتأمّل وإعمال العقل للظّفر بباطن الكلام لا ظاهره.

-شعر المدائح النبويّة:

يعدّ شعر المديح النبويّ من أهمّ أنواع النّظم التي اهتمّ بها الشّعراء فتنافسوا في إجادتها وأصبحت تتردّد على ألسنة العامّة والخاصّة، حيث « وبفضل الله تعالى ومنّته أن قيّض لهذا النّوع من الأدب رجالاً محبّين لله تعالى، متيّمين بحبّ رسوله الكريم، تلهج ألسنتهم بالصّلاة عند سماع اسم

[1]- تعريف الخلف برجال السّلف، لأبي القاسم محمد الحفناوي، ج2، ص334.

خير الأنام، وتفيض أعينهم بالدّموع شوقاً لزيارة سيّد ولد آدم (عليه السّلام) »[1] فمحبّة الله ثمّ سيّد الخلق، والإيمان برسالته باتت منزلة عظيمة يتنافس فيها المتنافسون طمعاً في المغفرة والشّفاعة، فما كان منهم إلاّ أن انبروا للتّعبير عن مكنوناتهم وأحاسيسهم في شكل قصائد تُشيد بحبّه (عليه الصّلاة والسّلام) وتتشوّق لزيارة قبره الشّريف، ولم يكن هذا النّوع من الشّعر مقتصراً على الزهّاد والمتصوّفة أو الفقهاء فحسب، بل شارك في نظمه العديد من الأدباء والعلماء، فكان للمغاربة سهم وافر من هذه المشاركة نورد منهم اسم الشّاعر أبي عبد الله محمد بن الحسن القلعي البجائي الذي نظم قصائد في مدح الحبيب المصطفى فيقول في إحداها:

أَمِنْ أَجْــــلِ أَنْ بَانُوا: فُؤَادُكَ مُغْــرَمُ ... وَقَلْبُــكَ خَفَّــاقٌ، وَدَمْعُكَ يَسْجِــمُ

وَمَــا ذَاكَ إِلاَّ أَنْ جِسْمَــكَ مُنْجِدٌ ... وَقَلْبَكَ مَعْ مَنْ سَارَ فِي الرَّكْبِ مُتْهَمُ

إِلَيْــكَ رَسُــولَ اللهِ أَرْفَــعُ حَــاجَتِي ... فَأَنْتَ شَفِيــعُ الخَلْقِ، وَالخَلْــقُ هُيَّــمُ

فَقَــدْ سَارِت الرُّكْبَانُ وَاغْتَنَمُوا المُنَى ... وَإِنِّي مِــنْ دُونِ الخَــلاَئِــقِ مُحْــرَمُ

وَهَبْنِي عَصَيْتُ اللهَ جَهْــلاً وَصَبْــوَةً ... فَمَنْ يَقْبَلُ الشَّــكْوَى وَمَنْ يَتَرَحَّمُ؟ [2]

فالشّاعر لا يكاد يُخفي حزنه من مفارقته الأحبّة الذين ساروا بالرّكب تّجاه البقاع المقدّسة، بينما بقي هو متشوّقاً باكياً متحسّر القلب لعدم التحاقه بهم، داعياً الله تعالى أن يحقّق مراده في الوصول إلى البيت العتيق والوقوف على قبر سيّد البرية، كما يمزج مدحه وتشوّقه للنّبي الكريم بطلب الشّفاعة منه يوم القيامة مثل سائر الخلق، فجاءت أبيات قصيدته فيّاضة بالمشاعر الدفّاقة الملمّة بقدرة الشّاعر على النّظم، وقمّة موهبته الأدبية التي تجعل القارئ يتفاعل مع موضوعها ويتعاطف مع ناظمها فيتمنّى هو الآخر تحقّق فرصة أداء الفريضة وتكحيل العيون برؤية البيت وقبر النّبي.

---

[1]- ينظر معجم أعلام شعراء المدح النّبوي، محمد أحمد درنيقة، ص 32.

[2]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص(70، 71)، والخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، محمد مرتاض، ج1،ص 389.

ومن الشّعراء الأكفاء أيضا الذين نظموا في هذا الغرض فأبدعوا نذكر شمس الدّين محمد بن سليمان بن علي بن العفيف التّلمساني المشهور بالشّاب الظّريف وله ديوان شعر فيه عدّة مدائح نبويّة يقول في إحداها:

نَبِيٌّ لَـهُ آيَـاتُ صِـدْقٍ تَبَيَّنَتْ فَكُـلُّ حَسُـودٍ عِنْدَهَا يَتَنَغَّـصُ

حَـلِيـمٌ كَـرِيمٌ لِلْعُفَـاةِ كَـأَنَّـهُ مِنَ الحِلْمِ وَالجُـودِ الجَزِيلِ مُشَخَّصُ

فَيَا خَاتَمَ الرُّسْلِ الكِـرَامِ وَمْن بِهِ لَنَا مِنْ مَهُـولاَتِ الذُّنُـوبِ تَخَلُّصُ

أَغِثْنَا أَجِرْنَا مِنْ ذُنُوبٍ تَعَـاظَمَـتْ فَأَنْـتَ شَفِيـعٌ لِلْوَرَى وَمُخلِـصُ

إِذَا صَحَّ قُرْبٌ مِنْكَ يَـا خَيْرَ مُرْسَلٍ عَلَـى أَيِّ شَيءٍ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْرِصُ[1]

فقد عكف الشّاعر على ذكر خصال النّبي الكريم وما له من آيات تثبت صدق نبوّته، فهو الهادي البشير والأمين الشّفيع الذي تُرجى شفاعته عند ربّ العزّة، حيث يُقِرُّ الشّاعر بعظم ذنوبه طالباً الإغاثة من الأهوال، مُبَيِّناً شوقه الدّائم لنيل الحظوة والقُرب منه (صلّى الله عليه وسلّم) فذلك يوم المُنَى والرّجاء الأكبر، متخذاً في ذلك لغة بسيطة واضحة يسهل على المتلقّي فهم فحواها بصيغ وألفاظ رقيقة عذبة تنمّ عن الثّقافة الواسعة والإبداع المتميّز بين الأقران.

-التضرّع والابتهال:

شعر التضرّع والابتهال غرض دينيّ بحتٌ يُبنَى على التّواصل بين العبد وربّه، حيث يقوم الشّاعر بنظم القصائد ليتوسّل بها الخالق عزّ وجلّ طالباً عفوه ورحمته وراجياً تخليصه من الكروب والمحن، وقد ارتبط هذا النّوع من الشّعر في أغلب الحالات بالظّروف السياسيّة والاجتماعيّة المتدهورة التي تدفع الحكّام للجور في أحكامهم على الرعيّة، فلا يكون للمظلوم ملجأ سوى الدّعاء ومناجاة الخالق ليفكّ أسره ويُنصفه من أيدي الطّغاة، وكان ممّن أبتُلِيَ بهذه المحنة ببجاية زمن الموحّدين الشّيخ الجليل أبي محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي الذي صادف وجوده مع جملة من المعتقلين

[1]- معجم أعلام شعراء المدح النّبوي، محمد أحمد درنيقة، ص 361.

إذ أُدخِلوا السّجن، فقام الشّيخ بتخميس قصيدة المنفرجة لأبي الفضل بن النّحوي[1] فتمّ إطلاق سراحه على إثرها يقول فيها:

لاَبُدَّ لِضَيْـقٍ مِنْ فَـرَجِ   وَالصَّبْـرُ مَطِيَّةُ كُلِّ شَجِ

وَبِدَعْوَةِ أَحْمَـدَ فَابْتَهِجِ   اشْتَـدِّي أَزْمَةُ تَنْفَـرِجِي

قَـدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالبَلَـجِ

يَا نَفْسُ رُوَيْدَكِ لاَ حَرَجٌ   وَثِقِـي بِاللهِ عَسَى فَرَجٌ

وَكَذَا مَا ضَاقَ لَهُ فَـرَجٌ   وَظَـلاَمُ اللَّيْلِ لَهُ سُـرُجٌ

حَتَّى يَغْشَـاهُ أَبُو السُّـرُجِ[2]

فالشّاعر عبد الله بن نعيم كان من هؤلاء الشّعراء الذين تأثّروا بقصيدة المنفرجة فنسجوا أبياتهم في التضرّع لله على منوالها؛ فكانت هذه الأبيات في شكل تخميس رفعها للمولى عزّ وجلّ عسى أن يفكّ أسره، ومُتيمّناً بصاحب المنفرجة وما فيها من أسمى عبارات الصّبر والتوكّل، فجاءت ألفاظها بسيطة واضحة بعيدة عن التكلّف عكست مدى ثقافة ناظمها الدينيّة والأدبيّة في حسن تفويض أمره لربّه.

---

[1]- يعدّ أبو الفضل النّحوي رائد هذا النّوع من الشّعر، حيث قام بنظم قصيدته الجيميّة المسمّاة المنفرجة متقرّباً بها إلى الله وطالباً منه الاستعانة على تفريج الهموم، متيقّناً بأنّه لابدّ من مجيء اليسر بعد العسر وحلول الانفراج بعد الأزمات، فقد أبانت قصيدته عن براعته في النّظم وحسن استعماله لأساليب البلاغة دون تكلف، ومن شعره في التضرّع أيضا قوله:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا   فَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلاَيَ مَا أَجِدُ

وَقُلْتُ:يَا سَيِّدِي،يَا مُنْتَهَى أَمَـلِي   يَا مَنْ عَلَيْهِ بِكَشْفِ الضُّرِّ أَعْتَمِدُ

للتّفصيل أكثر ينظر الأدب في عصر دولة بني حماد، أحمد بن محمد أبو رزّاق، ص(282، 283).

[2]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 326.

ونظرا لتشبّع المغاربة بالثّقافة الدينيّة فإنّ النّظم في الدّعاء والتوسّل قد نبع عن الكثير منهم ممّن أدركوا عظمة الله وقدرته فلم يجدوا بُداً من التوجّه إليه وقت الشّدائد، كحال قاضي قضاة تلمسان أبي عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي حين قال:

إِلَهِي مَضَتْ لِلْعُمْرِ سَبْعُونَ حِجَّةً جَنَيْتُ بِهَا مِـمَّا جَنَيْتُ الدَّوَاهِـيَا

وَعَبْدُكَ قَدْ أَمْسَـى رَهِينَ ذُنُـوبِهِ فَـجُدْ لِي بِرُحْمَى مِنْكَ تَعُمُّ الدَّوَاهِيَا[1]

فقد نظم ابن هدية هذه الأبيات على فراش الموت طالباً من ابنه تدوينها عنه، راجياً المولى أن يتغمّده برحمته بعد هذا العمر الطّويل المثقل بالذّنوب، فألَمَّ حُسْنُ نظمها عن رصيده المعرفيّ واللّغوي، حيث جاءت ألفاظها واضحة ترمي الوصول إلى هدف معيّن وهو مرضاة الله دون تنميق ولا تزويق قد يؤدّي لغموض المعنى المقصود، كيف لا وهو الكاتب البليغ والمنشِئ لرسائل ديوان السّلطان الزيّاني لذا فإنّ حظّه من الشّعر لا يقلّ عن مثيله في النّثر.

- الغزل:

يحتلّ الغزل حيّزاً هاماً من مساحة الأدب العربي، حيث شغل تفكير العديد من الشّعراء عبر العصور السّالفة ولا يزال، لارتباطه الوثيق بعواطف الإنسان ومشاعره؛ حيث نجده يتغنّى بعاطفة الحبّ تّجاه المرأة أو المحبوبة وما يجري بينهما من وصال وهجران « فهو من الأغراض التي توصف بالسّبق والصّدق، ومن أشدّها التصاقاً بالنّفس والجسد لأنّه التّعبير الرّاقي عن الغريزة، والتّصوير الفنّي لِمَا بين الذّكر والأنثى من تجاذب أزليّ أبديّ لا انفصام له »[2] فالغزل من أحسن أغراض الشّعر تعبيراً عن الغرائز وخوالج النّفس، لا يكاد يخلو أيّ نظم آخر من وجود مسحة منه لذلك اتّخذه الكثير من الشّعراء مضماراً للإبداع الفنّي فأجادوا فيه أحسن القصائد، ومنهم الشّعراء المغاربة الذين أبانوا

---

[1]- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، ج1 وج2، ص 428/نقلاً عن بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، لأبي زكرياء بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، ج1، ص 52.

[2]- ينظر تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار الإرشاد للنّشر، حمص دمشق، ط1، 1992م، ص109.

في نظمهم عن حسن الذّوق ورقّة اللّغة، يصاحبها تمسّكهم المتين بالمعتقدات الدينيّة التي تعدّ المقياس الأساس في كلّ نظم وفنّ، فكان ممّن تفنّنوا في التغزّل بالمرأة الشّاعر أبو حفص بن عمر حين قال:

مَشَــتْ كَالغُصْــنِ يَثْنِيهِ النَّسِيمُ وَيَعْـــدُوهُ النَّسِيــمُ فَيَسْتَقِيـــمُ

لَهَــا رِدْفٌ تَعَلَّــقَ فِي ضَعِيـــفٍ وَذَاكَ الـرِّدْفُ لِي وَلَــهَــا ظَـلُومُ

يُعَــذِّبُنِي إِذَا فَكَّــــرْتُ فِيـــهِ وَيُتْعِبُهَـــا إِذَا رَامَــتْ تَقُــــومُ

وَمَــــا حُــبِّي لَهَــا إِلاَّ عَــذَابٌ عَــلَيْهِ مِــنْ نَضَــارَتِهَا نَعِيـــمُ[1]

فالملاحَظ أنّ الشّاعر قد عمد في أبياته لتعداد محاسن محبوبته، وهي في الغالب صفات المرأة الحسناء التي شغلت تفكيره واذكت عواطفه فصار يتغنّى بجمال شكلها وقوامها المهفهف، وهو بذلك يحاكي شعر الجاهليّين في تغزّلهم بالصّفات الخارجيّة للمرأة، شاكيا معاناته وعذابه من طول البعاد.

ثمّ إنّ من أمثلة النّاظمين في هذا الغرض الشّعري ما جاء على لسان أبي عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السّلام في بعض من أشعاره الرّائقة فيقول:

أَلاَ بِأَبِي مَنْ لاَ أَرَى فِي الهَوَى سِوَى مُحَيَّاهُ شَمْـــسٌ أَوْ سَنَا ثَغْرِهِ بَرْقَـــا

وَلاَ خَمْرَ إِلاّ مِــنْ لِمَــاه ولَحْـــظِهِ وَلاَ غُصْنَ إِلاَّ القَدُّ لاَمَا ارْتَقَتْ ورْقَا

لَئِنْ لَدَغَتْ قَلْبِي عَقَــارِبُ صُدْغِهِ فَرِيقَتُهُ التُّرْيَــاقُ لِي وَبِهَــا أرْقَـــى

تَعَلَّمْتُ مِنْ عَيْنَيْهِ عِشْقِي لِحُسْنِـهِ فَلِلَّهِ أَلْحَــاظ تُعَلِّـمُنِي العِشْقَـــا

فَيَا طَامِعاً فِي الوَصْلِ مِنْهُ تَسَلَّ،هَلْ سَمِعْــتَ بِأَشْرَاكٍ تُصَادُ بِهَا العَنْقَــا [2]

[1]- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج3، ص (671، 672)، والخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، محمد مرتاض، ج2، ص887.

[2]- تاريخ الأدب العربي عصر الدّول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1995م، ص 173/نقلا عن عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص 342.

فالشّاعر يُشيد في أبياته بجمال محبوبته فيشبّه مُحيّاها بطلوع شمس الضّحى بعد الظّلام مواصلاً سرد جمالها الأخّاذ الذي أسكره عن الوجود،كما يميل لتمثيل الوصل منها بعد الهجر بلدغة العقارب التي تحتاج إلى التّرياق، فهي حسبه الدّاء والدّواء مختتماً قوله بإخبار الطّامعين في الوصل منها بأنّ محاولاتهم لن تُجدي نفعاً كمن يُحاول اصطياد طائر العنقاء الخرافي بأشراكه، فكانت أبياته واضحة ألمَّت عن قدرته في التّلاعب بالأساليب من إخبار ونهي ونداء، ما من شأنه جذب انتباه القارئ والتّأثير فيه.

وفي الغرض ذاته تتمظهر لنا تجربة السيّد أبو الرّبيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الذي كان شغوفا بالأدب فصيح اللّسان وشاعراً مفلقاً خلّف ديوان شعر يقول فيه عن الغزل:

وَإِنِّي لَأُخْفِي حُـــبَّ رَمْلَةَ جَاهِــداً ... وَأَعْلَـــمُ حَقــــاً أَنَّـــهُ سَيَشِيـــعُ

وَمَا أَنَا بِالمُفْشِي لَـــهُ إِنَّمَا الـــذِي ... يَنِـــمُّ بِهِ دَمْـــعٌ يَلِـــحُّ هَيُـــوعُ

وَكَيْفَ وَنَارُ الشَّوْقِ مِـــلْءُ جَوَانِحِي ... تُكَفُّ دُمُـــوعٌ أَوْ تُكَنُّ ضُـــلُوعُ

فَلَوْ كَانَ دَمْعـــاً خَالِصاً لَمْ يَضُرَّنِي ... وَلَـــكِنَّ دَمْـــعاً شيبَ فِيهِ نَجِيـــعُ

فَوَاحَسْـــرَتا حَتَّى جُفُونِي مِنَ العِـــدَا ... تُضِيعُ نَفِيساً مِنْ دَمِـــي وَتُذِيـــعُ[1]

فهذه المقطوعة تُظهر بأنّ الشّاعر قد تألّم من لوعة الفراق ما جعله يبوح باسم محبوبته "رملة" ويُفضي بما يجمعه بها من حبّ وشوق من صدها له، فبات تعلّقه بها حملاً ثقيلاً على عاتقه فذرف دموعاً تحرق الجفون وعاد منفطر القلب خائباً نادماً وعاقداً العزم على الابتعاد عن الهوى خوفاً على مصيره.

ولـمَّا تطوّر هذا الغرض عبر العصور وتفنّن في تداوله الشّعراء فإنّ الصوفيّة لم يغفلوا عن استعماله، فحوّلوه إلى موضوع أساس ورمز صوفيّ يوشّحون به قصائدهم معبّرين من خلاله

[1]- ديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي وآخرون، منشورات كليّة الآداب، جامعة محمد الخامس، المغرب الأقصى، دط، دت، ص 75.

عن عواطفهم وأحاسيسهم، مناشدين به المحبوب الأسمى، وكشأن سائر الصوفيّة فقد وظّف الشّاعر الصوفيّ سليمان بن علي الملقّب بعفيف الدّين غرض الغزل في شعره حين قال:

إِنْ كَـــانَ قَتْلِي فِي الهَـــوَى يَتَعَيَّنُ   يَـــا قَـــاتِلِي فَبِسَيْفِ طَرْفِكَ أَهْـوَنُ

حَسْبِي وَحَسْبُكَ أَنْ تَكُونَ مَدَامِعِي   غُسْــلِي وَفِي ثَــوْبِ السِّقَامِ أُكَفَّنُ

عَجَباً لِخَـــدِّكَ وَرْدَة فِي بَـــانَــــةٍ   وَالوَرْدُ فَــوْقَ البَانِ مَـــا لاَ يُمْكِــنُ

أَدْنَتْهُ لِي سِنَةُ الكَـــرَىَ فلثمْتُــــــهُ   حَــتَّى تَبَدَّلَ بِالشَّــقِيقِ السَّوْسَـــنُ

وَوَرَدْتُ كَوْثَـــــرَ ثَغْرِهِ فَحَسَبْتُــنِي   فِي جَنَّةٍ مِـــنْ وَجْنَتَيْهِ أَسْـــكُـــــنُ[1]

فعفيف الدّين قد أحسن استعمال الغزل في شعره بصورة معقولة لا تتعدّى الإشادة بجمال المرأة؛ ذاكراً أبرز مواطن البهاء بحواسّها وهي العين مشبهاً إيّاها عبر حركة جفونها بالسّيف القاتل، منتقلا لوصف خدّيها وثغرها باهي الحمرة كأنواع الزّهور والرّياحين، حيث ركّز اهتمامه على جمالها الأخّاذ دون أن يتعدّى ذلك للتّغزل بأمور إباحيّة أخرى، وهو ما يدلّ على قوّة إيمانه واتّصافه بالعفّة في القول والفعل.

- الهجاء:

يعدّ الهجاء من أقدم الأغراض في الشّعر العربي يدافع به الشّاعر عن نفسه وقبيلته، فبمقدار ما يَنظم أجود ما لديه للإشادة بقومه ومفاخرهم فإنّه يعمد لهجاء، أعدائه باستصغارهم والحطّ من شأنهم « وبمثلِ ما كان العرب يفخرون بالشّجاعة والكرم فقد كانوا يعيّرون بالجُبن والبخل، وإذا كانوا يُباهون بالوفاء والعزّة وحماية الجار، فقد كانوا يرمون خصومهم بالغدر والذلّ والعجز، ومن يمدح بالحلم والعلم وفرض السّلطان على النّاس فمن الطّبيعي أن يهجو بالرّعونة والجهل والخضوع لأولي الجور»[2] فتعصُّب الشّاعر لقبيلته ظالمة أو مظلومة يُحتّم عليه نُصرتها في زمن السّلم

---

[1]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدرّاجي، ج2، ص305، وسير أعلام تلمسان، عبد الحقّ حمّيش، ص (298، 299).

[2]- تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، ص 182.

والحرب؛ ولأنّه لسان حالها بين القبائل فإنّه يسعى لتشريف قدرها وإعلاء شأن حكّامها، في حين يُدافع عنها وبخاصّة وقت المحن فيُبالغ في ذمّ الأعداء بأنواع الهجاء المختلفة[1] ويتوعّدهم بالردّ على ما صدر منهم، فتستعر جذوة الهجاء بينهما وينصرف كلّ طرف لذِكر عيوب الطّرف الآخر، ولاستفحال الظّاهرة فقد انصرف أغلب الشّعراء عن هجو الخصوم بأوصافٍ لا تليق بذوي المروءة، وارتأوا قواعد تضبط النَّظمَ في هذا الغرض منها ما أورده صاحب الوساطة في قوله: « فأمّا الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزّل والتّهافت، وما اعترض بين التّصريح والتّعريض، وما قربت معانيه وسهُل حفظه، وأسرع عُلوقُه بالقلب ولُصوقُه بالنّفس، فأمّا القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشّاعر فيه إلاّ إقامة الوزن» [2] فالتّشهير بالصّفات البذيئة من لَدُنِ الشّاعر لغيره ما هو في الحقيقة إلاّ تقليل من شأنه هو وانتقاص من مكانته، ثمّ إنّ المبالغة في صياغته تنفّر القارئ منه، ولذلك كان نظمه بأسلوب بسيط واضح أسهل للفهم وأبعد أثر في النّفوس.

وقد عرف الشّعر المغربي بروز هذا الغرض كسائر الأغراض الأخرى، فنظم المغاربة فيه على اختلاف العصور إلاّ أنّ مجمل ما أبدعوا فيه لا يتعدّى بعض الأبيات أو المقطوعات البسيطة التي وصلتنا من كتب التّراجم والتّاريخ وبخاصّة على عهد الموحّدين، حيث عرف ازدهاراً ملحوظاً لطبيعة الظّروف السّائدة آنذاك « فاتّجه قسم منه لهجاء الأفراد، وقسم لهجاء البلدان وأهاليها، وآخر لهجاء الجماعات -وكان نصيب جماعة الفلاسفة هو الأكبر- بينما اتّجه قسم لهجاء خصوم الدّولة

---

[1]- للهجاء أنماط متعدّدة منها ما يقوم بين القبائل فتُشهر فيه الألسنة إلى جانب السّيوف وتُقدح القرائح وتُرمى سهام الكلام على القوم، ومنها ما هو شخصي يرمي فيه الشّاعر خصمه بالجبن والعجز والتّشكيك في أصله وعروبته، كما نجد أيضا الهجاء المنظوم في الردّ على الخصوم فيصبح شكلا من أشكال التّرافع والمنافرة ليختلط فيه الفخر والذمّ بما يصبحه من تهديد وتحذير، أمّا هجاء التّنديد بالرّذائل فهو أقرب إلى النّقد التربوي والتّوجيه الخلقي، فيه نصح وإرشاد وتقويم وصلاح، للتّفصيل أكثر ينظر تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، ص (183 إلى 190).

[2]- ينظر العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، ج2، ص171.

وأعدائها»[1] فغالبا ما تقع خصومات أو مشادّات لسانية بين الأشخاص وتتحوّل إلى هجاء بين الشّعراء لتمسّ قيمهم كالكرم والشّجاعة والمروءة وغيرها، بل تتعدّى ذلك إلى هجاء الأقوام ومُدنهم ووصفهم باللّؤم والبخل، بينما استأثر هجاء جماعة الفلاسفة بنصيبٍ هائل من النّظم، حيث انهال عليهم بعض الشّعراء بتسفيه آرائهم وتفسيقهم إلى حدّ رميهم بالزّندقة والإلحاد، فضلاً عن مناهضة خصوم الدّولة ولاسيما المرابطين وبنو غانية بلهجة حادّة تعمد لكشف عيوبهم المستورة، وتنفير النّاس منهم في سبيل جمع أكبر عدد ممكن من الأنصار حول دولة الموحّدين.

ويبدو أنّ شعر الهجاء بالرّغم من ازدهاره في هذا العهد فإنّ نصيب الأندلسيّين كان أكبر من غيرهم من المغاربة، فقد أحسن الشّاعر أبو محمد عبد الله بن سلامة البجائي في نظم بعض الأبيات حول هذا الغرض قائلا:

لِي حُرْمَةُ الضَّيْفِ لَوْ كُنْتُمْ ذَوِي كَرَم وَحُرْمَةُ الجَارِ لَوْ كُنْتُمْ ذَوِي حَسَـــبِ

لَكِنَّكُمْ يَا بَنِي اللَّخْنَاءِ لَيْسَ لَــكُمْ فَضْـلٌ وَلاَ أَنْتُــمْ مِنْ طِينَةِ العَــرَبِ

كَمْ لاَ أَزَالُ عَلَى حَالٍ أسَـــاءُ بِهَا مِنْكُمْ وَأغْضي عَلَى الفَحْشَاءِ والرّيبِ

لأَتْرُكَنّ لَكُــمْ أَرْضــاً بِكُمْ عُرِفَتْ فَأخْبثُ البُــومِ يأْوِي أخبــث الخِرَبِ

وَمَا مُقــامِي بِأَرضٍ تسكنون بِهَــا مــــنِّي يطِيبُ ولكن حرْفَــة الأَدَبِ[2]

فالشّاعر في أبياته يندّد بجماعة من النّاس واصفا إيّاهم بالبخل وعدم احترام الجار، مبيّنا أنّ هذه الصّفات والأفعال التي صدرت منهم ليست من شيم العروبة، عاقداً العزم على ترك المكان

[1]- ينظر الشّعر العربي بالمغرب في عهد الموحّدين موضوعاته ومعانيه، علي إبراهيم كردي، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، ط1، 2010م، ص267.

[2]- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1وج2، ص(213، 214)/نقلاً عن خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، ج1 ، ص343.

الذي جمعه بهم فلن يطيب له المقام وسط قوم لئام آثروا التحليّ بالرّذائل وأحجموا عن أجود الفضائل.

-الرّثاء:

لغرض الرّثاء حضور قديم في الشّعر العربي ولا يزال، فهو متّصل بوجود الإنسان وعلاقاته مع غيره، وبحكم تعاقب الحياة والموت فإنّه سيعاني حتماً من فراق الأحبّة ويفجع لموتهم، فيعمد للبكاء عليهم ورثائهم وهنا يتقاطع مفهوم الرّثاء بالمدح لأنّ «الرّثاء يوافق المدح في المعاني، ويخالفه في المشاعر، وإذا كان الدّافع إلى المدح إعجاباً يمازجه الطمع، فالدّافع إلى الرّثاء إكبار يخالطه الوفاء والجزع، أو حبّ يساوره التفجّع والتحسّر، فهو نبيل المنشأ، شريف المقصد، ينبع من حزن الشّاعر على إنسان قطع الموت صلته بالأحياء، ويهدف إلى إفراغ النّفس من لواعج لا شفاء له منها إلاّ البكاء على الراحل، وتعداد مناقبه »[1] فبِمثل ما تتفجّر قدرات الشّاعر الإبداعية في مدح الأحياء من النّاس فإنّها تتحوّل إلى شعور خالص بالحزن من فُقْدان الميّت، فتتّقد الشّحنات العاطفيّة لنظم أبيات الرّثاء وسط جوٍّ من الخشوع والتّسليم لله تعالى بالصّبر والاعتبار، ولهذا كله عُدَّ الرّثاء من أصدق الفنون الشّعرية[2] ومالت كلّ أمّة لجمع مراثيها ولاسيما تلك المتعلّقة بكبار الشّخصيات أو الحكّام والعلماء؛ للإشادة بخصالهم وجليل أعمالهم، فضلاً عن رثاء أوطانهم التي تغرّبوا عنها أو مسّها الخراب من جرّاء الفتن والحروب.

والمتأمّل في تاريخ المغرب العربي سيجد أنّ البيئة كانت ملائمة جداً لازدهار غرض الرّثاء سواءً لانتعاش الحياة الفكريّة ونبوغ روّادها، أو لنشوب الصّراعات على الأقاليم، فجاءت نصوص المغاربة

---

[1]- ينظر تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، ص194.

[2]- للرّثاء عدّة أنواع فالشّاعر فيه إمّا أن يتفجّع على الميت ويبكيه ويتوجع لفقده ويسمّى ذلك ندباً، وإمّا أن يبكي فيه خلاله ومناقبه التي حُرم منها المجتمع ويسمّى ذلك تأبيناً، وإمّا أن يُفضي إلى ذكر الموت وأنّه حوض لابدّ للحيّ من وروده ويسمّى ذلك عزاءً، وقد يمزج الشّاعر بين النّوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثّلاثة، للتّفصيل أكثر ينظر تاريخ الأدب العربي عصر الدّول والإمارات، شوقي ضيف، ص191.

متباينة بين رثاء الأشخاص والمدن، فعن النّوع الأوّل نجد الشّاعر المغربي ينظم الأبيات في رثاء الأهل والأبناء أو الحكّام وكذا العلماء، ولعل الشّاعر محمد بن الجنان البجائي من أشهر الشّعراء الذين برزوا في هذا الغرض حين قام برثاء شيخه العالم الجليل سهل بن مالك الأزدي فقال:

دَعُونِي وَتسْكَابَ الدّمُوعِ السَّـوافِكِ فَدَعْوَى جَمِيلِ الصَّبْرِ دَعْوَةُ آفِـــكِ

أَصَبْرٌ جَمِيــلٌ فِي قَبِيحِ حَـــوَادِثٍ خَلَعْنَ عَلَى الأَنْوَارِ ثَوْبَ الحَــوَالِكِ

وَمَا رَاعَنِي فِي عَالَـمِ الكَوْنِ حَـادِثٌ سِوَى حَادِثٌ فِي عَالِمٍ ذِي مَـدَارِكِ

فَيَا رَحْمَـــةَ الرَّحْمَنِ وَافِي جَنَـــابَـهُ وَيَا رَوْحَهُ سَلِّـــمْ عَلَيْهِ وَبَـــارِكِ

وَيَا لَوْعَتِي سِيــرِي إِلَيْـــهِ بِرُقْعَـتِي وَقُصِّي شُجُوناً مِنْ حَدِيثِي هُـنَالِكِ[1]

فالشّاعر ابن الجنان كان تلميذ الشّيخ سهل بن مالك، وقد كتب هذه الأبيات إلى أبناء شيخه وهي قصيدة رثاء طويلة تلاها برسالة يعزّيهم فيها بفقد والدهم ويحثّهم على التحلّي بالصّبر بعده، فيذكر لوعة الفراق بينه وبين شيخه وليس من شيء يعزّيه سوى الصّبر والتّسليم لله، كما يصوّر حال رحيل أحد رجال العلم والدّين بالحادث الجلل الذي حَرَمَ الوجود من شخص مثله وهو الذي كان للدّين حامياً ودارساً وللعلم مدرّساً وناشراً، فلا سبيل بعد الفناء إلاّ دعوة الله أن يتغمّده بواسع رحماته.

وفي السّياق ذاته تتجلّى أمامنا قصيدة رثاء أخرى نظمها الشّيخ عفيف الدّين التّلمساني يرثي فيها المحمّدين وهما ابنه الشّاب الظّريف وأخوه يقول فيها:

مَــالِي بِفَقْـدِ المُحَـمَّدَيْنِ يَــدُ مَضَى أَخِي ثُمَّ بَعْـدَهُ الوَلَـــــدُ

يَـا نَـــارُ قَـلْبِي وَأَيْنَ قَـلْبِـي أَوْ يَـا كَبِدِي لَوْ يَكُونُ لِي كَبِـــدُ

يَا بَائِعَ المَـوْتِ مُـشْـتَرِيهِ أَنَـا فَالصَّبْـرُ مَالاَ يُصَابُ وَالجَـــلَدُ

---

[1]- الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق إحسان عبّاس، السّفر الرّابع، ص(108 إلى 114).

بِي كِبَرٌ مَــسَّــنِي وَأُمُّـــــكَ قَــدْ   شَاخَـــتْ فَمِنْ أَيْنَ لِي يُرَى وَلَـدُ

يَـــا لَيْتَــنِي لَمْ أَكُـــنْ أَباً لَكَ أَوْ   يَا لَيْتَ مَــا كُنْتَ أَنْتَ لِي وَلَـــدُ[1]

وهنا نلمس عاطفة حزن الشّاعر على موت ابنه وأخيه وما سبّبه من حرقة في القلب، فيما لا يستطيع فعل شيء لردّهما سوى هذه الكلمات التي تعزّز صبره وتآزره بخاصّة بعد كبر سنّه وهرم الأمّ، لدرجة أنّه تمنّى لو لم يكن له هذا الولد في الأصل حتّى لا يتحسّر على فقده، فعفيف الدّين بالرّغم من تحلّيه بالإيمان فإنّه حزن حزناً شديداً فلا أمر يُضاهي فقدان الوالدين للأبناء.

أمّا النّوع الآخر من الرّثاء فهو الخاصّ بالمدن والأقاليم التي صارت تتهاوى في يد الأعداء واحدة تلو الأخرى ولاسيما بالمغرب والأندلس، فانبرى الشّعراء يرثُون مُدنهم ويبكونها فقد عاث الخصوم فيها فساداً بعدما كانت من أبرز الحواضر علماً وحضارة، والشّاعر محمد بن حمّاد الصّنهاجي القلعي واحد من أبناء قلعة بني حمّاد نظم أبياتا يرثي فيها آثار الجدود بالقلعة الحمّادية قائلا:

أَيْنَ العَرُوسَانِ لاَ رَسْمٌ وَلاَ طَـــلَلُ   فَانْظُرْ تَرَى لَيْسَ إِلاَّ السَّهْلُ وَالجَبَلُ

وَقَصْرُ بَلاَّرَةٍ أَوْدَى الزَّمَــــــانُ بِهِ   فَأَيْنَ مَا شَـــادَ مِنْهُ السَّـــادَةُ الأُوَلُ

وَلَيْسَ يُبْهِجُنِي شَـيءٌ أُسَـــرّ بِـهِ   مِنْ بَعْدِ أَنْ نُهِجَتْ بِالـمَنْهَجِ السُّبُلُ

حَتَّى الـمُصَلَّى مُحَتْ آيَاتُهَا وَعَفَتْ   إِلاَّ جِــدَاراً وَمَــا طَلَّت بِهِ الطَّلَــلُ

كَرَجْعِكَ الطَّرْفَ كَانَـــتْ كُلّ آبِرَة   فَمَــا تَرَاهُ كَـذَاكَ العُمْــرُ وَالأَجَــلُ[2]

فهذه الأبيات تنبع من عاطفة صادقة عمد الشّاعر فيها لرثاء آثار أجداده في العاصمة الأولى لدولة بني حمّاد القلعة؛ قبل أن تُنقَل العاصمة إلى بجاية لأسباب سياسيّة أثّرت على أمن الدّولة واستقرارها، فراح يعدّد ذكر تلك القصور الشّامخة التي قُوّضت والآثار الدينيّة التي مُحيت واندثرت وكأنّها تُذكّرنا بانقضاء الأجل مهما طال العمر، وهو ما يُشير لمحاولته دفع القارئ للاعتبار بما جرى

[1]- باقّة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، محمد بن رمضان شاوش، ص475.

[2]- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، ج2، ص262.

فلابدّ من اغتنام الفرصة قبل الفناء، وما نلحظه من شعر الرّثاء المغربي أنّه انطبع بلمسة الرّثاء القديم في حسن تصوير عواطف الحزن والأسى وتعداد مناقب الفقيد، كما اتّصف بلمسة خاصّة وهي تسليم الأمر لله والإيمان بوجود الموت لا محالة بعد الحياة، فدعا الشّعراء في أبياتهم للأموات بالرّحمة وتجلّدوا بالصّبر، وهو ما تعكسه ألفاظهم المنتقاة بدقّة والبعيدة في وضعها عن التكلّف لتنساب على الألسن وتعلق بالذّاكرة لحفظها.

-الوصف:

شعر الوصف غرض بارز ومهمّ من بين أغراض الشّعر العربي بل ويتداخل معها جميعها، حيث يعمد الشّاعر لإقحام الوصف في سائر فنون الشّعر وهذا ما يؤكّده صاحب العمدة في كتابه إذ يقول:« الشّعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتّشبيه، مشتمل عليه، وليس به، لأنّه كثيراً ما يأتي في أضعافه والفرق بين الوصف والتّشبيه أنّ هذا إخبار عن حقيقة الشّيء، وأنّ ذلك مجاز وتمثيل»[1] فإذا أمعنّا النّظر جيّداً سنُدرك أنّ الوصف موجود في كلّ نوع من أنواع النّظم إلاّ جزءً يسيراً منه، فشاعر المدح يصف خصال ممدوحه، والمتغزّل يصف معاناته لفقد محبوبه، وكذا شاعر الرّثاء يصف مناقب فقيده أو جمال مدينته التي خرّبتها الحروب، ومتى أردنا تشبيه شيء بآخر الْتَمَسنا ذلك في الوصف بيد أنّه يستعمل لتبيان الحقيقة لا التّمثيل والمجاز، وفي محاولة للدّارسين من الحصول على أشعار تختصّ بالوصف وحده دون تقاطعه مع أغراض أخرى فإنّهم ميّزوا بين وجود قسمين منه، أحدهما يصبّ في وصف الطّبيعة السّاكنة، والآخر يصف الطّبيعة المتحرّكة الحيّة.

وقد اتّجه الشّعراء المغاربة للنّظم في وصف الطّبيعة على غرار مختلف الشّعراء عبر العصور، فساعدهم في ذلك ما كانت تنعم به البيئة المغربيّة من جمال حباها الله به، وراحوا يتغنّون

---

[1]- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، ج2، ص294.

في قصائدهم الرنّانة بتلك المناظر الحسان وما تتركه في النّفوس من سحر أخّاذ[1] فكان من الشّعراء الذين فُتِنُوا بحسن الطّبيعة فجسّدوا ذلك في أشعارهم الشّاعر أبو الرّبيع سليمان الموحّدي حينما نظم أبياتا يصف فيها فصل الرّبيع وما يشتمل عليه من مناظر خلابة فيقول:

حَـــيِّ الرَّبِيـــعَ بِمَـــا وَشـــتْ أَزَاهِـــرُهُ   وَنَظَّمتْ مِنْ أَكَالِيلٍ عَلَى الشَّجَـرِ

وَدَبَّجَتْ فَوْقَ مَتْنِ الرَّوْضِ مِنْ حُلَـلٍ   وَنَمَّقَتْـــهُ بِأَلْـــوَانٍ مِـــنَ الزَّهَـــــرِ

مِنْ نَرْجِس سَاحِرِ الأَلْحَاظِ ذِي غُنُجٍ   وَمِـــنْ أَقَــاحٍ نَقِيِّ الثَّغْرِ ذِي أَشرِ

هَذَا يُضَاحِكُ وَقْعَ الطَّلِّ عـنْ شَنَبٍ   وَذَا يُلاَحِظُ عَطْفَ النَّهْرِ عَنْ حَوَرِ

بِمَا تَضَوَّعَ رَوْضُ الزَّهْـــرِ غِبّ حَيــا   تَأَكَّـدَ الشُّـكْرُ لِلنُّعْمَى عَلَى البَشَرِ[2]

فأحسن ما تشتهيه عين النّاظر مناظر الطّبيعة في فصل الرّبيع، فعمد الشّاعر يصفها وصفاً دقيقاً، حيث تكتسي الأرض بساطاً أخضر يتماشى ولون الأزهار المتفتّحة على شكل أكاليل تفوح بعطر شديّ يتناغم وصوت مياه النّهر، وهو ما يترك أثراً جميلاً في نفسيّة الشّاعر لهذه النّعمة فيقابلها بشكر الخالق، لينتقل في مقطوعة أخرى لوصف شتّى عناصر الطّبيعة الغنّاء وما يتخلّل جنباتها من مظاهر الفتنة والانجذاب فيقول:

تَنَبَّـــهْ تَـــرَ دِيمَـــــةً تُمْطِـــــــرُ   وَوَجْـــهَ الصَّبَاحِ لَهَــــا يُسْفِـــرُ

وَكَـــالنّـــدّ لَكِـــــنَّ كَافُــــورَهُ   بَـــــدَا فِيـــهِ وَاكْتَتَـــمَ العَنْبَـــرُ

عَلَى حِـــين فـــلّ الدُّجَى مُـدْبِرٌ   وَلِلصُّبْـــحِ فِي إِثْرِهِ عَسْـكَــرُ

وَبَـــيْنَ الغَـــمَـــامِ وَمَمْـــطُورَةٍ   مِـــنَ الرَّوْضِ كَالحَرْبِ أَوْ أَكْثَـرُ

---

[1]- لقد كان شعراء الأندلس هم السبّاقين في وصف الطّبيعة وتصوير ما فيها من مواطن الجمال، فوقفوا عند كلّ جزء من أجزائها، فوصفوا الرّياض والأزهار والمنتزهات وكذا الفوّارات والأنهار؛ في محاولة لمنح شعر الوصف بعض الاستقلال عن سائر الأغراض، للتّفصيل أكثر ينظر الشّعر العربي بالمغرب في عهد الموحّدين، موضوعاته ومعانيه، علي إبراهيم كردي، ص254.

[2]- الخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، محمد مرتاض، ج2، ص(495إلى497)، وديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي وآخرون، ص71.

إِذَا التَّـــاجُ مِنْ بَرْق ذَا أَبْيَــضٌ تَـــأَطَّر مِـــنْ غُصْـــن ذَا أَسْمَرُ[1]

ففي هذه الأبيات ألَـمّ الشّاعر بتصوير أبهى مشاهد الطّبيعة السّاحرة، فاستعمل ألفاظ الدّيمة، والمطر، والفل، والغمام، والرّوض والغصن وهي عناصر تُشير في تنوّعها إلى قيمتها في تشكيل الفضاء الجميل الذي حرّك وجدان الشّاعر وهزّ مشاعره؛ فجعله ينقل الصّورة إلى القارئ وكأنّه موجود بالمكان ذاته، وبهذا النّسيج البديع من صفات الرّبيع والطّبيعة تمكّن ابن الرّبيع من رسم لوحات فنيّة متنوّعة، توحي في بنياتها وتراكيبها عن قمّة الذّوق الرّفيع وتنمّ عن القدرة الفائقة في دمج معالم الصّورة المشاهدة في الواقع إلى ذهن القارئ، فينحني كلٌّ منهما خضوعاً أمام عظمة الخالق المصوّر.

وبفضل ازدهار العمران والحضارة ببلاد المغرب الإسلامي وانتشار المباني الفاخرة والقصور الشّامخة التي سلب جمالها لباب العقول، مال الشّعراء لوصفها وتصوير جوانبها ومُلحقاتها، فنبغ في هذا الميدان الشّاعر ابن حمديس الصّقلي الذي يعدّ من أشهر الوصّافين في زمانه، فكان من جملة ما وصف قصر المنصور ببجاية فيقول:

اعْمُرْ بِقَصْرِ الملكِ نَادِيَكَ الـذِي أَضْـــحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُهُ مَعْمُورَا

قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَّلْـتَ بِنُـورِهِ أَعْـــمَى لَعَادَ إِلَى المقَامِ بَصِيرَا

وَاشْتُقَّ مِنْ مَعْنَى الحَيَاةِ نَسِيمُـــهُ فَيَـــكَادُ يُحْدِثُ لِلْعِظَامِ نُشُورَا

نُسِيَ الصَّبِيحُ مَعَ المَـلِيحِ بِذِكْرِهِ وَسَمَـــا فَفَاقَ خَوَرْنَقاً وَسَـــدِيرَا

وَلَوْ أَنَّ بِالإِيوَانِ قُوبِـــلَ حُـسْنُهُ مَـــا كَـانَ شَيْئاً عِنْدَهُ مَذْكُورَا[2]

والمطالع في كتب التاريخ الحمّادي سيلاحظ عزم الحكّام وسعيهم الحثيث لتشييد المباني والقصور وتدجينها بالبساتين والرّياض، وهو ما أُعجب به ابن حمديس فقد ذكّره هذا الفعل بما شهدته

[1]- ديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي وآخرون، ص70.

[2]- تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمّار، ص142/نقلاً عن نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرّي التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، ج1، ص492.

الأندلس من حضارة؛ فراح يصفه في أبياته بكلّ دقّة ورقّة مخاطباً الملك المنصور صاحب هذا العمل النّبيل ومهنّئاً له على هذا البناء الذي هو مفخرة له ولأبنائه من بعده، فمن شدّة إعجاب الشّاعر بالقصر بالغ في الوصف زاعماً عودة نعمة البصر للضّرير لدى مشاهدته لإشراقة البناء وروعة نقوشه وألوانه، ليُواصل وصفه لبركة بالقصر عليها أشجار من ذهب وفضّة، وبها أُسُودٌ من المرمر على الحافّة تقذف المياه من أفواهها فيقول:

وَضَرَاغِمٍ سَـكَنَتْ عَرِينَ رِيَاسَـةٍ	تَرَكَتْ خَرِيرَ المَـــاءِ فِيهِ زَئِـــيرَا
فَكَأَنَّمَا غَشَّى النُّـضَارُ جُسُـومَهَا	وَأَذَابَ فِي أَفْـــوَاهِـــهَا البَـلُّورَا
أُسْدٌ كَـأَنَّ سُكُــونَهَـا مُتَـحَرِّكٌ	فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا
وَتَذَكَّـرَتْ فَتَـكَاتِهَا فَـــكَـأَنَّمَا	أَقْعَتْ عَلَى أَدْبَارِهَـــا لِتَثُـــورَا
وَتَخَالُهَا وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَــهَـــا	نَاراً وَأَلْسُنهَا اللَّـــوَاحِسَ نُـــورَا[1]

فالشّاعر يعبّر في أبياته عن روعة الفنّ الحمّادي، فيشبّه خروج الماء من أفواه الأسود بالزّئير، وسط ذلك اللّمعان الذي تتركه ألوانها البرّاقة تحت أشعّة الشّمس السّاطعة وكأنّ البلّور يخرج من جنباتها، وما يزيد من المنظر حسناً دقّةُ وصفه لكيفية وضع تماثيل الأسود فتظهر وكأنّها ستنقضّ على فرائسها، حيث يُخيّل للقارئ أنّ هذه الصّور في حركة دائبة أمامه ما يجعله يعترف لابن حمديس بالرّيادة في مجال الوصف؛ فقصائده موفّقة إلى حدٍّ بعيدٍ في اختيار الألفاظ والعبارات المناسبة لكلّ مقال، وأسلوبه رفيع منمّق يؤثّر في النّفوس وينمّي فيها الإحساس بالفنّ الجميل.

- المدح:

يعدّ شعر المدح من أقدم أغراض الشّعر العربي وأكثرها انتشاراً، لاتّصاله بعاطفة الشّاعر تجّاه غيره من أبناء مجتمعه حيث «يقوم على فنّ الثّناء، وتعداد مناقب الإنسان الحيّ، وإظهار آلائه،

[1]- الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمد أبو رزّاق، ص333، ونفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرّي التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، ج1، ص493.

وإشاعة محامده وفعاله التي خلقها الله فيه بالفطرة، والتي اكتسبها اكتساباً، والتي يتوهّمها الشّاعر فيه»[1] فمدحُ الشّاعر لغيره ينبثق من إعجابه به أو بأعماله الخيّرة النّابعة من توفيق الله له، أو تلك التي يُبالغ في ذكرها انطلاقاً من محامد سبقتها، وبعدما كان نظم الشّعراء للمديح عن ثقة منهم وقناعة نفس بصدق الأبيات في حقّ الممدوح فقد آل نصيب معتبر منه للتّكسّب، فيلجأ الشّاعر لتزييف الحقائق أو المغالاة في الثّناء على الأشخاص، وبخاصّة ذوي الجاه والمال أو الحكّام لغرض الحصول على مكافأة منهم من مال أو منصب أو غيرهما.

ولقد عَرف شعر المدح رواجاً كبيراً بالمغرب الإسلامي، فتنافس الشّعراء في الرّفع من شأن ممدوحيهم والإشادة بخصالهم وقيمهم النّبيلة، فكان النّصيب الأوفر من قصائد المدح يتّجه لفئة الحكّام والملوك عرفاناً بسياستهم الرّشيدة وحُكمهم العادل ومن هؤلاء علي بن سيّد النّاس حيث مدحه الشّاعر أبو عبد الله محمد بن يحي بن عبد السّلام التّدلسي في بعض الأبيات يقول فيها:

شَمْسُ السَّعَـادَةِ لاَ سَنَى النِّبْرَاس   حَلَّتْ بِأُفْقِ عَلِي بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ
وَبِطَائِرِ اليُمْنِ ارْتَقَـتْ لِسَمَائِــهِ   تَخْتَــالُ بَيْنَ كَــوَاكِب أَخْــرَاسِ
مِنْ مَعْشَرِ بَذْلُ النَّوَالِ شِعَارُهُــم   وَهُمُ الأُسُودُ لَدَى احْتِدَامِ النَّاسِ
يُذْكُــونَ نِيـرَانَ الوَغَــــى بِأَسِنَّةٍ   وَلَدَى القِرَى يُذْكُونَ بِالاقْبَــاسِ
حُبُّ القُـــلُوبِ نِثَارُهُ وَكِبَــاؤُهُ   نَسَمَاتُ جُودِكَ لاَ نَسِيـم الآسِ[2]

فهذا الشّاعر قد أُعجب بسيّد النّاس فراح يمدحه في هذه الأبيات مُشيداً بمعرفته الكبيرة في ميدان الحكم وسيرته الحسنة بين الرعيّة لعدله وحلمه، فهو بما يمتاز به من شجاعة رُفقة جيوشه صاروا يحقّقون الانتصارات الباهرة؛ ما دعا الشّاعر لإطلاق وصف الأُسود عليهم في ساحات الحروب وما تملكه من بطش وقوّة ترهب به العدوّ.

---

[1]- تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، ص160.

[2]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (343، 344).

ويضاف إلى جملة الصّفات التي عرفها الشّعراء فمالوا لمدح الأشخاص بها أصالة نسبهم وأمجاد أسلافهم عبر العصور، فلا يكاد يُذكر فرد من ذلك النّسب الطّاهر إلاّ واستُحضرت أمجاد أجداده ودورهم الدّيني والعلمي، وها هو الشّاعر ابن خميس التّلمساني يمدح آل زيّان فيقول فيهم:

لَوْلاَ بَنُو زِيَـــانَ مَـــا لَذَّ لِي ال ـعَيْشُ وَلاَ هَانَـــتْ عَلَيَّ اللَّيَـــالِ

هُـمْ خَوَّفُوا الدَّهْـــرَ وَهُمْ خَفَّفُوا عَلَى بَنِي الدَّهْرِ خُـطَاهُ الثِّقَـــالِ

لَقِيتُ مِـنْ عَــامِرِهِـــمْ سَيِّـــداً غَمَرَ رِدَاءَ الحَمْدِ جَـمِّ النَّـــــوَالِ

وَكَــعْبَـة لِلْجُــــــودِ مَنْصُــوبَــة يَسْعَى إِلَيْهَا النَّاسُ مِنْ كُـلِّ بَـالِ

خُذْهَـــا أَبَا زِيَـــانَ مِـنْ شَاعِـر مُسْتَمْلَحِ النَّزْعَةِ عَذْبَ المَقَـــالِ[1]

وبما أنّ ابن خميس من أبناء حاضرة تلمسان فإنّه شهد حكم بني زيّان واطلع على حميد آثارهم؛ فأثار ذلك حفيظته وانبرى مُطلِقاً العنان لمشاعره في مدحهم والافتخار بهم وبحكمهم، فبفضلهم ارتقت الأمّة وكفلت العيش السّعيد، مستعملا في ذلك جُملاً وألفاظاً تؤكّد معاينته المباشرة والصّادقة لأعمال بني زيّان الجليلة.

ونظراً للحركة الدّائبة لتنقّل العلماء عبر حواضر المغرب والأندلس، فإنّ الشّاعر ابن الأبّار القضاعي عُدَّ مثالاً يُحتذى به لموهبته الأدبيّة وقدرته العالية في نظم الشّعر وعلى وجه الخصوص في المدح، فشهرته فاقت الحدود وطبّقت الآفاق مغرباً ومشرقاً، حيث عُرِف بروعة مدائحه بالبلاط الحفصي التي مسّت موضوعات الشّجاعة والكرم وحبّ الدّين والمجد وغيرها، من ذلك قوله مادحاً أبا زكرياء الحفصي ومهنّئاً له على افتكاكه مدينة تلمسان من يدي يغمراسن:

غَضِبْتَ للهِ تَسْتَـــــرْعِي فَرَائِضَـــهُ فَجِئْـتَ تَرْمِي بِسَهْم لَيْسَ يُخْطِئُهُ

وَقُمْت لِلدِّيـــنِ إِفْصَـــاحاً بِنُصْرَتِـــهِ فَاسْـــحَنْفَرَتْ عِنْدَهَا الدُّنْيَا تُهَنِّئُهُ

---

[1]- من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، ص 72، وإرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ج1وج2، ص 410.

قَدْ كَانَ مُنْتَهَكاً جِسْمُ الهُدَى مَرَضاً   وَأَنْـــتَ رُوحٌ لَـهُ مَـا زِلْت تُبْرِئُـــهُ

للهِ جَيْشُكَ وَالأُسْطُول قَدْ ضَمِنَــــا   لِلْمُـــقْتَدِي بِالهُدَى سَيْراً يُهَدِّئُـــهُ

تَسَـاوقَا فِي سَبِيــــلِ اللهِ وَاسْتَبَقَـــا   فَاسْتَــوْسَقَ النَّصْر أَوفَاه وَأَبْــطَؤُهُ[1]

فقد ضمّن ابن الأبّار أبياته بمدح السّلطان الحفصي لعنايته الفائقة بالدّين الإسلامي، فهو لَمَّا دخل تلمسان رام تثبيت دين الله الذي انتُهكت حرمته وابتعد النّاس عنه، فقيّض الله له الجيوش بالبرّ والبحر رهن إشارته لتساعده في إعلاء كلمة الحقّ فتمّ له ذلك، فنلمس من نظمه هذا مزاوجته للمدح بالتّهنئة على هذا النّصر المبين، مستعملاً أسلوباً أدبياً رفيعاً تدلّ عليه تلك الألفاظ التي اختارها بكلّ دقّة لتثير عواطف الممدوح والقارئ وتعبّر عن الذّوق الأدبي للشّاعر.

كما كان من بين الشّعراء الذين مزجوا بين المدح والتّهنئة في قصائدهم، فأبانوا عن براعة كبيرة في النّظم الشّاعر أبو الرّبيع سليمان الموحّدي حين مدح ابن عمّه المنصور وصار يهنّئه بمناسبة فتحه قفصة ودحره ابن غانية فيقول:

هَبَّتْ بِنَصْرِكُــــمُ الرِّيَــاحُ الأَرْبَـعُ   وَجَرَتْ بِسَعْدِكُمُ النُّجُــومُ الطُّلَّعُ

وَأَتَتْ لِعَوْنِكُـمُ المَلاَئِكُ سُبَّقـــاً   حَتَّى لَضَاقَ بِهَا الفَضَـاءُ الأَوْسَعُ

وَاسْتَبْشَـرَ الفُــلْكُ الأَثِيرُ تَيَقُّنـــاً   أَنَّ الأُمُــورَ إِلَى مُرَادِكَ تَرْجِــــعُ

وَأَمَــدَّكَ الـرَّحْمَنُ بِالفَتْـــحِ الذِي   مَلأَ البَسِيــطَةَ نُـورُهُ المُتَشَعْشِعُ

لِـــمَ لاَ وَأَنْتَ بَذَلْـــتَ فِي مَرْضَاتِهِ   نَفْساً تُفَدِّيهَـا الخَـلاَئِقُ أَجْمَــعُ[2]

1- ديوان ابن الأبّار، أبي عبد الله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي، قراءة وتعليق عبد السّلام الهرّاس، مطبعة فضالة، المغرب، دط، 1999م، ص 42.

2- الرّوابط الثقافيّة بين الجزائر والخارج، محمد الطمّار، ص170، وديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي وآخرون، ص20.

ففي هذه الأبيات عمد أبو الرّبيع لمدح قائد فذٍّ وحاكم مقتدر وهو ابن عمّه يعقوب المنصور الذي ملك من صفات الشّجاعة ورباطة الجأش؛ ما أهّله أن يُعلي كلمة الحقّ ويَدحر الأعداء[1] فلجأ الشّاعر لتوظيف هذه المعاني والخلال في أبياته، مهنّئاً إيّاه على نصره المبين الذي فرح لبلوغه الإنسان وحتّى الجماد ومنها الرّياح والنّجوم ومختلف الخلائق بالكون، وأنّ هذا النّصر لم يكن ليتجسّد لولا إعانة المولى عزّ وجلّ له، فهو ذلك القائد المؤمن المخلص السّاعي لنشر دين التّوحيد، فجاءت صياغة هذه الأبيات منتظمة وألفاظها مألوفة تحمل في طيّاتها نزعة الشّاعر الدينيّة وقدرته الأدبيّة في استعمال أساليب متنوّعة، تراوحت بين الإخبار والأمر والاستفهام لتُضفي على نظمه براعةً فنّية ورقّة في التّعبير.

- الفخر:

شعر الفخر غرض متميّز من أغراض الشّعر العربي نظم فيه الكثير من الشّعراء منذ القدم ولا زال إلى اليوم، حيث ينطوي على« زهو الشّاعر واعتزازه بنفسه وقومه، وهو وليد الأثرة والإعجاب بالذّات، وإذا كان الإنسان مفطوراً على حبّ نفسه والإدلال بها وبمآثرها، فالشّاعر المتميّز برهافة الحسّ وفصاحة اللّسان وجمال التّعبير والتّصوير أقدر من سواه على التّفاخر وأجدر به»[2] فنلحظ أنّ الشّعراء طوال العصور يُشيدون بمفاخرهم من مروءة وكرم وخصال حميدة، كما يعتزّون بانتمائهم إلى أقوامهم وقبائلهم الأصيلة، وذلك راجع بالطّبع إلى تلك النّزعة الإنسانيّة الطبيعيّة التي تجعل منهم المرآة العاكسة لقبائلهم بفضل ما يقدّمونه من قصائد رنّانة تتغنّى بأمجادهم وتمدح أقوامهم، ومن هنا لازم الفخر غرض المدح «فالافتخار هو المدح نفسه، إلاّ أنّ الشّاعر يخصّ به نفسه وقومه،

---

[1]- شكّلت معارك الموحّدين مادّة خصبة للشّعراء فكانوا دائماً ما يُشيدون بقوّة الممدوحين وانتصاراتهم في الحروب، فيتوشّح الشّاعر بوشاح دينيّ يمكّنه من تصوير قوة الجيش الموحّدي الدّاعي للهداية والنّور في مقابل جيش العدو المنهزم الخانع وما يلحقه من ويلات ودمار، فتعمد هذه المقابلة لتوضيح الصّورة وتعميقها في نفوس القارئين لهذا الموروث الثّقافي، للتّفصيل أكثر ينظر الشّعر العربي بالمغرب في عهد الموحّدين موضوعاته ومعانيه، علي إبراهيم كردي، ص (33إلى37).

[2]- تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، ص135.

وكلّ ما حسُن في المدح حسُن في الافتخار، وكلّ ما قبح فيه قبح في الافتخار»[1] فالمدح يختصّ بالثّناء على الغير وتعداد مناقبه فإذا أشاع الشّاعر هذه المحامد على نفسه وعلى قومه فسيصبح مدحه فخراً، وقد سجّلت كتب التّاريخ قصائد لكثير من الشّعراء يعتزّون فيها بقبائلهم ويفخرون بخلالهم الحميدة، وعلى غرار هؤلاء نجد أنّ شعراء المغرب الإسلامي لم يشذّوا عن هذه القاعدة فبفضل ما عُرف عنهم من الفصاحة والبيان نراهم يتفاخرون بأنفسهم وبنسبهم ومجتمعاتهم، ومن هؤلاء ابن فكّون القسنطيني وهو يذكر مدينة بجاية في أبياته فيفتخر فيها ببلده على سائر البلدان والحواضر الأخرى يقول فيها:

دَعِ العِـــرَاقَ وَبَغْـدَادَ وَشَـامَهَـــا ... فَالنَّـــاصِرِيَّةُ مَـا إِنْ مِثْلُهَـا بَلَـدُ

بَـرٌّ وَبَحْـرٌ وَمَـوْجٌ لِلْعُيُـونِ بِـــهِ ... مَسَـارِحٌ بَـانَ عَنْهَا الهَمُّ وَالنَّـكَدُ

حَيْثُ الهَوَى وَالهَوَاءُ الطَّلْقُ مُجْتَمِـعٌ ... حَيْـثُ الغِنَى وَالمُنَى وَالعِيشَةُ الرَّغَدُ

وَالنَّهْرُ كَالصِّلِّ وَالجَنَّاتُ مُشْرِفَـــةٌ ... وَالنَّـــهْرُ وَالبَـحْرُ كَالمِرْآةِ وَهْـوَ يَـدُ

يَا طَالِباً وَصْفَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصَفٍ ... قُـــلْ جَنَّةُ الخُلْدِ فِيهَا الأَهْلُ وَالوَلَدُ[2]

فبما أنّ بجاية كانت آنذاك من أكبر عواصم العلم والحضارة؛ تتوافد عليها أفواج العلماء للنّهل من معين ثقافتها فإنّ ابن الفكّون فضّلها على سائر الحواضر المشرقيّة، وهو يفتخر بها وبكونه من أبناءها فيبيّن لقارئ الأبيات أهمّ ما يميّزها، فبانطوائها على هذه المزايا هو يحاول رسم مختلف معالمها وتحبيب الزّائرين للحلول عليها والاستفادة من مزاياها، مستعملاً قاموساً من الألفاظ المتعدّدة والأساليب المتنوّعة التي أضفت لمسة جماليّة وفنيّة على المقطوعة.

---

[1]- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، ج2، ص143.

[2]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص (334، 335).

كما نورد اسماً لشاعر مفلق نادراً ما تخلو قصائده من الافتخار بنفسه أو تلك الإشارات الدّالة على مدح الذّات، ألا وهو ابن خميس التّلمساني حيث يفتخر في إحدى قصائده بقبيلته وأجداده اليمنيّين فيقول:

إِنَّا بَنُـو قَحْطَان لَمْ نُخْـلَقْ لِغَيْـ	ـرِ غِيَاثِ مَلْهُـوفِ وَمِنْـعَةِ لاَجِي
بِسُيُوفِنَـا البِيضِ اليَمَـــانِيَةِ التِي	طُبِعَتْ لِحزِّ غَـلاَصِهِـــمْ وَوِدَاجِ
تَأْبَى لَنَـا الإِحْجَامَ مِـنْ أَعْدَائِنَا	يَوْمَ اللِّقَاءِ طَهَـارَةَ الأَمْشَـــــاجِ
أَنْصَـارُ دِينِ الهَاشِمِيِّ وَحِـــزْبِـهِ	وَحُمَـــاتُهُ فِي الجَحْفَلِ الرَّجْــرَاجِ
وَكَـفَى بِحِكْمَتِنَا إِقَامَـةُ حُجَّـة	وَبِرُكْنِنَـــا مِنْ كَـعْبَةِ الحُجَّـــاجِ[1]

ففخر الشّعراء بأنسابهم العريقة قديم قدم الشّعر العربي، وما افتخار ابن خميس بأجداده إلاّ لِمَا عُرف عنهم من أعمال جليلة؛ فهم قد خُلقوا لإغاثة اللاّجئين ببطش سيوفهم فيأبَون الإدبار أمام الأعداء[2] كما يُشيد بنصرة اليمنيّين لدين الله وحزب رسوله (عليه الصّلاة والسّلام) وقيامهم بأمور الحجّاج لبيت الله الحرام، فقد اختار الشّاعر لهم صفاتٍ تليق بصنيعهم فسمّاهم المغيثين والحُماة والأنصار، غير منصرف لذكر نفسه أو الفخر بها مستخدماً عدداً من المفردات الصّعبة الدالّة على مدى سعة علمه بمفردات اللّغة العربيّة ومعانيها كيف لا وهو الفقيه الصّوفي، والشّاعر الفيلسوف وهي صفات قلّما تتوافق في شخصيّة واحدة.

---

[1]- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، ج1و2، ص (441، 412)، ومن أعلام تلمسان، محمد مرتاض، ص74.

[2]- زيادة على افتخار ابن خميس بأجداده اليمنيّين وفقاً لِمَا يقدّمونه من عظيم الأعمال فهو كذلك يحاول تبكيت أعدائه والحانقين عليه، فنلاحظ نبرة حادّة في شعره توحي بالعتب على هؤلاء القوم الذين تركوا شؤونهم الخاصّة، ومصالحهم العامّة وأقبلوا عليه يتصيّدون نقائصه على الرّغم من أنّه ينتمي أصلاً إلى قبيلة عريقة في القدم، للتّفصيل أكثر ينظر شعر الفقهاء في المغرب العربي في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، محمد مرتاض، ص (208، 209).

-الشّكوى والاستعطاف:

شعر الشّكوى غرض من أغراض الشّعر العربيّ الذي يعبّر الشّاعر من خلاله عن خلجات نفسه وانفعالات ذاته، وسط ما يعانيه من قسوة الغربة ونوائب الدّهر أو ما مسّه وأهله من ويلات الحروب ومتاعب الحياة المختلفة، فيحاول اختيار الكلمات والأساليب المناسبة التي تُفصح للقارئ عن لوعة فراق الشّاعر لوطنه وخلاّنه، وتندب شبابه الضّائع وتتحسّر لغدر الآخرين، فقد شكّلت الظّروف السياسيّة والاجتماعيّة للمغرب الإسلامي نوعاً من الاضطراب ولاسيما بالأندلس، فازدادت هجرة الأندلسيّين إلى سائر مدن المغرب الإسلامي وبخاصّة تلك الحواضر الكبرى شأن بجاية وتلمسان بالمغرب الأوسط؛ خوفاً من الهلاك وبحثاً عن الأمان والاستقرار، فكان من جملة النّازحين الأندلسيّين عزّ الدّولة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صمادح الذي ارتحل بأهله وماله إلى بجاية، وهناك نزل على المنصور فأكرمه وأقطعه مدينة دلس وضواحيها، وبما أنّ عزّ الدّولة كان أديباً فإنّه كتب أبياتاً تتضمّن شكواه من الدّهر وتصوّر غربته وفقدانه السّلطان والنّفوذ فيقول:

لَكَ الحَمْدُ بَعْدَ المُلْكِ أُصْبِحُ خَامِلاً ... بِأَرْضِ اغْــتِرَابِ لاَ أُمِــرُّ وَلاَ أُحْــلِي

وَقَدْ أَصْدَأَتْ فِيهَا الهَوَادَةُ مُنْصُــــلِي ... كَمَا نَسِيَتْ رَكْضَ الجِيَادِ بِهَا رِجْــلِي

وَلاَ مَسْمَعِي يُصْغِي لِنَغْمَــةِ شَاعِــرٍ ... وَكَفِّــي لاَ تَمْتَدُّ يَوْمــاً إِلَى بَــــذْلِ

طَــرِيداً شَــرِيداً لاَ أُؤَمِّــلُ رَجْعَـــةً ... إِلَى مَوْطِــنٍ بُوعِدْتُ عَنْــهُ وَلاَ أَهْــلِ

وَقَدْ كُنْتُ مَتْبُوعــاً فَأَمْسَيْتُ تَابِعــاً ... لَدَى مَعْشَرٍ لَيْسُوا بِجِنْسِي وَلاَ شَكْلِي[1]

فلم يكن عزّ الدّولة في أيّامه الخوالي مَلكاً فحسب بل عُرف عنه حفظه لفنون الأدب والتّواريخ، زيادة على حسن استماعه وإسماعه وقد نظم هذه الأبيات ببجاية شاكياً ممّا أَلَمّ به بأرض غير أرضه، فبعد أن كان مَلكاً يعيش في أبّهة وعزّ يحفّ مجلسه الكتّاب والشّعراء فيغدق عليهم صلاته السنيّة هو اليوم كالطّريد والشّريد الذي فقد أمل الرّجوع إلى ما كان عليه، فالمتأمّل لهذه الأبيات سيتعاطف

[1]- الرّوابط الثقافيّة بين الجزائر والخارج، محمد الطمّار، ص148، والمغرب في حلى المغرب، لابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ، ط4، 1995م، ج2، ص201.

حتماً مع الشّاعر الذي أحسن توظيفه للمفردات وتنويعه في الأساليب التي أفضت للتّأثير في نفسيّة القارئ واستمالته.

وفي غالب الأحيان نجد لغرض الشّكوى اتصالاً وثيقاً بغرض آخر وهو الاستعطاف، فبعدما يذوق الشّاعر مرارة الألم وويلات الحروب والسّجن فإنّه يعمد للتبرّم والشّكوى لِمَا أصابه، فيرفق شعره بالاعتذار أو استعطاف أولي الأمر من أجل استمالة المستعطَف وتذكيره بالولاء التامّ له، ومن أمثلة قصائد الاستعطاف ما نظمه الشّاعر أبو الطّاهر عمّارة البجائي يستعطف والي بجاية الموحّدي أن يشفع فيه وفي أصحابه فيُخلي سبيلهم من معتقلهم فيقول:

سَلاَمٌ كَعرْفِ المَنْدَلِ الرَّطْبِ فِي الجَمْرِ وَإِلاَّ كَمَا هَبَّ النَّسِيمُ عَـلَى الزَّهْـرِ

فَلِلَّـهِ دَرُّ مُقْـلَـتَيْـنِ بِـعَبْـرَةٍ تُعَبِّرُ فَـوْقَ الخَدِّ عَنْ كَامِـنِ السِّـرِّ

وَمَـا طَـائِرٌ فَـوْقَ الغُصُونِ مُسَرَّحٌ كَمَنْ بَاتَ مَقْصُوصَ الجَنَاحَيْنِ فِي وَكْرِ

فَلَـمْ أَنْسَ تَوْدِيـعَ البَنِينَ مُصَفَّـداً وَأَصْـغَرُهُمْ يَجْـرِي وَأَدْمُـعُهُ تَجْـرِي

أَبَـا زَيْـدٍ إِنِّي بِالحُسَـيْنِ وَسِيلَـتِي وَجَدِّي شَفِيعُ النَّاسِ فِي مَوْقِـفِ الحَشْرِ[1]

حيث بعث الشّاعر بهذه الأبيات للوالي مفتتحاً إيّاها بتحيّاته العطرة التي شبّهها بريح الزّهور، لينتقل لوصف ما آل إليه من حزن داخل السّجن والدّموع لا تفارق عينيه، فبعدما كان كالطّائر ينعم بالحريّة هو اليوم مأسور في وكره، ولكنّ أكثر ما راعه من الموقف كان مشهد توديع ذويه وهو مكبّل، يصاحبه بكاء ابنه الصّغير، لذا نجده يختم حالته باستعطاف الوالي والتوسّل إليه بالحسين ثمّ يتشفّع بخير الأنام، فلم يجد المستعطَف بُداً من إطلاق سراحه والعفو عنه.

كما يصوّر الشّاعر أبو الرّبيع الموحّدي معاناته في عدد من الأبيات التي نظمها ليستعطف الخليفة يعقوب المنصور بعدما استبعده لتفريطه في ولايته فيقول في إحداها:

[1]- عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص47.

رِضَـــاكَ أَمِيـــرَ المُؤْمِنِيـــنَ فَإِنَّـنِي أُعَالِجُ بَيْنَ العُذْرِ وَالذَّنْبِ مُشْكِلاَ

أُبَرِّئُ نَفْسِي أَنْ عَلمْتَ خُلُوصَهَـــا وَأُعْتِبُـــهَا أَنْ لَــمْ تَفُزْ بِـــكَ أَوَّلاَ

أَلاَ فِي ضَمَانِ اللهِ نَفْسِي مِنَ الرَّدَى إِذَا كُنْتَ لِي فِي زَلَّـــــتِي مُتَـــأَوِّلاَ

وَفِي حِفْظِهِ مِنْ كُـــلِّ سُوءٍ أَخَـــافُهُ إِذَا كُنْتَ لِي حِرْزاً حَرِيزاً وَمَوْئِـــلاَ

وَمَنْ جَـــاءَ فِي إِخْلاَصِـــهِ مُتَرَضِّـياً فَقَدْ جَــاءَ مِنْ تَقْصِيرِهِ مُتَنَصِّـــلاَ[1]

حيث نلاحظ من قراءة الأبيات ما يعانيه الشّاعر من جرّاء استبعاده من لَدُنِ الخليفة وجفائه عنه، وهو ما جعله يتبرّم من حاله ويسعى للاعتذار من المنصور، ويحاول تأكيد إخلاصه معترفاً ومقراً بذنوبه مدركاً أنّه إن لم يَفُزْ برضاه فسيظلّ في ضيق وكرب، وقد استعمل من أجل استعطاف الخليفة أسلوباً يعمد فيه إلى التذلّل واستصغار شأنه حتّى يكسب ودّه وينال رضاه.

-الشّوق والحنين:

يعدّ شعر الشّوق والحنين من أقدم أغراض الشّعر العربي أيضا، وأكثرها رواجاً بين الشّعراء، فهذا النّوع من الشّعر وطيد الصّلة بين الشّاعر ووطنه الذي يبذل في سبيله كلّ غالٍ ونفيسٍ، وكلّما ابتعد عنه يجذبه الحنين ويغمره الاشتياق للرّجوع إليه ولقاء أهله وخلاّنه، فنجده يلجأ لنظم القصائد ليعبّر من خلالها عمّا يخالجه من مشاعر دفّاقة لتكون الأنيس الوحيد له في غربته، ومن هؤلاء الذين جرفهم الحنين لأوطانهم فعاشوا غرباء في بلدان أخرى محمد بن الأبّار البلنسي نزيل بجاية الذي استشعر الوحشة وهو بعيد عن الوطن والأهل والأصحاب، فنظم أبياتاً يتأوّه فيها من الزّمن ويحنّ إلى مرابع الأندلس فيقول:

إِلَى الإِلْفَـــيْنِ مِنْ أَهْـــلٍ وَدَارِ تَأَوّبَنِي اشْتِيَـــاقِي وَادِّكَـــارِي

وَحَنَّ القَلْبُ أَعْشَاراً إِلَيْهَـــــا حَنِـــينَ الوَالِهَاتِ مِـــنَ العِشَارِ

فَبِتُّ كَـــأَنِّي تَوْقـــاً وَشَوْقـــاً عَلَـــى مِثْلِ الأَسِنَّةِ وَالشِّفَـــارِ

---

[1]- ديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي وآخرون، ص145.

وَمَا حَشْوُ الضُّلُوعِ سِوَى أُوَارٍ وَمَا نَوْمُ الجُفُونِ سِوَى غِرَارِ[1]

حيث صوّر الشّاعر حنينه إلى بلاده وأهله بحنين العشار؛ وهي تلك النّوق البالغة منتهى مدّتها من الحمل فتُعرف بأنّها من أكثر النّوق حنيناً، فإذا علا صوتها حرّك المشاعر ولاسيما هؤلاء المغتربون كحال الشّاعر، فاشتياقه قد بلغ أقصاه فلجأ لتشبيهه بحنين النّوق والعشار منها بوجه خاصّ، حيث حُرم لذّة النّوم فبات يتُوق للرّجوع إلى الموطن ولكن لا سبيل لذلك، وكأنّه يبيت يتألّم من شدّة الأسى كوقع الأسنّة والشّفار وسط لهيب الفؤاد المستعر، فلا مجال أمامه لتخفيف المعاناة سوى تذكّر أيّام الشّباب فهي كفيلة بمنحه بعض الأمل لمواصلة الحياة.

ونتابع الحديث عن شعر الحنين فيظهر لنا ما أنتجه الشّاعر ابن خميس التّلمساني وهو يشدو بمسقط رأسه تلمسان ويتشوّق لرؤية مناظرها الخلاّبة والتجوّل في ربوعها الأخّاذة، فنجده يعبّر بكلّ صدق عمّا يخالجه من أشواق حارّة فيقول:

أَلاَ لاَ تُذَكِّرِينِي تِلِمْسَانَ وَالهَوَى وَمَا دَهَكَتْ مِنَّا الخُطُوبُ الدَّوَاهِكُ

فَإِنَّ ادِّكَارَ مَا مَضَى مِنْ زَمَانِهَا لِجِسْمِي وَلِلصَّبْرِ الجَمِيلِ لَنَاهِكُ

وَلاَ تَصِفَنَّ أَمْوَاهَهَا لِي فَإِنَّهَا لِنِيرَانِ أَشْوَاقِي إِلَيْهَا مُحَاوِكُ

وَمَنْ حَالَ عَنْ عَهْدٍ أَوْ أَخْفَرَ ذِمَّةً فَإِنِّي عَلَى تِلْكَ العُهُودِ لَرَامِكُ

سَقَى مَنْزِلِي فِيهَا وَإِنْ مَحَّ رَسْمُهُ عِهَادُ الغَوَادِي وَالدُّمُوعُ السَّوَافِكُ[2]

فقد كان لرحيل الشّاعر عن تلمسان وقع كبير في أبياته، والقارئ لِمَا كتبه سيلمس لا محالة رقّة إحساسه وحنينه لوطنه الأم، حيث راح يتذكّر ما قضاه من جميل الزّمن فيها بمياهها العذبة التي ستمحو نيران أشواقه، وهو بوقوفه على معالمها دائم الحنين والبكاء على غدر الزمان الذي تسبّب في فراقه عنها، معاهداً نفسه على تذكّرها، وكيف له أن ينساها! وقد علقت بذاكرته، فلا سبيل لتخفيف ألَمِه سوى تلك الذّكريات المحفوظة ليسترجعها ويقلّب ثناياها في قصائده.

[1]- ديوان ابن الأبّار، أبي عبد الله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي، قراءة وتعليق عبد السّلام الهرّاس، ص210.

[2]- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مج2، ص 533.

-الموشّحات:

الموشّح فنّ من فنون الشّعر الغنائي، استحدثه الأندلسيّون بعدما أَلْهَمَتْهُمْ طبيعة الأندلس السّاحرة حبّ الجمال ورقّة الإحساس، فراحوا يتغنّون في مجالس الطّرب بكلّ ما سحر أعينهم واستملحته أنفسهم، وقد لقي هذا الفنّ رواجاً كبيراً ولاسيما في بلاطات الحكّام بدعوى أنّ أوزان الشّعر التقليديّة وقوافيه أصبحت غير قادرة على مواكبة الموسيقى والغناء[1] وبرز فيه شعراء كثر أسهموا في تهذيبه وتطويره، وبحكم ذلك التّواصل الثّقافي بين الأندلس وسائر مدن المغرب الإسلامي فإنّ تأثيرات هذا الفنّ وصلت إلى معظم حواضر العلم بالمغرب الأوسط، فأجاده شعراؤها ونظموا فيه من أمثال أبي مدين شعيب الأشبيلي حين قال:

كُــلٌّ وَاحِدٍ لَهُ نَصِيبٌ يَأْتِي   وَهَــــــوَاكَ لِي نَصِيبْ

يَــا حَيَــاتِي وَأَنْتَ فِي ذَاتِي   حَـــاضِرٌ لاَ تَغِيــــبْ

***

أَنْتَ أَسْكَرْتَنِي عَلَى سَكَرِي   مِنْ قَــدِيمِ الشَّـــرَابْ

ثُمَّ خَاطَبْتَنِي كَمَـا تَـــدْرِي   فَفَهِمْتُ الخِطَـــابْ

ثُمَّ شَاهَدْتُ وَجْهَكَ البَدْرِيّ   عِنْدَ رَفْعِ الحِجَــابْ[2]

فقد طرق الشّيخ أبو مدين شعيب هذا الفنّ؛ فاتّجه فيه اتجاهاً دينياً لِمَا عُرف عنه من زهد وتصوّف ليعبّر من خلاله عن مواجيده وحبّه الاسمي لله وحده، فهو حاضر في ذاته دائماً مستعملاً أسلوب الإشارة أو الرّمز للبوح بمكنوناته، حيث يذكر السُّكْرَ والشّراب ليُبيّن لحظات الوجد والفناء

[1]- زيادة على خروج فنّ الموشّح عن أوزان الشّعر التقليديّة وقوافيه، فإنّه يستخدم في بعض فقراته اللّغة العاميّة، وينحى منحاً مغايراً في النّظم وترتيب الأبيات، فنجده يتألّف من أقفال وأبيات، فالأقفال هي ما اتّفقت وزناً وأجزاءً وقافية، والأبيات هي ما اتّفقت وزناً وأجزاءً واختلفت قافية، والأندلسيّون لم يلتزموا في الموشّح قافية واحدة أو وزناً واحداً، فهو تابع لما تقتضيه الأنغام، للتّفصيل أكثر ينظر تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمّار، ص200.

[2]- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدرّاجي، ج2، ص45.

في ذات الله، وشوقه الكبير لرؤية وجهه تعالى يوم رفع الحجاب، ويبدو أنّ هذه المعاني بسيطة ومفهومة تصف مجاهدات الشّاعر في سبيل الحصول على رضا الخالق، وتحفّز القارئ على التّوبة وقهر شهوات النّفس لإدراك الحبّ الحقيقي وهو الحبّ الإلهي.

وقد كان ممّن برع في نظم الموشّحات أيضا الشّاعر شمس الدّين محمد بن عفيف الدّين التّلمساني، فيقول في نموذج من موشّحاته:

قَمَرٌ يَجْلُو دُجَى الغَلَسِ   بَهَرَ الأَبْصَارَ مُذْ ظَهَرَا

آمِنٌ مِنْ شَيْنَةِ الكَـلَـــفِ

ذُبْتُ مِنْ حُبِّهِ بِالكَلَـــفِ

وَلَمْ يَزَلْ يَسْعَى إِلَى تَـلَفِي

بِرِكَابِ الدّل وَالصِّلـــفِ

آهٍ لَوْلاَ أَعْيُنُ الحَـــرَسِ   نِلْتُ مِنْهُ الوَصْلَ مُقْتَدِراً

يَا أَمِيرا جَار مُذْ وَلِيـــــا

كَيْفَ لاَ ترْثِي لمن بَلِيَـــا

فَبِثَغْرٍ مِنْـــــكَ قــد جلِيَا

قَدْ حَلاَ طَعْمَـــا وَقَدْ حَلِيَا[1]

[1]- تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمّار، ص201، وديوان الشّاب الظّريف، شمس الدّين محمد بن عفيف الدّين سليمان التّلمساني، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النّجف، النّجف الأشرف، دط، 1967م، ص (294، 295).

فالشّاعر في نظمه هذا قد ضمّن الغزل لموشّحه؛ فنجده يُطلق المعاني والصّور والتّشبيهات الدالّة على جمال المرأة، فهو يشبّهها بالقمر الذي يُضيء دُجى اللّيل ويُبهِر الأعين لدى سطوعه، وهي في تمنّعها ودلالها تعذّب عاشقها الذي يتمنّى وصالها لينعم بلحظات من السّعادة رفقتها، فقد أبان هذا الشّاعر عن رقّة إحساسه في تصوير لوعة الفراق وحرارة الانفعالات، وهي نفسها السّمات البارزة في غزل الوشّاحين حتّى تناسب ألفاظها الرّقيقة وعباراتها السّلسة نهج الغناء.

-الشّعر التّعليمي:

وهو لون من ألوان الشّعر العربي اقتضته ضرورة ازدهار العلوم وتقدّمها، حيث اتّجه الشّعراء لنظم القصائد والأراجيز في شتّى أنواع العلوم والآداب والمعارف؛ لغرض تسهيل فهمها ثمّ حفظها ولاسيما للطلاّب والأجيال الصّاعدة، وبالرّغم من أنّ هذا النّوع من الشّعر لا يقوم على العاطفة والخيال فإنّه شِعر من حيث الإطلاق وصفة النّظم، يسعى ناظمه لتحقيق هدف معيّن وهو نشر العلم وتعميمه، وكما عُرف الشّعر التّعليمي منذ القدم اعتاد الشّعراء على استعمال بحور الشّعر العربي المعروفة، فكان النّصيب الأوفر فيها لبحر الرّجز ومنه سُمّيت هذه القصائد بالأراجيز، وأمّا الشّعراء المغاربة فكان لهم نصيب من هذا النّظم؛ نورد منهم اسم عَلَمٍ من أعلام بجاية وهو ابن معطي الزّواوي الذي نظم أوّل ألفيّة في النّحو تتضمن كلّ أبواب النّحو، وما فيها من أبواب صرفيّة وعروضيّة يقول فيها:

بِاللهِ رَبِّي فِي الأُمُورِ أَعْتَصِـــــــــمْ	القَــوْلُ فِي حَـــدِّ الكَـلاَمِ وَالكَـلِمْ
اللَّفظُ إِنْ يُفِـدْ هُوَ الكَــــــــلاَمُ	نَحْوُ:مَضَـى القَــوْمُ وَهُـــمْ كِـــرَامُ
تَأْلِيفُـهُ مِـنْ كَلِمٍ وَاحِـدُهَـــــا	كَـلِمَـةٌ أَقْـسَامُـهَا أَحُـدُّهَـــا
وَهْيَ ثَلاَثٌ لَيْسَ فِيهَا خُلْـــفُ	الاسْـــــمُ ثُمَّ الفِعْـــلُ ثُمَّ الحَـــرْفُ [1]

[1]- ينظر الدرّة الألفيّة ألفيّة ابن معطي في النّحو والصّرف والخطّ والكتابة، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي المغربي، ضبط وتقديم سليمان إبراهيم البلكيمي، ص(17، 18).

ثمّ يواصل قائلا:

فَالاسْمُ مَا أَبَانَ عَنْ مُسَمَّـــى فِي الشَّخْصِ وَالـمَعْنَى الـمُسَمَّى عَمَّا

وَالفِعْـلُ مَـا دَلَّ عَلَى زَمَـــان وَمَصْـــدَرٍ دَلاَلَـــةَ اقْـتِــــرَانِ

وَالحَـرْفُ لاَ يُفِيـدُ مَعْـــنًى إلاَّ فِي غَـيْرِهِ كَهَـــلْ أَتَـــى الـمُعَـلاَّ[1]

حيث ابتغى ابن المعطي من ألفيّته في النّحو تيسير قواعد اللّغة العربيّة للحفّاظ، ونشرها بين النّاس ابتداءً باللّفظ وأقسام الكلام من أسماء وأفعال وحروف، لينتقل إلى علامات الإعراب وغيرها من القواعد التي يصعب الإلمام بها كلٌّ على حِدىً في زمنٍ وجيزٍ، كما أنّه يعتمد على عدّة أساليب وتقسيمات تمكّن القارئ من تمييز القواعد وتصنيفها مدعّماً إيّاها بالتّعليل والشّواهد التي تعمّق الفهم، ويساعدها في ذلك كلّه ذلك الإيقاع الموسيقي الذي يحبّبها للآذان فيُقبل عليها المتعلّمون ويحفظونها، وبذلك يكون ابن المعطي قد أسهم إسهاماً فعّالاً في ميدان المنظومات التعليميّة وأبان عن حذقه وتمكّنه من العربيّة وقواعدها، وقدرته على عرضها في قالب شعريّ متميّز.

وزبدة القول إنّ الأدباء المغاربة باختلاف مشاربهم كانت لهم إسهامات قيّمة في فنَّي المنظوم والمنثور، لا تقلّ أهمّية من سائر النّتاجات الأدبيّة المغربيّة والمشرقيّة، فجاءت تعبّر في جملتها عن ذلك الأدب المتميّز الذي سجّل به علماء بجاية وتلمسان حضورهم في السّاحة الأدبيّة المغربيّة، فانتشرت مصنّفاتهم الأدبيّة الرّائقة عبر مختلف المكتبات العربيّة والغربيّة.

وأخيراً فإنّه من خلال استعراضنا لمدى تأثير مدينتي بجاية وتلمسان في الازدهار الثّقافي لسائر مدن المغرب الإسلامي، يتجلّى لنا ذلك التّفاعل الحاصل بين هذه المدن فيظهر ذلك في الآتي:

---

[1]- ينظر الدرّة الألفيّة ألفيّة ابن معطي في النّحو والصّرف والخطّ والكتابة، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي المغربي، ضبط وتقديم سليمان إبراهيم البلكيمي، ص (17، 18).

- عُدّت كلٌّ من بجاية وتلمسان من أرقى الحواضر العلميّة والثّقافيّة بالمغرب الأوسط، فاستطاعت كلّ واحدة أن تخلق التّميّز، فضلاً عن ذلك التّواصل الأزليّ بينهما.
- قدّمت الحاضرتان أعمالاً جليلة في ميدان العلم والفكر، وفضلهما على سائر مدن المغرب الإسلامي عظيم مسّ مختلف مجالات الحياة الثّقافيّة، بل أسهم في تمتين الرّوابط بين أرقى الحواضر.
- برع علماء الحاضرتين في إجادة العديد من فنون النّظم والنّثر، فعبّروا من خلالها عن ظروفهم ومكنوناتهم، فكانت أعمالاً أدبيّة رائقة اتّسمت بصبغة متميّزة صارت تضاهي أعمال المشارقة والأندلسيّين.

خاتمة

إنّ الرّوابط الثّقافية والحضارية بين حواضر المغرب الأوسط وسائر مدن المغرب الإسلامي والأندلس قديمة قِدَمَ الفُتوح الإسلاميّة لبلاد المغرب، فقد عرفت المدن ازدهاراً واضحاً عبر مختلف العهود، خلّف تفاعلاً وتمازجاً متبايناً بين أبرز المراكز ولاسيما بجاية وتلمسان بسائر مثيلاتها بالمغرب الإسلامي والأندلس، فقد كان للمدينتين دور فكريّ وثقافيّ هامّ في المنطقة إبّان القرن الخامس الهجري، ليبلغ أوْجه بحلول القرنين السّادس والسّابع الهجريّين، فتوطّدت العلاقات في شتّى المجالات وبخاصّة في المجالين العلميّ والثّقافيّ فغدت الحاضرتان من أبرز مراكز الإشعاع الفكريّ، ومن خلال دراستنا لهذا الدّور العلمي الهامّ لهما توصّلنا إلى جملة من النّتائج هي كالآتي:

- مدلول مصطلحي الثّقافة والحضارة واسع ومتشعّب، دفع الباحثين للتّنافس حول إيجاد مفهوم دقيق ومحدّد لكلّ مصطلح، فانبرى بعضهم لجعل الثّقافة نِتاج العقول من معرفة، في حين أنّ الحضارة هي التّجسيد المادّي لها، أمّا البعض الآخر فدمج المصطلحين في مسمىً واحد له وجهان، ذاتي وموضوعي يأبى الفصل بين المظاهر المعنويّة والمادّية التي تتضافر معاً لإنشاء نُظم الأمّة الاجتماعيّة والثّقافيّة والحضاريّة.

- نبغ علماء الحواضر الإسلاميّة في شتّى الآداب والعلوم والفنون، فطبعوها بهوّيتهم العربيّة والإسلاميّة وسخّروها لخدمة ديننا الحنيف ولاسيما في مجال العلوم؛ فازدهرت على أيديهم علوم الشّريعة بغية معرفة الأحكام وتصحيح المعتقدات، تلَتها علوم اللّسان التي من شأنها تقريب المفاهيم وتبيان أصول المقاصد بالدّلالة، فضلا عن معرفة أخبار الأمم وسِيَرها وآدابها، بالإضافة لإتقان سائر العلوم العقليّة التي تميّز الإنسان عن غيره من حيث امتلاكه الفكر الحرّ والمبدع، فتوسّعُ مداركه وتدفعه لاكتساب الجديد والمفيد في مجال العلم وهو ما يزيده رُقياً وتحضّراً.

- شهد المغرب الأوسط بروز عدد معتبر من المراكز العلميّة والثّقافيّة عبر أرجائه، تبعاً لِمَا شهده من تعاقب الحكومات والدّول التي أسهمت في نشأة هذه المراكز ودفعها للازدهار في شتّى المجالات، فأصبحت بحقّ مراكز حضاريّة رائدة ذاع صيتها في كلّ مكان، فمنها من واصلت مسيرتها خلال العهود اللّاحقة ومنها من خبت أو انصهرت ضمن حواضر أخرى، لتسجّل كلّ من حاضرتي بجاية

وتلمسان حضوراً متميّزاً بفضل ما عرفته من تطوّرات هائلة بالموازاة مع عواصم العلم المغربيّة والمشرقيّة الأخرى.

- اتّسعت حاضرة بجاية وتحوّلت إلى منارة علميّة وثقافيّة، بفضل ما أولاه حكّامها وأمراءها من اهتمام بالعلم وتقريب لأهله، وإغداق الأموال عليهم وتشجيعهم بالمشاركة رُفقَتهم، فازدهرت العلوم والعمران ابتداءً بالحمّاديين فالموحّدين، وصولاً إلى الحفصيّين، حيث قصدها العلماء والأدباء والشّعراء واتّخذوها موطناً ينهلون من معين علومه ومعارفه ما استطاعوا، واضعين بصماتهم الجليلة ومتنافسين في ضروب النّشاط الثّقافي والفكريّ.

- حرص أبناء بجاية على توفير سائر وسائط المعرفة، فعمروا أرجاء الحاضرة بأنواع المعاهد الدّينيّة والتّعليميّة على اختلافها تبعاً لِما تُسهم به من توصيل المعرفة وتنويع طرق استيعابها، فاحتلّت المساجد الصّدارة لجمعها بين الوظيفة التّعبّدية والتّعليميّة، تلتها الكتاتيب والزّوايا، لتضطلع المدارس بالعمليّة بشكلٍ منظّم، يؤازرها في ذلك ما أنيط بالمكتبات من أهميّة بالغة في حفظ المعلومات ونشرها؛ وقد انتشرت هذه المؤسّسات بكثرة ببجاية وقصدها الطّلبة والعلماء من كلّ حدب وصوب.

- تَوَفُّرُ مؤسّسات التّعليم ببجاية وكثرتها لا يُؤتي أُكُله من دون تعليم منظّم ومُمنهج، فقد اعتنى المدرّسون بمهمّة تربية الطّلبة دينياً وعلمياً، وإيجاد الأساليب والمناهج القويمة التي تكفل شرح الدّروس، وحسن تلقينها وفق قواعد مضبوطة ومراحل محدّدة تضمن توفير الجوّ العلمي للمدرّس والدّارسين على حدٍّ سواء، فضلاً عن التحرّي الدّائم عن جملة التّدابير والإجراءات المساعدة على تطوير طرق التّعليم من خلال تلك المؤلّفات الشّارحة لحقوق المعلّم والمتعلّم وواجبات كلٍّ منهما، فنبغ بالحاضرة شيوخ أجلاّء أسهموا في رفد العمليّة التّعليميّة وقد تخرّج على أيديهم علماء كُثُر من كلّ مكان.

- برع علماء بجاية في العديد من العلوم التي تعلّموها ودرّسوها بدورهم للطّلبة؛ فألمّوا بالعلوم الدّينيّة وأولوها درجة عاليّة من الاهتمام لارتكازها على كتاب الله وهو دستور المسلمين في دُوَلِهِمْ، وسنّة نبيّه المصطفى الأمين، وفي السّياق ذاته حظيت لديهم الدّراسات اللّسانيّة بالاهتمام فأتحفوا مجالسهم بتدارُسها وتبسيطها، غير متناسين تداول العلوم العقليّة وإطلاق العنان لعقولهم من أجل

التّفكّر والتّجريب، فزاد الاهتمام بسائر هذه العلوم وانبرى العلماء في تصنيف المؤلّفات الفريدة حولها ما من شأنه تكوين إنتاج علمي متنوّع المشارب.

- نالت تلمسان حظوة بين مثيلاتها من المراكز العلميّة الكبرى بالمغرب الإسلامي، حيث غدت من أرقى مدن العلم والمعرفة التي تضافر في تكوينها سائر أبناء الحاضرة علماءً وحكّاماً منذ القدم وصولاً إلى عهد المرابطين، فالموحّدين والزّيانيّين، فهؤلاء جميعاً قد ملكوا نزعة علميّة متوارثة وظّفوها لحماية الدّين ونشره وخدمة للعلم وأهله؛ فانضوت مختلف الأجناس من محلّيين ووافدين تحت لوائهم في محاولة للرّفع من مستوى الحركة الفكريّة والثّقافيّة للمدينة، ودعم كلّ عالِم مُبدع خلاّق وكلّ ما يمتّ للعلم بِصِلَةٍ من قريب أو من بعيد.

- سعى حكّام تلمسان وعلماؤها لإثراء نشاط الحركة العلميّة والأدبيّة بالحاضرة، عن طريق تشييد منشآت تعليميّة متعدّدة تيسّر عمليّة تلقين العلوم والمعارف للأجيال في جوّ منظّم، فازدهر عمل المساجد والكتاتيب وانتشرت الزّوايا والرّبط، وصارت كلّ واحدة من هذه المؤسّسات الدّينيّة تزاول عملها التّعبّدي والتّعليمي وسط فضاء من الخشوع والتّآلف، ورفعاً للضّغوط الحاصلة عليها تمّ تحويل مهمّة التّعليم للمدارس حتّى تتكفّل بالعمليّة وتعمل على تخريج أجيال من الطّلبة المثقّفين من داخل تلمسان وخارجها، وتثري رصيد مكتباتهم العامّة والخاصّة بأمّهات الكتب في شتّى ألوان العلوم.

- ازدهرت حركة التّعليم بتلمسان وتعدّدت أشكالها، فقد دأب المربّون على تربية الطّلبة وفق ما جاء به الإسلام من تعاليم، وتلقينهم سائر المعارف حسب تدرُّجهم في مراحل التّعليم، يوجّههم في ذلك مدرّسون وشيوخ أكفاء باختلاف تخصّصاتهم عقدوا العزم على تحسين نُظُمِ التّعليم والارتقاء بها، ما يتماشى وازدهار العلوم في أرقى حواضر المشرق والمغرب؛ وهو ما أفسح المجال لتفتّق المواهب الإبداعيّة لطلبة اليوم وعلماء الغَدِ وشيوخه.

- خلّف علماء تلمسان تراثاً علمياً وأدبياً متنوّعاً، أسهم في ازدهار سوق العلم والمعرفة، فقد وجّهوا نصيباً كبيراً من الرّعاية لعلوم الشّريعة ما أدّى لانتشارها وكثرة تداولها، فصارت تلمسان

تعجّ بالفقهاء والقرّاء والمحدّثين، وعلماء التّفسير الذين سجّلوا مشاركاتهم القيّمة في سجلّ الحضارة، مستعينين بفرع الدّراسات اللّسانيّة والاجتماعيّة والأدبيّة لِما لها من فضل في إثراء رصيدهم اللّغوي والثّقافي، إلى جانب براعتهم في حلّ المسائل المغلقة الواردة في شتّى العلوم العقليّة المكمّلة لعمليّة التّحصيل العلمي، فظهرت على أيديهم مصنّفات رائقة تناقلتها الأمم جيلاً بعد جيل.

- حظيت كلٌّ من بجاية وتلمسان بالانتعاش الفكري والازدهار العلمي ضمن حواضر المغرب الإسلامي، فحاولت كلّ واحدة أن تستأثر بالرّيادة، إلاّ أنّ علمائهما استطاعوا أن يخلقوا نوعاً من التّفاعل والتّبادل الفكري الذي وطّد الصّلات بين الحاضرتين بالرّغم من توالي العهود واضطراب الأحوال السّياسيّة فإنّه سمح بوجود الكثير من نقط التّلاقي بينهما، أبرزها تلك الرّحلات العلميّة، وحركة تبادل المصنّفات الفريدة والإجازات العلميّة ما أتاح لبعض الباحثين تسميتها بتوأمتي المغرب الأوسط.

- شاركت بجاية وتلمسان في إثراء الرّصيد العلمي والثّقافي لمدن المغرب الإسلامي والأندلس، فقد أسهم علماء الحاضرتين في رفد مشعل العلم والحضارة، والسّعي لتكوين علاقات علميّة مع سائر الحواضر المغربيّة والأندلسيّة؛ ما من شأنه تعميق التّواصل والتّحصيل، وهناك خُصُّوا بترحيب واسع من لدن أشقّائهم وحظوا بالاهتمام والاحترام في كلّ من المغرب الأدنى والمغرب الأقصى والأندلس على حدّ سواء، فكانت لهم بصمات جليلة في مختلف الآثار والعلوم تعكس لَمسَتهم الخاصّة في بناء صرح الحضارة إلى جانب أقرانهم.

- بقدر ما وجّه علماء الحاضرتين أنظارهم إلى شتّى مدن المغرب والأندلس لإشفاء غليلهم من منهَلها العلميّ الدفّاق، فقد شكّلتا قبلة علميّة ومركزاً ثقافياً زاخراً بكمٍّ هائل من المعاهد التّعليميّة، والعلماء الأجلاّء بمصنّفاتهم القيّمة، فلم يجد العلماء وطلبة العلم بحواضر المغرب الإسلامي بُداً من الارتحال إلى هتين الحاضرتين، ولاسيما المهاجرين الأندلسيّين منهم حاملين معهم ثقافتهم الغنيّة وخبراتهم الفنيّة ليشاركوا رفقة إخوانهم -بوطنهم الثّاني- في تفعيل عمليّة التّلاقح العلمي والحضاري بحوض البحر المتوسّط.

- شارك أدباء مدينتي بجاية وتلمسان بنصيب هائل من النّصوص النّثريّة والشّعريّة بعدما جادت قرائحهم بإنتاجات أدبيّة رائقة، إيماناً منهم بقدرة الأدب على التّعبير عن قضاياهم وظروفهم المتنوّعة في مجتمعاتهم، وتكشف عن ملكتهم اللّغويّة وموهبتهم الإبداعيّة في فنّي المنظوم والمنثور اقتداءً بما عهدوه من نُظُمٍ وأساليب تقليديّة، وبما أضافوه من ميزات جديدة تشهد لهم بالسّبق والتّميّز.

- تنوّعت الفنون النّثرية بالحاضرتين بحسب الظّروف المعاشة، فتراوحت بين الرّسائل والخطب والتّوقيعات، وكذا الوصايا والحكم، فضلا عن ما دُوِّن في أدب الرّحلة وسير الأعلام وتراجمهم، حيث واصل الأدباء السّير على منوال سابقيهم، كما عمدوا لاستحداث أساليب جديدة اصطبغت بنزعتهم الدّينيّة الواضحة، وميلهم البارز لاستعمال المنطق والفكر بغية نشر الدّين والعلم، فجاءت كتاباتهم مميّزة في شكلها ومضمونها وقد تداولها الكثير من الكتّاب بعدهم ونسجوا على منوالها، ما أكسب كتّابها منزلة أدبيّة وشهرة طارت في الآفاق.

- وعلى غرار ازدهار الفنون النّثريّة بالحاضرتين فإنّ الشّعراء قد اتّخذوا من الفنون الشّعريّة سبيلاً بارزاً للتّعبير عن ملامح ثقافتهم الأصيلة، حيث تقاطعت تجاربهم على اختلاف مشاربهم فنظموا في عديد الأغراض من زهد ومدائح نبويّة، إضافة إلى الوصف والمدح، وكذا الغزل والرّثاء وغيرها، وهو ما يعكس مشاركتهم الفعّالة في النّهوض ببعض أغراض الشّعر التّقليديّة، فضلا عن تفتّق قرائحهم الشّعريّة في إضفاء لَمسَات فنّية مغايرة، تولّدت في إطار المنافسة الشّديدة بينهم لتجويد أشعارهم التي أبانت عن تمسّكهم بالدّين الحنيف، وسعة ثقافتهم فشهدت لهم بالبراعة في النّظم من رَحِمِ بيئتهم المغربيّة، وعبّرت عن تراكم تجاربهم وإبداعاتهم بين أقرانهم.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أوّلا: المصادر والمراجع:

1.ابن تومرت، رشيد بورويبة، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1982م.

2.ابن خميس شعره ونثره، الطّاهر توات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983م.

3.الاتّجاهات الثقافيّة في بلاد الغرب الإسلاميّ، بشير رمضان التليسي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.

4.الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973، مج1، مج2، مج4.

5.أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين، أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّى البيذق، دار المنصور للطّباعة، الرّباط، دط، 1971م.

6.آداب المعلّمين، لابن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، الشركة التونسية للنشر، تونس، ط2، 1972م.

7.أدب الرّحلات، حسين محمد فهيم، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، الكويت، دط، 1989م.

8.أدب الرّحلة عند العرب، حسني محمود حسين، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1983م.

9.أدب الرّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز عبد النّبي القيسي، دار البشير للنّشر والتّوزيع، عمّان الأردن، ط1، 1989م.

10. الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمد أبو رزّاق، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1979م.

11. أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، دار الأمل للدّراسات والنّشر، الجزائر، دط، 2011م، ج1، ج2.

12. الأدلّة البيّنة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة، أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشّماع، تحقيق الطّاهر بن محمد المعموري، الدّار العربية للكتاب، تونس، دط، 1984م.

13. إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، دار البصائر للنّشر، الجزائر، دط، 2011م، ج1،ج2.

14. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ،1998م، ج1.

15. الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، أبي العبّاس أحمد بن خالد النّاصري، تحقيق جعفر النّاصري ومحمد النّاصري، دار الكتاب للنّشر، الدّار البيضاء، دط، 1954م، ج2.

16. انتصارات يوسف بن تاشفين، حامد محمد الخليفة، مكتبة الصّحابة للنّشر، الإمارات، الشّارقة، ط1، 2004م.

17. أنس الفقير وعزّ الحقير، لأبي العبّاس أحمد الخطيب الشّهير بابن قنفذ القسنطيني، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعة أكدال، الرباط، دط، 1965م.

18. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ ، دار الطّباعة المدرسيّة، أوبسال بالسويد، دط، 1943م.

19. باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1999م.

20. باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2011م، ج1.

21. بجاية حاضرة البحر ونادرة الدّر، تواتي بومهلة، دار المعرفة للنشر، الجزائر، دط، 2010م.

22. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد الملقّب ابن مريم الشّريف الملّيتي المديوني التّلمساني، مراجعة محمد بن أبي شنب، المطبعة الثّعالبية، الجزائر، دط،1908م.

23. بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، أبي زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، مطبعة بيرفو نطانا الشّرفية، الجزائر، دط، 1903، ج1.

24. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المرّاكشي، تحقيق إحسان عبّاس ، دار الثّقافة للنّشر، بيروت لبنان، ط3، 1983م، ج4.

25. تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي، روبار برنشفيك ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ج1، ج2.

26. تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمّار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط ،2006م.

27. تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه، أعلامه وفنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار الإرشاد للنّشر، حمص دمشق، ط1، 1992م.

28. تاريخ الأدب العربي عصر الدّول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1995م.

29. تاريخ الثّقافة الجزائرية منذ العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال، صالح بن نبيلي فركوس، دار أيدكوم للنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013م، ج1.

30. تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981م، ج1.

31. تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط7، 1994م، ج1، ج2.

32. تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م، ج2.

33. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي للنشر، بيروت لبنان، دط، دت، ج2.

34. تاريخ الدّولتين الموحّدية والحفصيّة، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس،ط2، 1966م.

35. تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب للنّشر، الدّار البيضاء، دط، 1964م.

36. تاريخ المغرب العربي-المرابطون صنهاجة الصّحراء الملثّمون في المغرب والسّودان والأندلس-، سعد زغلول عبد الحميد، منشأة المعارف جلال حزّي وشركاه، الإسكندرية، ط1، 1995م، ج4.

37. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق محمود آغا بوعياد، موفم للنّشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2011م.

38. تاريخ دولتي المرابطين والموحّدين في الشّمال الإفريقي، علي محمد الصّلابي، دار المعرفة للنشر، بيروت، ط2، 2005م.

39. التّراث الأدبي للمغرب العربي، عبده عبد العزيز قلقيلة، عالم الكتب للنشر، القاهرة، دط، 1979م.

40. التّربية الإسلاميّة في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، د ط، 1987م.

41. التّربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف للنشر، القاهرة، دط، 1968م.

42. التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، صفية ديب، مؤسّسة كنوز الحكمة للنشر، الجزائر، دط، 2011م.

43. التّصنيف اللّغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحّدين، فاتن كوكة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ط1، 2012م.

44. تعريف الخلف برجال السّلف، لأبي القاسم محمد الحفناوي بن الشّيخ بن أبي القاسم الدّيسي بن سيدي إبراهيم الغول، مطبعة بير فونتانة الشّرقية، الجزائر، دط، 1906م، المجلد02.

45. التّعليم بتلمسان في العهد الزّياني، عبد الجليل قريان، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.

46. تلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمّار، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م.

47. تلمسان في العهد الزّياني، عبد العزيز فيلالي، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2002م، ج1، ج2.

48. تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدّولة الزّيانية، بلعربي خالد، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.

49. الثقافات والحضارات اختلاف النّشأة والمفهوم، محمد الجوهري حمد الجوهري، الدّار المصرية اللّبنانية، القاهرة، ط1، 2009م.

50. جامع جوامع الاختصار والتّبيان فيما يعرض للمعلّمين وآباء الصّبيان، أحمد بن أبي جمعة المغراوي، تحقيق أحمد جلولي البدوي ورابح بونار، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.

51. الجزائر في التّاريخ، رشيد بورويبة وآخرون، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م، ج3.

52. الجزائر في التّاريخ، عثمان سعدي، شركة دار الأمّة للنّشر، الجزائر، دط، 2013م.

53. الحضارة الإسلامية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد عادل عبد العزيز، دار غريب للنّشر، القاهرة، دط، 2000م.

54. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، حسن علي حسن، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م.

55. حضارة الموحّدين، محمد المنّوني، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 1989م.

56. حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، سليمان داود بن يوسف، مطبعة أبو داود، الجزائر، دط، 1993م.

57. الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة، لذي الوزارتين محمد لسان الدّين بن الخطيب، مطبعة التّقدم الإسلامية، تونس، ط1، 1329هـ.

58. الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، مختار حساني، دار الهدى، الجزائر، دط، 2011م، ج1، ج3، ج4.

59. الحياة العلميّة في إفريقيّة، يوسف بن أحمد حوالة ، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، ط1، 2000م، ج1.

60. خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدّار التونسيّة للنشر، تونس، ط3، 1986م، ج1.

61. الخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، د محمد مرتاض، دار الأوطان للطّباعة والنّشر، الجزائر، ط1، 2000م، ج1،ج2.

62. دراسات في الثّقافة الإسلاميّة، أمير عبد العزيز، دار الكتاب العربي للنّشر، بيروت، دط، 1979م.

63. دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، عبد الواحد ذنّون طه، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م.

64. الدّرة الألفية ألفية ابن معطي في النّحو والصّرف والخط والكتابة، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي المغربي، ضبط وتقديم سليمان إبراهيم البلكيمي، دار الفضيلة ،القاهرة، ط1، 2010م.

65. الدّولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، رشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1977م.

66. الدّولة الصّنهاجية، الهادي روجي إدريس، نقله إلى العربيّة حمّادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ج2.

67. دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، عبد الحليم عويس، دار الصّحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991م.

68. دولة بني حمّاد ملوك القلعة وبجاية، إسماعيل العربي، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1980م.

69. الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن نور الدّين المعروف بابن فرحون المالكي، تحقيق مأمون بن محيي الدّين الجنّان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.

70. ديوان ابن الأبّار، أبي عبد الله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي، قراءة وتعليق عبد السّلام الهرّاس، مطبعة فضالة، المغرب، دط، 1999م.

71. ديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي وآخرون، منشورات كليّة الآداب، جامعة محمد الخامس، المغرب الأقصى، دط، دت.

72. ديوان الشّاب الظّريف، شمس الدّين محمد بن عفيف الدّين سليمان التّلمساني، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النّجف، النّجف الأشرف، دط، 1967م.

73. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن خلدون، مراجعة سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، دط،2000م، ج2، ج6، ج7.

74. ديوان عفيف الدّين التّلمساني، دراسة وتحقيق يوسف زيدان، دار الشّروق للنّشر، الإسكندرية، دط، 2008م، ج1.

75. الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، دط، 1984م، السّفر1، السّفر4، السّفر5، السّفر8.

76. رحلة العبدري، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، تحقيق وتقديم علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، دمشق ، ط2، 2005م.

77. الرّسالة القشيرية في علم التّصوف، أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري النيسابوري، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001 م.

78. الرّسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين، أبي الحسن علي القابسي، تحقيق أحمد خالد، الشركة الوطنية للتوزيع، تونس، ط1، 1986م.

79. الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج، محمد الطّمار، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1983م.

80. الرّوض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان للنشر، بيروت، ط2، 1984م.

81. زاد المسافر وغرّة محيّا الأدب السّافر،أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي،اعتنى بنشره وتهذيبه والتّعليق عليه عبد القادر محداد، بيروت،دط، 1939م.

82. السّلطنة الحفصيّة تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، 1986م.

83. سير أعلام تلمسان، عبد الحق حمّيش، دار التوفيقية للنشر، المسيلة، الجزائر، ط1، 2011م.

84. شخصيات تلمسانية أندلسية ومظاهر من الثّقافة الإسلامية، الطّاهر توات، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2011م.

85. شخصيّات ومواقف تاريخيّة، زهير إحدادن، المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال والنّشر، الجزائر، دط، 2010م.

86. الشّخصية الجزائريّة الأرضيّة التاريخيّة والمحدّدات الحضاريّة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2002م.

87. شعر أبي مدين شعيب الرؤيا والتّشكيل، مختار حبّار، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2002م.

88. الشّعر العربي بالمغرب في عهد الموحّدين موضوعاته ومعانيه، علي إبراهيم كردي، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، ط1، 2010م.

89. شعراء الجزائر على عهد الدّولة الحمّادية سير ونصوص، مختار حبّار، ديوان المطبوعات الجامعية ،وهران ،الجزائر ،د ط ،1998م.

90. الصّراع الحضاري في العالم الإسلامي، عكاشة شايف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1984م.

91. ضحى الإسلام، أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط،دت، ج2.

92. عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، صالح بن قربة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2011م.

93. العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين ، محمد المنّوني ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، الرّباط، ط2،1977م.

94. العمائر الدينيّة في المغرب الأوسط، مبارك بوطارن، مؤسسة كنوز الحكمة، للنشر والتوزيع، الجزائر، دط،2011م.

95. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل للنّشر، بيروت، ط5، 1981م، ج1 ،ج2.

96. عنّابة في سياق التاريخ وعمق الجغرافية في القديم والوسيط، محمد جندلي ، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط2، 2008م ، ج1.

97. عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله ، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م.

98. عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبي العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط 2، 1981م.

99. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1990م.

100. الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة لأبي العبّاس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب ابن القنفد القسنطيني، تحقيق عبد المجيد التركي ومحمد الشاذلي النيفر، الدّار التونسيّة للنشر، تونس، دط، 1968م.

101. القاموس المحيط، مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1979م، الجزء03.

102. قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6هـ-9هـ/12م-15م) دراسة في دورها السّياسي والحضاري، مفتاح خلفات، دار الأمل للنشر، الجزائر، دط، 2011م.

103. قراءة جديدة للنّثر العربي القديم، د محمد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، دط، 2012م.

104. قيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي للنّشر، القاهرة دط، دت.

105. كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر، دط، 2009م.

106. الكتاتيب القرآنية بندرومة، عبد الرّحمن بن أحمد التّجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983م.

107. كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشّهير بحاجي خليفة، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليس، دار إحياء التّراث العربي، بيروت لبنان، دط، دت، مج 01، مج02.

108. لسان العرب، جمال الدّين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشادلي ، دار المعارف، القاهرة، ، دط، دت، مج01.

109. لمحات في الثّقافة الإسلامية ، الخطيب عمر عودة، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، ط1، 1973م.

110. مجموع رسائل موحديّة من إنشاء كتّاب الدّولة المؤمنيّة، اعتنى بإصدارها لافي بروفانصال، المطبعة الاقتصادية برباط الفتح، الرباط، دط، 1941م.

111. مدينة بجاية النّاصرية دراسة في الحياة الاجتماعيّة والفكريّة، محمد الشّريف سيدي موسى، دار كرم الله للنشر، الجزائر، دط، 2011م.

112. مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، يحي بوعزيز، دار البصائر للنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009م.

113. مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية، عبد العزيز فيلالي ومحمد الهادي لعروق، دار البعث للنشر، الجزائر، ط1، 1984م.

114. المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009م.

115. مشكلة الثّقافة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط4، 1984م.

116. المصادر العربيّة لتاريخ المغرب، محمد المنّوني، مؤسسة بَنْشَرَة للطّباعة والنّشر، الدار البيضاء، دط، 1983م، ج1.

117. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي عبد الواحد بن علي المراكشي بن علي التميمي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006م.

118. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للنشر، بيروت، ط2، 1980م.

119. معجم أعلام شعراء المدح النّبوي، محمد أحمد درنيقة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط، 2003م.

120. المغرب العربي تاريخه وثقافته، رابح بونار، الشّركة الوطنية للنّشر، الجزائر، ط2، 1981م.

121. المغرب عبر التّاريخ، إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، دط، 2000م، ج1.

122. المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1995م، ج2.

123. مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، آمنة تشيكو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989م.

124. المقدمة، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، دط، 2001م.

125. المكتبات في الإسلام نشأتها وتطوّرها ومصائرها، محمد ماهر حمادة، مؤسّسة الرّسالة للنشر، بيروت، ط2، 1978م.

126. من أعلام تلمسان، د محمد مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2004م.

127. المنّ بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر الموحّدين، عبد الملك بن صاحب الصّلاة، تحقيق عبد الهادي التّازي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، 1987م.

128. موجز التّاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، عثمان الكعّاك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.

129. الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر القديمة والوسيطة، يحي بوعزيز ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1999م، ج1.

130. موسوعة الشّعر الجزائري، الرّبعي بن سلامة وآخرون، دار الهدى للنّشر، الجزائر، ط1، 2002م، ج1.

131. موسوعة العلماء والأدباء الجزائريّين، رابح خدّوسي وآخرون، دار الحضارة، الجزائر، د ط، 2003م.

132. موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، يحيى بوعزيز، دار الهدى للنشر، الجزائر، دط، 2004م، ج1.

133. المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بأبي دينار، تحقيق محمد شمّام، المكتبة العتيقة، تونس، ط3، 1967م.

134. النّبوغ المغربيّ في الأدب العربي، عبد الله كنّون ، مكتبة التّراث المغربي الأندلسي، المغرب الأقصى، ط2، 1960م، ج1، ج2، ج3.

135. النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة ،دار الوفاء لدنيا النشر، الإسكندرية، دط، 2004م.

136. نظرات في الثّقافة الإسلاميّة، عزّ الدّين الخطيب التّميمي، دار الشهاب للنشر الجزائر، دط، 1988م.

137. نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرّي التّلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر للنشر، بيروت، دط، 1988، مج1، مج3، مج4، مج7.

138. النّقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوّره، د محمد مرتاض، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، دط، 2000م.

139. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدّين احمد بن عبد الوهّاب النّويري، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2004م، ج24.

140. نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، أحمد بابا التنبكتي، منشورات كليّة الدّعوة الإسلامية ،طرابلس، ط1، 1989م.

141. هذي هي الثّقافة، أحمد بن نعمان، شركة دار الأمة للنّشر، الجزائر، ط1، 1995م.

142. وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر، بيروت، دط، 1997، مج3، مج5، مج7.

143. وهران عبر التاريخ، يحيى بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009م.

ثانياً: الأطاريح الجامعيّة:

1. ابن الأبّار الأندلسي الأديب، ماهر زهير جرّار، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1983م، تحت إشراف د إحسان عبّاس.

2. أدب الرّحلة في المغرب العربي، جميلة روباش، رسالة دكتوراه في الأدب الجزائري القديم، كلّية الآداب واللّغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015م، تحت إشراف د محمد لخضر فورار.

3. الإسهام العلمي للبربر في الأندلس على عهد الموحّدين (ق6-7هـ/12-13م)، الحبيب حاكمي، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2010م، تحت إشراف د عبد القادر بوباية.

4. إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدّرس النّحوي، جميلة راجاح، أطروحة دكتوراه، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة مولود معمري تيزي وزّو، 2015م، تحت إشراف د صالح بلعيد.

5. الأشكال النثريّة في الأدب المغربي القديم العهد الموحدي نموذجا، حكيمة إملولي، مذكّرة ماجستير في الأدب المغربي القديم، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009م، تحت إشراف د علي عالية.

6. بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م، نصر الدّين بن داود، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التّاريخ الوسيط، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية قسم التّاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2010م، تحت إشراف د محمد بن عمر.

7. تلمسان في العهد الزّياني، بسّام كامل عبد الرزّاق شقدان، رسالة ماجستير، قسم التّاريخ، كلية الدّراسات العليا، جامعة النّجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م، تحت إشراف د هشام أبو رميله.

8. جوانب من تاريخ التّعليم في المغرب الوسيط بين القرن (7-9هـ)، الحسن إسكان، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في العلوم، كليّة الآداب جامعة محمد الخامس، الرّباط 1988م.

9. دور علماء المغرب الأوسط في ازدهار الحركة العلميّة في المغرب الأقصى خلال القرنين 7و8هـ/12و14م، رشيد خالدي، مذكّرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2011م، تحت إشراف د لخضر عبدلي.

10. شعر الفقهاء في المغرب العربي في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، محمد مرتاض، رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدّولة، معهد اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة تلمسان، 1994م، تحت إشراف د عبد الله ابن حلي.

11. العلاقات الثّقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزّياني (633-962هـ / 1235م-1554م) عبد القادر بوحسّون، مذكّرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2008م، تحت إشراف د لخضر عبدلي.

12. فقهاء المالكيّة دراسة في علاقاتهم العلميّة في الأندلس والمغرب حتّى منتصف القرن السّادس للهجرة / الثّاني عشر للميلاد، علياء هاشم ذنون المشهداني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، مجلس كليّة التّربية، جامعة الموصل، 1424هـ/2003م، تحت إشراف د مزاحم علاوي الشاهري.

13. المعالم الأثريّة الإسلاميّة ببجاية ونواحيها، عبد الكريم عزّوق، أطروحة دكتوراه، قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2008م، تحت إشراف د عبد العزيز لعرج.

14. المغرب الأوسط في عهد الموحّدين دراسة تحليليّة للأوضاع الثقافيّة والفكريّة، علي عشّي، مذكّرة ماجستير، قسم التّاريخ وعلم الآثار، جامعة باتنة، 2012م، تحت إشراف د مسعود مزوهري.

15. الوصايا في الأدب الأندلسي، حذيفة عبد الله عزام، مذكّرة ماجستير في اللّغة وآدابها، كليّة الدّراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2007م، تحت إشراف د صلاح جرار.

ثالثاً: الدّوريات:

1.مجلّة الأصالة، وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية والأوقاف، الجزائر، السنة السادسة، العدد 19، 2011م، مج 07.

2.مجلّة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدّينية والأوقاف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، العدد (49، 50) أكتوبر 1977.

3.مجلة الفضاء المغاربي، مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان، العدد الثّاني، 2004م.

4.مجلّة الفضاء المغاربي، مخبر الدّراسات الأدبية والنّقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان، العدد الرّابع، 2007م.

5.مجلّة الفضاء المغاربي، مخبر الدّراسات الأدبيّة والنقديّة وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان ، العدد الخامس ،2009م.

6.مجلّة عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد 02، 2011م.

7.مجلّة عصور الجديدة، مختبر البحث التّاريخي، تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد 18، 2015م.

8.ملتقى الدّراسات المغربية الأندلسية، تيّارات الفكر في المغرب والأندلس الرّوافد والمعطيات، جامعة عبد الملك السعيد، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، 1993م.

9.ملتقى العلاقات العلميّة والحضارية بين زواوة وتلمسان، منشورات الشؤون الدينيّة والأوقاف، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع تيزي وزو الجزائر، دط، 2011م.

10. الملتقى الوطني الثّاني حول عبد المؤمن بن علي الكومي النّدرومي الجزائري مؤسّس الدّولة الموحّدية جمع وإعداد عزّ الدّين ميدون، جمعية الموحديّة، تلمسان، الجزائر،2011م.

11. ملتقى مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا، جمع وتعليق محمد بوزواوي، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، دط،2011م.

فهرس

الموضوعات




الملخّص:

يتناول هذا البحث " بجاية وتلمسان وأثرهما الثّقافي والحضاري على المغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى القرن السّابع الهجري " وقد سُلِّط الضّوء على صورة الحياة الثّقافيّة والفكريّة بأبرز حاضرتين في المغرب الأوسط، ومدى تأثيرهما في ازدهار الحركة الثّقافيّة والحضاريّة للمغرب الإسلامي والأندلس ككلٍّ؛ عبر طائفة من العلماء والمشاهير وما خلّفوه من أعمال أدبيّة وعلميّة لإظهار مدى التّفاعل بينهم في تمتين الرّوابط الثّقافيّة بين الحواضر المغربيّة.

الكلمات المفتاحيّة: بجاية، تلمسان، المراكز الحضاريّة، حركة العلماء، الحياة الثّقافيّة، المغرب الإسلامي.

Résumé:

Cette recherche traite le thème de :« Bejaia et Tlemcen, et leur impact culturel et civilisationnelsur le Maghreb islamique du 5ème au au7ème siècle AH ».Tout en se basant sur leur image de la vie culturelle et intellectuelle au Maghreb central, ainsi que leur influence dans le développement du mouvement culturel et civilisationneldu Maghreb islamique et de l’Andalus dans son ensemble, à travers une série desavants et célébrités, et leurs travaux littéraires et scientifiques,afin de démontrer le renforcement des liens culturels entre les civilisations Maghrébines.

Mots-clés :Béjaïa, Tlemcen, Centres civilisationnels , mouvement des chercheurs, la vie culturelle, le Maghreb islamique.

Summary:

This research deals with the theme of "Bejaia and Tlemcen, and their cultural and civilizational impact on the Islamic Maghreb from the 5th to the 7th century AH". While basing on their image of cultural and intellectual life in the central Maghreb, as well as their influence in the development of the cultural and civilizational movement of the Islamic Maghreb and Andalus as a whole, through a series of scholars and celebrities and their literary and scientific works to demonstrate the strengthening of cultural links between Maghreb civilizations.

Keywords: Bejaia, Tlemcen, Civilizational centers, movement of researchers, cultural life, the Islamic Maghreb.